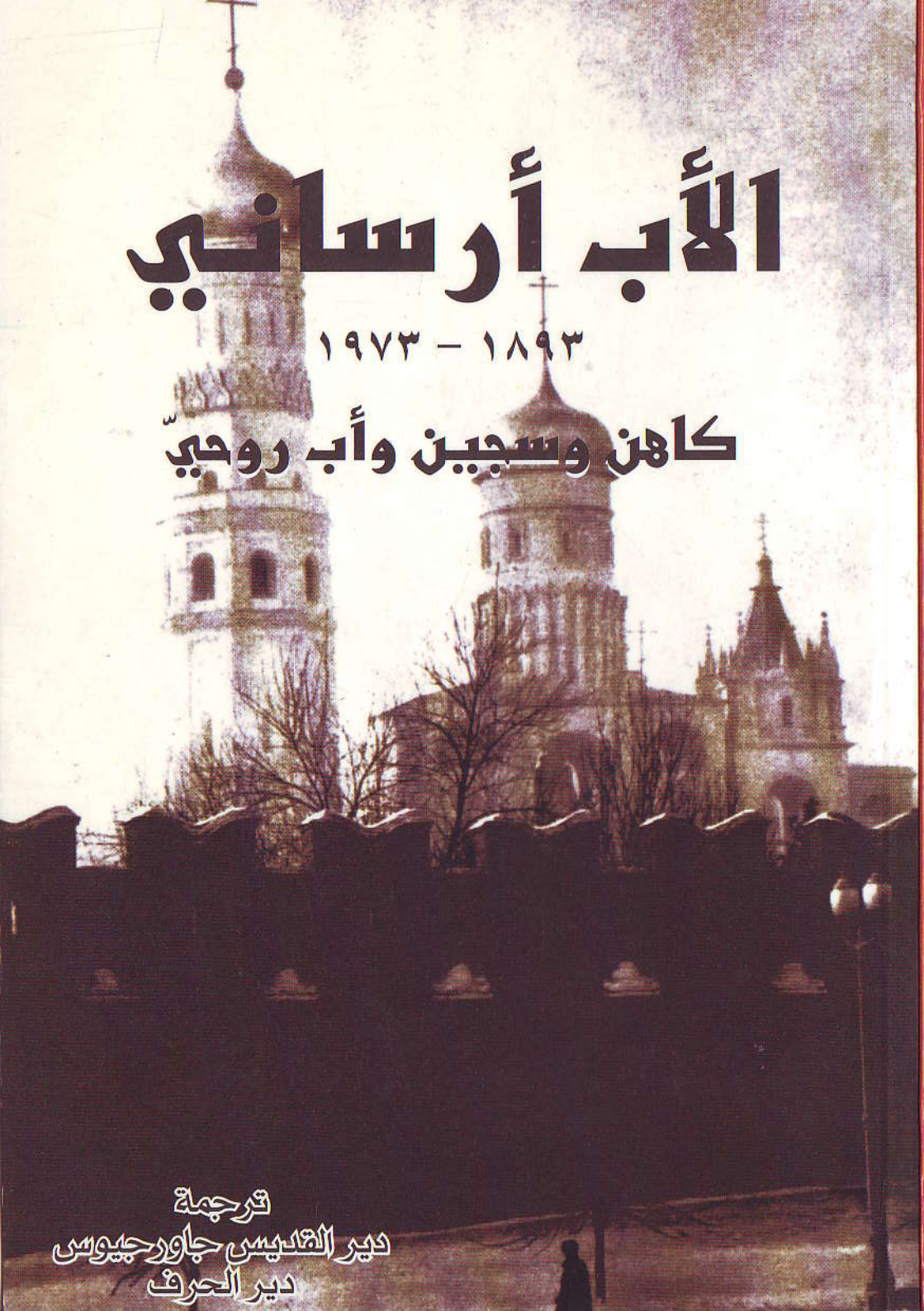

الأب أرساني

١٨٩٣ - ١٩٧٣

كاهن وسجين وأب روحيّ

ترجمة
دير القديس جاورجيوس
دير الحرف

الأب أرساني ١٨٩٣ - ١٩٧٣

ولد الأب أرساني في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وكان أخصائياً في الفن الروسي، ثم أصبح كاهناً راهباً. اعتقلته الحكومة الروسية للمرة الأولى عام ١٩٣٣، لنشاطاته الدينية، ونُفي مرات عدة. ثم تمّ ارساله الى "معسكر خاص" عاش فيه حياة شديدة القسوة حتى العام ١٩٥٨. وأخيرا رقد بالرب عام ١٩٧٣.

كان كاهناً ورعاً وأباً روحياً مميزا قدّم بمثاله الحيّ القدوة الفضلى لأبنائه الروحيين العديدين، وتمّم وصايا المسيح، معتمدا في كل حين على معونة والدة الاله الكلية القداسة، وأعطى ثمرا كثيرا...

هذا الكتاب شهادة على حياة مسيحية مشعّة قادت الكثيرين الى نور المسيح الذي لا يغرب، وصورة لنعمة الله التي ترفع الانسان الأرضي المجبول بالتراب، الى كائن ملائكي يمجّد الله في كل لحظة من لحظات حياته.

الأب أرسانيي

١٨٩٣ _ ١٩٧٣

كاهن وسجين وأب روحيّ

جمع هذه المعلومات ابنه الروحي
اسكندر

ترجمتها من الروسية الى الانكليزية
فيرا بوتينيف

ترجمتها عن الانكليزية
رهبنة دير القديس جاورجيوس
دير الحرف

أنفق على طبعها
السيدان رجاء بدران وعزيز عريضة

الأب أرساني

ترجمة دير القديس جاورجيوس
دير الحرف
العام ٢٠٠٠

مقدمة

بيتر أندريفيتش سترلتزوف - كما ورد في الكتاب - ليس اسمه الحقيقيّ، ولكنه أصبح بعد سيامته كاهناً "الأب أرساني": هكذا عرفه الكثيرون حياً، وبعد وفاته وانتشار سيرة حياته بشكل واسع في روسيا وخارجها.

وهذه بالواقع ليست سيرة حياة، بل مجموعة شهادات حيّة كتبها أشخاص عايشوا الأب أرساني وتأثروا بشخصيته وبطريقة حياته، وعرفوا الله من خلاله.

انها قصة ووصف لتلميذ جديد للمسيح، برهن بايمانه وأعماله أن بالامكان العيش بحسب وصايا الرب في خضم الحياة المعاصرة المضطرب، في ظروف شديدة القسوة، ومحيط عدواني شرس ومعادٍ للدين...

كان شعاره: "حمل أثقال الآخرين لاتمام ناموس المسيح"، وسلاحه الصلاة القلبية المتواصلة، ورجاؤه التام بمعونة الله، واتكاله الذي لا يخيب على والدة الاله.

هكذا عاش الأب أرساني، على مثال الرسول الالهي: حاملاً في جسده كل حين اماتة الرب يسوع، ولم يطلب ما هو لنفسه، بل ما هو للآخرين، معتنياً باخوته الصغار، ومظهراً نفسه "كخادم الله: في صبر كثير، في شدائد في ضرورات في ضيقات في ضربات في سجون في اضطرابات، في أتعاب في أسهار في أصوام... كأن لا شيء له وهو يملك كل شيء" (٢ كور ٦: ٤-٥ و١٠).

في النهاية ليس من كتاب يمكن أن يضمّ كل شيء. تبقى الحياة الروحية أكبر بكثير من الكلمات، ولا يمكن حصر الروح في مكان واحد لأنه يهبّ حيث يشاء، ولا يتوقف عن الهبوب. هذه الصفحات صورة مصغّرة عن الحياة المسيحية. رجاؤنا أن تكون، بنعمة الله، كالخميرة التي خبّأتها امرأة في ثلاثة أكيال من الدقيق...

الجزء الأول

المعسكر

معسكر السجناء

كان البرد القارص وظلمة الليل يشلاّن كل شيء. كل شيء ما عدا الرياح. كانت الرياح تحمل غيوماً تمطر ثلجاً جليدياً يتكسّر فيشكّل ترسّباً شبيهاً بقطع الفخار المحطمة. وعند اصطدام الرياح بحاجز ما، كانت تقذف كتلات من الثلج، وتلتقط غيرها من الأرض، ثم تتابع سيرها الى الأمام... الى لامكان.

في بعض الأحيان كانت تمرّ دقيقة من الهدوء. ثم تظهر في وسط الظلمة بقعة شاسعة من الضوء. وفي اشعاعات الضوء هذه، يمكن للمرء أن يرى ثكنات منتشرة الواحدة تلو الأخرى، شبه مدينة. كما يمكنه أن يرى في الأفق أبراجاً عليها أنوار كشافة وحرّاس. وامتدادات من الأسلاك الشائكة تشكل خطوطاً للحماية يمكن أن يُرى من بينها الوهج الجليدي للأنوار المهدِّدة. وبين الخط الأول والأخير من الأسلاك الشائكة، كانت الكلاب البوليسية تطوف بكسل. وأشعة الأنوار الكشافة تنحدر من أعلى الأبراج الى الأرض، وتنزلق ببطء على الثلج ثم تعود الى الأسلاك الشائكة.

فوق الأبراج كان يقف جنود يحملون بنادق أوتوماتيكية ويراقبون على الدوام المساحة الممتدة بين خطوط الأسلاك الشائكة. ومع ذلك فلم يكن الوضع هادئاً أبداً. من جديد كانت الرياح تحمل الثلج، فيقف عائقاً أمام اشعاعات الأنوار، ويزيد بؤس الثكنات ظلمةً.

كان المعسكر يغط في نوم عميق.

وفجأة دوى صوت رنين معدني عند مدخل المعسكر أولاً، ثم تردد في أماكن مختلفة. فأسرعت الأنوار الكشافة عدوها، وانفتحت بوابات المعسكر ودخلت منها شاحنات مليئة بالمراقبين والحرّاس.

وانتشرت العربات بسرعة في كل أنحاء المعسكر. واندفع أربعة رجال من الشاحنات الى كل ثكنة، للتدقيق بهيئة البنية والتحقق من عدم وجود أية محاولة للفرار. وعندما تأكدوا أنه لم يحصل خلل بأي شكل من الأشكال، فتح المراقبون أبواب الثكنات. انه الجزء الأكثر دقة في الاجراءات بالنسبة الى حراس الأبراج: فاتقدت الأنوار ونزلت البنادق عن أكتاف أصحابها، وصارت كلاب الحراسة تدمدم، ولم تعد تهدأ في مكانها. لقد بدأ المعتقل نهار عمله.

وببداية النهار الشتوي الشمالي ارتفع معطف الظلمة قليلاً، ولكن لم يبدُ أن الرياح قد لاحظت التغيير، بل تابعت عاصفتها الثلجية الهادرة والعديمة الرحمة. وعلى مسافة قصيرة من الدائرة الداخلية لمنطقة الأمن في المعسكر، كانت ألسنة اللهب المتصاعدة من المشاعل[1] تلعق الهواء. كانت هذه النيران تُضرم لتذويب الثلج الذي يغطي الأرض، فيتسنى حفر المقابر الجماعية: كان هذا عمل الرجال في الثكنات.

[1] مفردها مشعلة: نار تضرم في الهواء الطلق (المترجم).

الثكنات

عاد المعسكر الى الحياة بخروج السجناء من ثكناتهم لتلاوة الأسماء. وكان البرد والرياح الجليدية والظلمة مؤلمة جداً للرجال في الخارج، حيث السجناء يقفون في صفوف بحسب الثكنة، ويتلقون طعامهم ثم يذهبون مباشرة الى العمل.

لقد أُفرغت الثكنات من قاطنيها، ولكنها بقيت مفعمة بروائح الثياب الرطبة، والعرق البشري، والبراز، ومبيدات الجراثيم. كان يبدو وكأن صراخ المراقبين، وصوت الشتائم التي تمزق النفس، وعذاب الناس، وقسوة المجرمين، قد بقيت فيها على السواء. هذا الشعور المحبط، المخيّم بين المقاعد العارية وصفوف الأسرّة المثبتة في الجدران، كان يعارضه دفء المكان الذي يجعله يبدو وكأنه قابل للعيش، ويلطّف الاحساس بالفراغ.

ان درجة الحرارة التي تبلغ ٣٢° تحت الصفر، والرياح العاصفة اليوم لم تكن ترعب فقط السجناء الذين ذهبوا الى العمل، بل وأولئك الذين كانوا يراقبونهم أيضاً، متدثرين بملابسهم السميكة.

لقد خرج السجناء الى عملهم خائفين. كانوا يعرفون أن عملهم قد صُمِّم ليكون قاسياً عليهم، وأن المتطلبات التي وضعها قادة ضباط المعسكر هي شبه مستحيلة التحقيق. لقد صمموا كل شيء ليقودوا هؤلاء الاشخاص ببطء الى حتفهم. كان السجناء السياسيون، وأيضاً المجرمون غير السياسيين الذين يستحقون عقاب الموت على جرائمهم، يرسلون الى هذا المعسكر في آن. والقلة منهم يخرجون منه أحياء.

وقد أُعطي الأب أرساني ــ وكان اسمه بيتر أندريفيتش سترلتزوف قبل سيامته كاهناً ــ اسم سجين رقم ١٨٣٧٦. وتم ارساله الى هذا المعسكر منذ ستة أشهر، وقد فهم أن لا أمل له بالخروج منه يوماً.

راح الليل يتحول الى فجر حالك، ثم الى نهار قصير نصف معتم. والأنوار الكشافة ما زالت تضيء المعسكر. والأب أرساني في خدمته على الدوام. كان عليه أن يقطع جذوع الأشجار بقرب الثكنة، ثم ينقلها الى داخل الثكنة لتغذية الموقد.

وبينما هو يقوم بعمله كان يردد دون انقطاع: "ربي يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ!" كانت جذوع الأشجار رطبة وشبه مثلجة، وكان تقطيعها صعباً. وبما أن الفؤوس ممنوعة في المعسكر، فقد كان عليه أن يقطعها بدقّ اسفين خشبي في داخلها، بواسطة قطعة حطب أخرى. وكانت قطعة الحطب الضخمة والمثلجة تنزلق وتقفز من بين يديّ الأب أرساني الضعيفتين، ولم يكن بمقدوره أن يغرس الاسفين بالشكل الملائم. والعمل يسير ببطء. فالانهاك وقلة الطعام كانا يجعلان من المستحيل العمل بالشكل الملائم. كان كل شيء مرهِقاً وصعباً. ومع ذلك يجب أن تدفأ الثكنة لعودة العمال. يجب أن تُنظَّف وتُرتَّب وتُكنس. فاذا لم تكن الثكنة جاهزة في الوقت المحدد، فان المراقب سوف يرسل الأب أرساني الى زنزانة العقاب، ويضربه بقية المساجين.

وكان السجناء السياسيون يتعرّضون كثيراً للضرب: فالمراقبون يضربونهم لمعاقبتهم، والمجرمون يحبون أن يفعلوا ما كانوا يفعلونه في السابق، فيفجّرون كل حقدهم وقسوتهم بهذه الطريقة. كل يوم كان يتعرض أحدهم للضرب، وذلك بكل سرور: اذ كانت هذه تسلية حقيقية للمجرمين.

وراح الأب أرساني يصلي: "ارحمني أنا الخاطئ. أعنّي. انني أتوكل عليك يا رب، وعليكِ يا والدة الاله. لا تتركيني، أعطيني القوة"، وهو يكاد يسقط من الاجهاد، حاملاً الحزمة تلو الحزمة من الحطب للمواقد.

حان الآن موعد اضرام النار. ولكن المواقد كانت باردة، ولم يعد فيها أية حرارة. ولم يكن من السهل اضرام النار لأن جذوع الأشجار كانت رطبة، ولم يكن هناك أي مادة جافة تصلح لاشعال النار. في اليوم السابق وجد الأب أرساني بعض الأغصان الجافة، ووضعها في زاوية بقرب أحد المواقد وهو يفكر: "غداً سوف أتمكن من اشعال المواقد بسرعة كبيرة!" ولكن عندما خرج لاحضار هذه الأغصان الجافة، وجد أن بعض المجرمين قد صبّ عليها الماء. وعلم أنه اذا تأخر في اشعال النار، فلن تكون الثكنة دافئة عند عودة العمال. فركض الأب أرساني ليحاول العثور على بعض لحاء الشجر الجاف، أو أي شيء آخر جاف خلف الثكنة. وكان يصلي طوال الوقت: "ربي يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ"، ولكنه أضاف: "لتكن مشيئتك".

لقد نظر في كل مكان ولم يجد شيئاً جافاً. ولم يعلم كيف يمكنه ان يشعل النار.

وبينما كان الأب أرساني يبحث عن أغصان جافة، مرّ رجل مسنّ يعمل في الثكنة المجاورة. كان مجرماً بالغ القسوة والقوة. ويقول الناس ان اسمه كان معروفاً في كل أنحاء روسيا حتى في أيام القيصر. وقد ارتكب عدداً كبيراً جداً من الجرائم لدرجة أنه هو نفسه يعجز عن تذكرها كلها. وما كان يُعرف الكثير من التفاصيل عن جرائمه لأن مآثره عديدة جداً. ومع ذلك فعندما ساقوه الى المحاكمة، علم القاضي ما يكفي عن جرائمه ليحكم عليه بالقتل رمياً بالرصاص. وفيما بعد تبدلت عقوبته الى الاعتقال في معسكر السجناء هذا، الذي هو أسوأ بكثير برأي بعض المجرمين: فان القتل رمياً بالرصاص يعذب الانسان لوقت قصير، أما في هذا المعسكر فالموت بطيء ومؤلم. والذين أخلي سبيلهم من المعسكر خرجوا منه معاقين. ولعلم المجرمين بهذا، فقد أصبح العديد منهم قساة. وتجلت قسوتهم بضرب السجناء السياسيين، وأحياناً غيرهم أيضاً من المجرمين. فكانوا يضربونهم حتى الموت.

كان هذا المجرم زعيم ثكنته كلها. حتى ان ضباط المعسكر كانوا يرهبونه: اذ يكفي أن يغمز بعينه لكي يحصل "حادث". وكان رفاقه الذين يشاطرونه السكن في الثكنة ينادونه: "اللحية الرمادية". كان في عقده السادس، وذا شكل لطيف. وهو كثيراً ما يبدأ بالتحدث الى الناس بنعومة، وأحياناً بمزاح. ثم يبدأ فجأة يشتم بفظاعة ويلكم بقبضتيه معاً.

واذ رأى الأب أرساني يبحث عن شيء ما صاح: "عمَ تبحث أيها الكاهن الغبي؟"

- "لقد حضَّرت بعض الأغصان الجافة لاشعل النار اليوم، ولكن أحداً قد صبّ عليها الماء، لذا فاني أبحث عن شيء جاف. ان جذوع الأشجار رطبة ولا أعلم ماذا أفعل".

فرد "اللحية الرمادية":

- "هذا صحيح أيها الكاهن الغبي، فسيُقضى عليك اذا لم تجد مواد لاضرام النار".

وتمتم الأب أرساني:

- "سيعود الرجال من العمل ويشعرون بالبرد، وسوف يضربونني".

فقال "اللحية الرمادية":

- "تعال أيها الكاهن[٢]، فسأعطيك بعض الأغصان الجافة ".

وقاد الأبَ أرساني الى كومة كبيرة من المواد الجافة الجيدة لاضرام النار. ففكر الأب أرساني أن هذه قد تكون مزحة؛ وكان يعرف "اللحية الرمادية" جيداً ولم يتوقع منه أية مساعدة.

[٢] بالروسية Pop، وهي في العادة تسمية شعبية ومحتقرة للكاهن.

قال المجرم:

- "خذ أيها الأب أرساني، خذ كل ما تحتاج اليه".

فشرع الأب أرساني يجمع بعض الأغصان الجافة بسرعة وهو يفكر طوال الوقت: "سآخذ بعض الأغصان الجافة وسوف يصرخ بأني سارق". ثم انتبه بأن الرجل قد ناداه "الأب أرساني". فصلى بصمت وارتسم بعلامة الصليب في قلبه، وشرع في جمع بعض الأغصان.

فصاح "اللحية الرمادية":

- "خذ أكثر أيها الأب أرساني! أكثر!"

ثم انحنى وبدأ يساعد الأب أرساني، ويحمل الأغصان الى الثكنة ويضعها بقرب الموقد. فانحنى الأب أرساني أمامه وقال له: "ليباركك الله".

فلم يُجب "اللحية الرمادية"، وانصرف.

وضع الأب أرساني الحطب في المواقد وأشعل النار، فبدأت جذوع الأشجار تضطرم. كان لديه وقت قصير يكفيه فقط لرمي بعض أجزاء الحطب في اللهب، قبل أن يسرع لتنظيف الثكنة ومسح الطاولات والتكنيس، واحضار المزيد من الجذوع.

وكانت الساعة تقارب الثالثة. أصبحت المواقد حمراء حامية، وبدأ الدفء يعمّ الثكنة. وازدادت الروائح قوة، ولكن الحرارة جعلت الثكنة تستعيد جوّها الحميم والمريح بعض الشيء. وقد حضر المراقب مرات عدة بينما كان الأب أرساني يهتم بعمله. وكالعادة تفوه بكلمات ساخطة ومتوعدة. وخلال احدى زياراته ضرب الأب أرساني على رأسه بقطعة من الحطب.

ان حمل جذوع الأشجار ورميها داخل الموقد قد أتعب الأب أرساني الى الغاية. وأحس بألم في رأسه لأنه كان متعباً جداً وضعيفاً، وراح قلبه يطرق بشكل غير منتظم. وأصبح تنفسه سيئاً. كانت ساقاه ضعيفتين لدرجة أنهما بالكاد تحملان جسده المنهك. فهمس وهو ينوء تحت ثقل الجذوع: "لا تتخلَّ عني يا الله".

المرضى

لم يكن الأب أرساني وحيداً في الثكنة. في ذلك اليوم بقي فيها ثلاثة سجناء آخرين: اثنان منهم في حالة المرض الشديد بينما الثالث، وهو رجل يحب البطالة ويدعى فيدكا، جرح نفسه عمداً بفأس. واذ كان مستلقياً على سريره المثبت في الجدار، كان يغط في النوم ثم يستيقظ فجأة ويصرخ: "أبق الثكنة دافئة! أنا أشعر بالبرد! اذا لم تقم بعملك فسأصفعك!". ثم يغط في النوم حالاً بعد ذلك.

كان السجينان المريضان في حالة من الخطر الشديد. ولم يتم ارسالهما الى مستشفى المعسكر السجن لأنه كان ممتلئاً. وحوالي الظهر مرّ أحد الأطباء ونظر الى المريضين عن بُعد وصرخ للأب أرساني: "سوف يموتان قريباً. فالكثيرون منهم يموتون في هذه الأيام. الجو بارد!" كان يتكلم دون أن يأبه البتة بأن المريضين قد يسمعانه. ولمَ يأبه؟ كان يفترض بالمساجين أن يموتوا في هذا المعسكر. ثم اقترب من السجين الثالث، ذاك الذي جرح يده وراح يعول الآن ليُظهر ألمه، وأمره: "كفاك تهريجاً. غداً سوف تذهب الى العمل! والا فسوف نرسلك الى السجن الانفرادي حيث "ستستريح" بالفعل".

وصار الأب أرساني يوقف عمله من وقت لآخر ليذهب الى السجينَين الشديدَي المرض، فيساعدهما بحسب امكانياته: يكلمهما، ويصلي من أجلهما: "أيها الرب يسوع المسيح أنقذهما، اشفهما، أظهر لهما رحمتك. اجعلهما يعيشان حتى يستعيدا حريتهما!" فكان يهمس بهذه الصلاة ويكررها باستمرار وهو يرتب فراشيهما القاسيَين أو يغطيهما. وكان أحياناً يعطيهما الماء ليشربا، أو الدواء

الذي رماه الطبيب على سريريهما. كان الدواء الرئيسي في المعسكر هو الأسبيرين الذي يفترض أن يشفي جميع الأمراض.

وأعطى الأب أرساني قطعة من الخبز للسجين الذي كان في حالة أخطر، وذلك ربع حصته اليومية. وبعد أن ليّن الخبز بالماء، أطعمه للمريض الذي فتح عينيه، واذ نظر الى الأب أرساني، دفع يده بعيداً. فقال الأب أرساني بهدوء: "كُلْ، كُلْ بمعونة الله". فابتلع المريض الخبز وقال: "ماذا تريد مني أنت والهك؟ ماذا تأمل بالحصول مني؟ أنت تأمل بأن أموت فتأخذ مقتنياتي. أنا لا أملك شيئاً، فلا تفكر بالمحاولة!" لم يردّ الأب أرساني بل غطاه بعناية. واقترب من المريض الثاني لمساعدته حتى يستدير، قبل أن يشرع بتنظيف الثكنة من جديد.

لقد قرر ألاّ يخفي مواد اضرام النار التي أعطاه اياها "اللحية الرمادية"، بل كوّمها بجانب الموقد وفكر: "أمس حاولت أن أخفيها ورأيت ما حصل: لقد صبّوا الماء فوقها. واليوم ساعدني الله".

أصبحت المواقد حمراء حامية، وفرح الأب أرساني لأن العمال سوف يعودون ويكون بامكانهم أن يرتاحوا قليلاً في دفء الثكنة. وفيما هو يفكر بهذا دخل مراقب. لا بد أنه كان في آخر العقد الثالث من العمر، وبما أنه يبدو مرحاً وباسماً على الدوام ــ واسمه بابكوف ــ كان جميع السجناء يلقبونه بـ"المتفائل".

– "ماذا تظن بأنك تفعل أيها الكاهن؟ أنت تدفئ الثكنة وكأنها حمّام بخاري! أنت تستعمل جذوع أشجار الدولة من أجل أعداء الشعب. سوف أريك". فلكم الأب أرساني على وجهه، وخرج وهو ما زال يبتسم. وراح الأب أرساني يمسح الدم عن وجهه وهو يصلي: "لا تتخلَّ عني، لا تتركني أنا الخاطئ، ارحمني".

واستوى فيدكا الكسول في فراشه وقال: "هذا الخنزير الوسخ، لقد ضربك بشدة على أنفك، فقط للمتعة! هو نفسه لا يعلم لمَ ضربك!" وبعد

ساعة عاد "المتفائل" وصاح: "حان وقت التفتيش، انهضوا كلكم!" فقفز فيدكا عن سريره المثبت في الحائط، وانتصب الأب أرساني منتبهاً وهو يمسك المكنسة بين يديه.

وصاح المراقب: "من هنا غيركما؟" رغم أنه سبق وطرح السؤال نفسه هذا الصباح، وكان يعلم تماماً مَن هم الموجودون في الثكنة. وأضاف: "شخصان في حالة المرض الشديد، وآخر سوف يذهب غداً الى العمل!"، فيما كان يسير على طول الممشى الممتد بين الأسرّة. ورأى المريضَين وفهم أنهما لن يستطيعا النهوض. ولكنه بدأ بالصياح، فقط للشكل. ومع ذلك فانه لم يتجرأ على الاقتراب منهما: من يعلم، فقد تكون حالتهما معدية!

- "من مصلحتك أن تنتبه أيها الكاهن، وتتأكد من أن كل شيء كما يجب! سوف يرسلون في طلبك للاستجواب، وستضطر للاجابة عن كل شيء". ثم رحل وهو يتمتم بكلمات بذيئة.

كان النهار يولّي والظلام يحلّ بسرعة. وصار السجناء على وشك العودة. انهم يأتون دائماً متجمدين، متعبين، غاضبين وخائري القوى. وما أن يصلوا الى أسرّتهم حتى يتهالكوا فوقها شبه مغمى عليهم. وبعودة العمال امتلأت الثكنة بالبرد والرطوبة، وبجو عام من التوتر والانزعاج.

وكانوا يسوقونهم لتناول الطعام بعد عودتهم بنصف ساعة. كان وقت الأكل وقت عذاب للكثير من المساجين. فالمجرمون ينتزعون طعام السجناء السياسيين وينهالون بالضرب على الذين يحاولون منعهم عن ذلك. وكان الضعفاء والعاجزون عن الدفاع عن أنفسهم يُحرمون من الغذاء.

كان السجناء السياسيون يفوقون السجناء غير السياسيين عدداً، الا أن اللصوص والقتلة يقوون على السجناء الأكثر ضعفاً. وكل يوم يُحرم العديد من السجناء وجبة طعامهم الهزيلة. وكان هذا يؤدي الى عذاب لا يوصف. فالسجناء

المتعبون والجائعون، والمرتجفون من البرد على الدوام، لا يفكرون سوى بالطعام، ويحلمون بوجبات غذائية كاملة لكي يشعروا بالفرح.

كانت الوجبات التي يحصلون عليها يرثى لها، والحصص صغيرة جداً وشبه فاسدة. ولسبب لا يعلمه أحد، كانت تفوح منها رائحة الكيروسين. كل ذلك كان مصمماً لقتلهم ببطء.

وكثيراً ما حُرم الأب أرساني من الوجبات، لكنه لم يتذمر قط. فاذا أُخذت وجبته، يعود ببساطة الى الثكنة، يتمدد على سريره ويصلي. ويشعر في البدء بالدوار، ويرتجف من البرد والجوع، وتكون أفكاره مشوشة. ومع ذلك يتلو خدمة الصلاة السحرية ومديح والدة الاله، ومديح القديس نيقولاوس والقديس أرساني. ويذكر أبناءه الروحيين وجميع الراحلين الذين حفظهم في ذاكرته. وبعد أن يصلي الليل كله على هذه الحال، كان يشعر في الصباح بقوة جديدة، كما لو أنه تناول الطعام ونام.

كان للأب أرساني العديد من الأبناء الروحيين خارج المعسكر وداخله. وكانت روحه تتعذب من أجل كل واحد منهم. عندما عاش في معسكرات عادية، كان باستطاعته أن يتلقى رسائل منهم، ولكن ما أن حضر الى معسكر الموت حتى أصبح الأمر متعذراً. وكان أبناؤه الروحيون يظنون أنه مات. لقد استعلموا عنه وحصلوا دوماً على هذا الجواب: "ربما أُرسل الى "المعسكر الخاص" ، فاسمه غير وارد في أي سجل".

الآن يخيم الظلام. دخلت أرتال المساجين منطقة المعسكر، الواحد بعد الآخر، وانصبّت في الثكنات المختلفة. ودخل الرجال الى ثكنة الأب أرساني غاضبين ومتعبين، ولكن ما أن دخلوا الى الدفء حتى شعروا بالراحة. اليوم لم يضرب أحد الأب أرساني، ولا أخذ أحد حصته من الخبز.

لقد حصل الرجلان المريضان على نصف حصتهما فقط، وأخفى لهما الأب أرساني قطعة صغيرة من السمك داخل ثيابه. وفي وقت لاحق بدأ الأب أرساني باطعام المريضَين. لقد سخّن الماء مع بعض أوراق الصنوبر ومزجه بالأسبيرين، وأعطى منه الرجلين معاً. وقسم الخبز والسمك بينهما.

وبعد خمسة أيام بدأ السجينان المريضان يشعران بشيء من التحسن. قد يعيشان، ولكنهما ما زالا عاجزين عن النهوض. لقد اعتنى بهما الأب أرساني في الليل، وعندما كان يتسنى له الوقت خلال النهار. وكان يعطيهما جزءاً من حصته.

لم يكن الأب أرساني يعرف شيئاً عن هوية المريضين. لقد جاءا الى ثكنته من معسكر آخر، وكانا مريضين جداً عند وصولهما. وقبِلا عناية الأب أرساني دون حماس، ولكنهما لم يكونا ليعيشان من دونه. لم يقولا شيئاً عن نفسهما، ولم يسأل الأب أرساني شيئاً. لقد التقى بالعديد من الناس كهذين المريضين واعتنى بهم كلهم. وعندما رحلوا نادراً ما سمع عنهم خبراً بعد ذلك.

أخبره أحد المريضين أن اسمه سازيكوف، ايفان ألكسندروفيتش. وكان الأب أرساني يصلي بهدوء فيما هو يساعده. وهذا ما لاحظه سازيكوف، فتمتم: "أنت تصلي، أليس كذلك أيها الكاهن؟ أنت تصلي لتحصل على مغفرة خطاياك، ولهذا السبب تساعدنا! أنت تخاف من الله! لماذا؟ هل سبق لك أن رأيته؟"

نظر الأب أرساني الى سازيكوف متعجباً: "كيف لي ألا أكون قد رأيته؟ انه هنا فيما بيننا، وهو يوحّدنا أنا وأنت!"

– "ماذا تقول يا كاهن؟ الله موجود في هذه الثكنة؟" وراح يضحك.

نظر اليه الأب أرساني وقال بهدوء: "أجل، انني أرى حضوره. انني أرى روحك سوداء من الخطيئة، ولكن فيها مكاناً للنور. سوف يأتي النور اليك يا سازيكوف. النور وقديسك. القديس سيرافيم ساروفسكي لن يتخلى عنك".

فتشوّه وجه سازيكوف وارتجف، وهمس بكراهية: "سأقتلك أيها الكاهن الغبي، سأقتلك. لا أعرف كيف تعرف الأمور. أكره طريقة تفكيرك".

فاستدار الأب أرساني وابتعد وهو يردد: "ارحمني أنا الخاطئ!" وفيما كان يقوم بعمله صلى مديح العذراء، وقانون صلاته اليومي، وصلاة الغروب والسحرية، وكل الصلوات الأخرى التي على الكاهن أن يؤديها.

ان المريض الثاني كان في المعسكر لسبب بسيط: لقد اقتضى ابعاده عن وظيفته في السلطة لكي يستطيع آخر أن يأخذ مكانه. وكانت قصته شبيهة بقصص الكثيرين غيره. لقد شارك في ثورة أكتوبر ١٩١٧ وعرف لينين، وكان قائد لواء في العام ١٩٢٠. وشغل مركزاً مرموقاً في البوليس السري، وعمل لحساب الـ NKVD[٣]. أما الآن فقد أرسل ليموت في معسكر "خاص" للموت.

كان بعضهم يُقتلون بسبب شيء قالوه، والبعض الآخر بسبب ايمانهم. ثم كان هناك أولئك الذين هم مثل المريض الثاني: شيوعي مثالي قد عرض له الوقوف في طريق أحدهم، فتمت تنحيته جانباً. كانوا كلهم على طريق الموت في هذا المعسكر، عاجلاً أم آجلاً.

ان أحد الذين أُزيحوا عن السلطة كان ألكسندر بافلوفيتش آفسنكوف. ما أن سمع الأب أرساني اسمه حتى تذكره: فكثيراً ما ظهر آفسنكوف في الصحف. وهو الذي وقّع ورقة الحكم على الأب أرساني. كان ذلك عندما حُكم على الأب أرساني بالقتل رمياً بالرصاص لقيامه بنشاط معادٍ للثورة. وبعد ذلك تبدّلت عقوبته الى خمس عشرة سنة في معسكر. لقد تذكر الأب أرساني الاسم تماماً.

كان آفسنكوف متوسط العمر، يبدو في عقده الرابع أو الخامس. الا أن الحياة في المعسكر تركت عليه آثاراً بالغة: الجوع والعمل المضني والضرب، كل ذلك الى جانب الوعي بأنه منذ أشهر خلت أرسل آخرين الى هنا، ظاناً في كل مرة

[٣] البوليس السري السوفياتي.

بأنه يخلّص الدولة من "أعداء الشعب". لقد جعله وجوده في المعسكر يدرك فظاعة خطئه. وأدرك أنه أرسل عشرات، بل مئات الآلاف من الأبرياء الى حتفهم. من مركزه المرموق، كان قد فقد الصلة بالحقيقة. لقد صدّق تقارير الاستجوابات وتملقات مرؤوسيه؛ وبانصاته الى الأوامر السخيفة التي تصدرها الدولة، فقدَ اتصاله بالبشر الأحياء وبالحياة نفسها.

كان يتعذب باستمرار، ولكنه لم يجد سبيلاً لتبديل ما صنعته يداه، يمزقه احساسه بالفراغ الروحي والضياع. كان هادئاً ولطيفاً، ويشارك الآخرين بكل ما يملكه. لم يكن يهاب الادارة ولا المجرمين. وكان يخاف عندما يغضب، دون أن يفقد أعصابه. لقد حاول أن يحمي الأبرياء، ولذا فكثيراً ما اضطر لامضاء الوقت في زنزانة العقاب.

كان آفسنكوف متعلقاً بالأب أرساني. لقد أحبه لسماحة نفسه ومحبته، وكثيراً ما قال له: "لك روح أيها الأب أرساني". (كان معظم الناس داخل الثكنة ينادونه: الأب أرساني) لك روح. اني أرى ذلك. ولكني شيوعي حقيقي، بينما أنت تخدم ربّك. أنت كاهن، ووجهات نظرنا مختلفة. أما نظرياً فيجب أن أحارب عقائدياً الى جانبك".

ابتسم الأب أرساني وأجاب: "أيها الصديق العزيز، لمَ تريد أن تحارب؟ لقد حاربت قدر استطاعتك، والى أين أوصلتك عقيدتك؟ لقد أحضرتك الى هذا المعسكر الذي ابتلعك! أما فيما يختص بي فقد كان لي ايماني بالمسيح في الخارج عندما كنتُ حراً، واني أملكه هنا أيضاً في داخلي. الله هو نفسه في كل مكان، ويساعد الجميع! واني أثق وأومن بأنه سوف يساعدك أنت أيضاً!"

وقال له مرة الأب أرساني: "اننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد. لقد جمعنا الله ببعضنا منذ زمن بعيد وخطط للقائنا في هذا المعسكر".

– "ماذا تقول؟ وكيف لي أن أعرفك؟"

– "بلى أنت تعرفني يا ألكسندر بافلوفيتش. في العام ١٩٣٣ عندما كانت الشيوعية تحاول القضاء على الدين، ونُفي مئات الألوف من المؤمنين، وأُغلقت مئات الكنائس، في ذلك الحين تم ارسالي الى معسكر لأول مرة بناءً على تعليماتك. وفي العام ١٩٣٩ عدتُ مجدداً تحت سلطتك القضائية: كتبتُ مقالاً، وما أن صدر حتى ألقيت القبض عليّ من جديد وحكمت عليّ بالموت رمياً بالرصاص. ولكني أشكرك لأنك بدّلت الحكم الى النفي في المعسكر. ومنذ ذلك الحين عشت في معسكرات مختلفة، وطوال الوقت كنت أنتظر أن أراك. وهكذا التقينا أخيراً.

– "أرجوك ألا تعتقد بأني أحاول أن أتهمك بشيء. كل ما جرى هو ارادة الله. وحياتي نفسها ليست سوى نقطة في المحيط. أنت بالطبع عاجز عن تذكري بين مئات الآلاف الذين رأيتهم. كيف يمكنك أن تتذكرني؟ الله وحده يعرف كل الناس وكل الأشياء. ان مصير البشر بين يديه".

الكاهن الغبي

كانت الحياة والعمل في المعسكر مريعَين وغير انسانيين، وكلما مرّ يوم واحد يقرِّب أحداً الى الموت. ولعلم السجناء بهذا، فقد رفض العديد منهم الموت الروحي، بل جاهدوا في معركتهم الداخلية من أجل حياتهم وأرواحهم. كان هؤلاء المساجين يتحدثون عن العلم أو الحياة أو الدين. ويقرأون أحياناً عن الفن أو الأبحاث العلمية، أو يتناقشون في كتب قرأوها قبل اعتقالهم. ويقرأون الشعر، أو يتكلمون عن حياتهم [السابقة] قبل مجيئهم الى المعسكر.

لقد كان هذا مميَّزاً حقاً في مقابل كل ما يشكل الستارة الخلفية: من القسوة والخشونة والعنف، والاحساس بالموت الوشيك والذي لا مناص منه، والجوع والاجهاد الشديد، ووجود المجرمين الدائم... وكثيراً ما حاول السجناء أن يجدوا في بعضهم البعض العون الذي يمكن أن يجعل حياتهم محتملة.

وتبعاً لنوعية الموجة الأخيرة للاعتقالات، صارت تفد الى المعسكر نوعيات مختلفة من الناس: مهندسون وجنود واكليريكيون وعلماء وفنانون ومزارعون وكتّاب وعلماء في الزراعة وأطباء، وصارت تتشكل بصورة طبيعية مجموعات صغيرة من السجناء ذوي الاهتمامات المتشابهة. كان الجميع مضطهدين ومضنوكين، ومع ذلك كان يبدو أن أحداً منهم لا يريد أن ينسى ماضيه أو مهنته. وكانت النقاشات بين المجموعات حامية جداً: اذ ينفعل الرجال بشدة ولا يرون في المسألة سوى وجهة نظرهم الخاصة، ويحاجّون وكأن حياتهم تتعلق بذلك.

ولم يشارك الأب أرساني في أي من هذه النقاشات. لم يلتحق بأي من المجموعات، ولا حاول أن يدافع عن وجهة نظر ما. وعندما يبدأ نقاش ما، كان يذهب ليرتاح ويصلي على سريره. وكان المثقفون في الثكنة ينظرون بازدراء الى الأب أرساني ويقولون: "انه مجرد كاهن غبي، غير متعلم. انه طيب القلب

وخدوم، ولكنه غير مثقف. لذلك يؤمن بالله، وليس له هدف آخر يعيش من أجله".

وكان هذا رأي غالبية السجناء.

وكثيراً ما كان يحدث بعد تلاوة الأسماء واقفال الثكنة عند حلول الليل، أن تتحلق مجموعة من عشرة أو اثني عشر كاتباً أو مختصاً في تاريخ الفن أو فناناً. وكان النقاش حامياً على الدوام. هذه المرة كان الموضوع هو الفن الروسي القديم وفن العمارة. فتكلم أحد السجناء حول هذا الموضوع بثقة كبيرة بالنفس. وهو رجل طويل القامة، حافظ على أناقته ورباطة جأشه حتى في المعسكر. وراح الناس من حوله ينصتون اليه باهتمام بالغ. كان هذا الرجل الطويل والشديد التأثير صاحب معرفة مدهشة، وكثير الثقة بنفسه. وراح يتكلم بطريقة شديدة الاقناع. وفيما هو يتكلم عرض أن مرّ الأب أرساني في ذلك المكان.

وتوجه الخطيب ــ الذي كان في الحقيقة مدرِّساً لمادة تاريخ الفن ــ الى الأب أرساني بلطف قائلاً: "قل لنا أيها الأب العزيز، فأنت تقيّ جداً ومن الاكليروس، فقد يكون باستطاعتك أن تقول لنا كيف تفهم تأثير الأرثوذكسية في الفن الروسي القديم وفن العمارة. وهل تظن بوجود مثل هذا التأثير؟" لقد تكلم وابتسم، وضحك الناس من حوله. كما ابتسم آفسنكوف الذي كان يجلس في مكان قريب.

كان يبدو أن مثل هذا السؤال الموجَّه الى الأب أرساني هو هزئي، منافٍ للعقل. وقد شعر بعضهم بالأسف لأجله، ورغب بعضهم الآخر بالضحك. وفهم الجميع أن كاهناً بسيطاً مثل الأب أرساني لا يستطيع الاجابة عن سؤال فلسفي كهذا. وبما أنه لا يعرف شيئاً فقد كان الهدف من السؤال الحط من قدره، وهو

الذي كان يمر صدفة في ذلك المكان. ولكنه توقف في مكانه واستمع الى السؤال، ولاحظ الوجوه المستهزئة، وردّ: "سأجيب حالما أنتهي من عملي"، وتابع سيره.

وتمتم أحدهم: "انه ليس مغفلاً، لقد تجنب الوقوع في المأزق".

وردد آخر: "أجل لقد كان دائماً الاكليروس الروسي غير مثقف". وبعد مضي عشر دقائق عاد الأب أرساني الى المجموعة التي كانت تقيم النقاش، وقال مقاطعاً الخطيب: "لقد أنهيتُ عملي، فهل يمكنك أن تكرر سؤالك لو سمحت؟"

فنظر الأستاذ الى الأب أرساني كما الى تلميذ أبله، وقال ببطء: "ان السؤال بسيط أيها الأب، ولكنه هام: كيف تفهم، بصفتك عضواً في الاكليروس الروسي، تأثير الأرثوذكسية في الفنون الجميلة الروسية والفن المعماري؟ ربما سمعت بالاكتشافات الفنية في سوزدال وروستوف وبيريسلافل، وديرِ فيرابونتوفو. وقد تكون رأيت نسخاً عن أيقونة والدة الاله، عذراء فلاديمير، والثالوث القدوس لروبلوف. ففسّر لنا لو سمحت أية علاقة تجد بينها؟"

لقد كان هذا سؤال أستاذ، هذا ما فهمه الجميع وفكروا أنه ما كان يجب أن يسأله لهذا الكاهن البسيط الساذج، رغم أنه طيب. كان واضحاً برأيهم أنه عاجز عن الاجابة، اذ يبدو ذلك بمجرد النظر اليه.

انتصب الأب أرساني في وقفته، وتغيّر شكله بعض الشيء، ونظر الى الأستاذ وقال: "هناك نظريات عديدة ومختلفة حول العلاقة بين الأرثوذكسية والفنون الجميلة. وكتب الكثيرون عن هذا الموضوع. بمن فيهم أنت أيها الأستاذ. لقد تكلمتَ وكتبتَ الكثير عن هذا. ومع ذلك فأنا أعتقد بأن جزءاً كبيراً من نظرياتك وأقوالك ملتفة وخاطئة وملفقة فقط لارضاء قرّائك أو الرقابة. وما تقوله الآن أقرب بكثير الى الحقيقة مما قلته في كتبك.

"أنت تعتقد بأن الفنون الجميلة الروسية نبتت من أصل غير ديني، وتُنكر كل تأثير للأرثوذكسية. وتكتب بأن العوامل الاقتصادية والاجتماعية

وحدها ــ لا أسس الشعب الروسي الروحية وتأثير المسيحية ــ هي التي أثرت في الفن والعمارة. ورأيي هو عكس رأيك، اذ أرى بأن الأرثوذكسية كانت هي العامل المؤثر الحاسم في الثقافة الروسية بدءاً من القرن العاشر وحتى القرن الثامن عشر. ففي القرن العاشر اكتشف الاكليروس الروسي حضارة بيزنطيا واعتمدها وأحضرها الى موطنه لتؤثر في روسيا كلها. لقد أحضروا للشعب الروسي الكتب والأيقونات ونماذج كنائس يونانية، وسيَر قديسين. كان هذا هو العامل المؤثر الذي شيّد الحضارة الروسية.

"لقد ذكرتَ عذراء فلاديمير. ألم تصلنا هذه الأيقونة، كالعديد غيرها من الأيقونات القديمة، من بيزنطيا الأرثوذكسية؟ أوليست هذه الأيقونات هي الأساس الذي ازدهر عليه فن رسم الأيقونة الروسي الحديث؟

"كل أيقونة روسية مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بروح الرسام المسيحي، وبالمؤمن الذي يُقبل الى الأيقونة على أنها رسم روحي ورمزي للمسيح أو أمه أو قديسيه. ان الشعب الروسي لا يتعامل مع الأيقونات كأنها أصنام، بل كصورة روحية للذي تتوجه اليه روحُه في صلاةٍ، حزينةً كانت أم فرحة. يخلق الرسام الروسي أيقوناته مع الصلاة والصوم، من هنا نفهم ما يقال بأن ملاك الرب هو الذي يحرّك يد رسام الأيقونات.

"لا يوقّع رسام الأيقونات الروسي أعماله على الاطلاق، لأنه يعتبر بأن روحه ــ لا يده ــ هي التي خلقت الأيقونة ببركة الرب، في حين يبدو أنك لا ترى فيها غير العوامل الاجتماعية والاقتصادية.

"أنظر الى أيقونة غربية للعذراء، والى أيقونة روسية قديمة، وسترى الفرق. في أيقوناتنا يمكنك أن تشعر بروح الايمان، وبطابع الأرثوذكسية. في الرسومات الغربية ترى سيدة، امرأة: روحانية، ولكنها مفعمة بالجمال الأرضي. ولا تشعر بقوة نعمة الله: انها مجرد امرأة. يكفي أن تنظر الى عذراء فلاديمير: أنظر الى عينيها وستقرأ قوة روحية كبيرة، وايماناً عظيماً برحمة الله، ورجاءً كبيراً بالخلاص".

تكلم الأب أرساني بطريقة واضحة ومعبّرة، حتى ان تعابير وجهه تغيرت. لقد تكلم عن أيقونات معروفة، وشرح كلاً منها مبدياً بذلك روح رسم الأيقونات الروسي القديم. وبعد ذلك بدأ يتكلم عن فن العمارة مقدّماً أمثلة على غرار ما يوجد في سوزدال وفلاديمير وموسكو، وأظهر علاقتها بالأرثوذكسية.

وأنهى الأب أرساني جوابه بهذا الشكل: "فيما يختص بتشييد الكنائس، جعل الروس الحجارة تسبّح مجد الله. لقد جعلوا الحجارة تخبر عن الله وتمجد الله".

تكلم الأب أرساني حوالي الساعة والنصف، وأصغى اليه الرجال فيما حوله في صمت مطبق. وفقدَ الأستاذ ابتسامته الشبه الهازئة، وبدا وكأنه تقلص. وسأل:

- "أعذرني، ولكن كيف تعرف كل هذا؟ أنت مطّلع على الفنون الجميلة وفن العمارة، حتى انك تعرف كتبي! أين تلقيت علومك؟ كنت أظن أنك مجرد كاهن".

- "على المرء أن يحب ويعرف موطن آبائه. وهو أمر جوهري أن يفهم حتى هؤلاء الكهنة الأغبياء كما تسمّونهم، روح الفن الروسي. وبما أنهم رعاة للنفوس، عليهم أن يُظهروا لقطيعهم الحقيقة كما هي في الواقع، لأن بعض الناس الذين على مثالك أيها الأستاذ، يغطون ما هو أكثر قدسية وقيمة في الانسان بنظريات محرِّفة للأذهان، وبالأكاذيب. هذا التشويه هو لمصلحة شخصية، ولتغذية الميول والتوجهات السياسية."

فغيّر الأستاذ أسلوبه رأساً على عقب وسأل: "من أنت؟ وما اسم عائلتك؟

- "كان اسمي في العالم بيتر أندريفيتش سترلتزوف. أما الآن فأنا الأب أرساني السجين مثلك في هذا المعسكر الخاص ".

فقال الأستاذ بصعوبة وقد أصيب بالصدمة: "بيتر أندريفيتش أنا أعتذر. سامحني. لم أكن لأتصور أبداً بأني اكلّم عالماً أخصائياً بتاريخ الفن مشهوراً، مؤلف كتب ومقالات عدة، ومعلماً للكثيرين وأستاذاً مشهوراً، والآن كاهناً، وأني أسأله سؤالاً سخيفاً كهذا. لسنوات عديدة لم يسمع أحد عنك شيئاً، ولم يعلم أحد بمكانك. وحدها كتبك ومقالاتك بقيت تعبّر عن آرائك. كيف حصل أنك أصبحت كاهناً وأنت خبير ذائع الصيت؟

- "لقد أصبحتُ الكاهن أرساني لأني أرى وأشعر بوجود الله في كل شيء. وعندما أصبحت الأب أرساني فهمت أكثر من أي وقت مضى أن كاهناً بسيطاً يجب أن يتمتع بمعرفة واسعة. وبما أننا نتكلم عن "الكهنة البسيطين"، فأنت تعرف أكثر من جميع الناس أنهم شكلوا القوة التي جعلت روسيا ما كانت عليه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وساعدتْ الشعب الروسي على ايقاع الهزيمة بالتتر. وصحيح لسوء الحظ أن المستوى الأخلاقي للكهنوت الروسي كان متدنياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولم يكن هناك غير "أنوار" نادرة جداً أضاءت أفق الكنيسة الروسية. قبل ذلك كان الكهنوت القوة المحرِّكة لبلادنا".

وعلى أثر هذا انصرف الأب أرساني. وكل الذين استمعوا اليه، بمن فيهم آفسنكوف، لازموا الصمت باحترام ودهشة. وقال أحدهم: "حسناً، لقد استحققنا ذلك يا أصدقائي. كان هذا هو كاهننا المغفّل". ومضى كل واحد الى سريره بصمت.

ومنذ ذلك الحين لاحظ آفسنكوف أن مثقفي الثكنة صاروا ينظرون الى الأب أرساني بطريقة مختلفة. وبدا للكثيرين أن مفاهيم الله والعلم و"أهل الفكر" قد أصبحت أكثر قرباً واتصالاً. كان آفسنكوف شيوعياً راسخ الاقتناع، آمن بشكل شبه تعصبي بالعقيدة الماركسية. وقد عاش سنته الأولى في المعسكر كمتوحد، ثم بدأ يتبادل الحديث مع بعض المساجين واكتشف بأن معظم أصدقائه

السابقين، وكانوا شيوعيين مثله، لا يأملون الآن سوى العودة الى الأيام القديمة التي كانت حياتهم فيها مريحة، ولا يبالون بشن الحرب على سلطة ستالين الظالمة. فشعر آفسنكوف بالكره لهذه المواقف، ولم يعد يكلم هؤلاء الأشخاص. وألقى نظرة على حياته الماضية وفهم أنه فقدَ بالحقيقة كل مثاليته منذ زمن بعيد: لقد حل محل هذه الأفكار ترداداً ببغائي لـ "حقائق" مصاغة، وطاعة للأوامر. وفقدَ الصلة بالانسانية: اذ حلّت المحاضرات والمقالات الصحفية محل الكائنات البشرية الحية.

ورأى آفسنكوف في مخالطته للسجناء الآخرين حياة أصيلة وخالية من التصنع. وانجذب الى الأب أرساني لتصرفاته الفريدة مع الآخرين واستعداده الدائم لخدمة الجميع بحنان لا غش فيه. كما ان مؤهلات الأب أرساني الفكرية ملكت قلبه تماماً. وقد أدّى ايمانه الغير المحدود بالله وصَلاته الدائمة الى نفور آفسنكوف في البداية، ولكنهما جذباه في الوقت نفسه بشكل غريب. لقد شعر دائماً بالراحة بصحبة الأب أرساني. فكل الصعوبات والأحزان وجو المعتقل الثقيل الوطأة، كل ذلك كان يصبح محتملاً في حضوره. لماذا؟ لم يستطع أن يدرك السبب.

وعُلم بأن ايفان ألكسندروفيتش سازيكوف ــ أحد السجينَين اللذين اعتنى بهما الأب أرساني ــ هو مجرم مشهور. لقد أحب السلطة وكان رجلاً قاسياً. وكان يعرف جماعة مجرمي المعتقل جيداً، وأخضعهم جميعاً لسلطته في وقت قصير، فأطاعوه كلهم. وصارت كلمته هي القانون، فقد كان جميع المساجين يهابونه. ولكنه لم يرغب بالتدخل في شؤون المعتقل، مفضلاً البقاء بعيداً عنها.

وبعد أشهر من عناية الأب أرساني به، لم يشأ سازيكوف الاقتراب منه، وأعطى الانطباع بأنه حتى لا يعرفه. ولكن حدث أن سازيكوف جرح ساقه واضطر للتمدد في سريره لأربعة أيام أو خمسة. فالتهب الجرح وأصيب بالغرغرينة، وخاف من بتر ساقه. ولم يجبره الأطباء على الذهاب الى العمل، ومع ذلك فلم

يتحسن. ومن جديد اعتنى به الأب أرساني بصبر، وأطعمه. وأخيراً تحسن سازيكوف بفضل مساعدته.

وحاول سازيكوف أن يعطي الأب أرساني بعض المال مقابل ذلك، لكن الأب أرساني أجابه بابتسامة قائلاً: "أنا لا أساعدك من أجل المال، بل أقوم بذلك من أجلك، لشخصك، لك أنت".

وأصبحت مشاعر سازيكوف تجاه الأب أرساني أكثر دفئاً، وأخبره عن حياته. وقال له مرة: "أنا لا أثق بالناس بصورة عامة. وأثق بالكهنة أقل أيضاً. ولكني أثق بك أنت يا بيتر أندريفيتش. أعرف بأنك لن تدير لي ظهرك. أنت تعيش في إلهك، ولا تفعل الخير لمصلحتك، بل من أجل الآخرين. كانت أمي مثلك". قال هذا وانصرف.

سرد هذه القصة آفسنكوف وسازيكوف. وأكدها سجناء آخرون كانوا في الثكنة نفسها في ذلك الوقت.

توقفوا عن هذا!

كان الطقس في الخارج قاسياً جداً. ولقي العديد من المساجين حتفهم بسبب الصقيع، ووصل العديد غيرهم للعمل مكانهم. كانت هذه الفترة صعبة للجميع، ولكنها كانت الأسوأ للسجناء السياسيين. وليومين على التوالي سرق المجرمون حصصهم الغذائية. في تلك الليلة، وبعد تلاوة الأسماء واقفال الثكنة، اندلعت معركة بين الفريقين حول هذه الحصص.

تولى آفسنكوف قيادة "السياسيين". وكان على رأس المجرمين "ايفان الأسمر"، وهو مجرم متشبّث لا يصلح لشيء، ارتكب العديد من جرائم القتل. كما قتل أكثر من مرة في المعتقل. كان يهوى ألعاب الورق التي يدفع فيها الخاسر حياته.

في ذلك المساء جرت المعركة حول حصص الغذاء التي سرقها المجرمون هازئين: قالوا بأنهم معتادون على أخذ ما لا يخصهم. وكان رجال ادارة المعتقل يقفون دائما في صف المجرمين، لأسباب تتعلق بسلامتهم الشخصية.

بدأت المعركة باستعمال قبضات الأيدي، ثم جذوع الأشجار، وبعد ذلك ظهرت الخناجر في أيدي المجرمين. كانت الخناجر ممنوعة بالطبع، والحراس يفتشون عنها، ويبدو أنهم لم يجدوها قط. فجُرح أحد المساجين، وهو جندي، كما شُجت رؤوس عدد من "السياسيين". كان المجرمون يعرفون كيف يتعاضدون، وغالبية "السياسيين" لا يعرفون سوى الصراخ، ويخافون الدفاع عن بعضهم البعض.

كان المجرمون شرسين، ويتقدمون على "السياسيين"، وبدأ الدم يسيل.

فركض الأب أرساني الى سازيكوف وتوسّل اليه قائلاً: "النجدة! النجدة أرجوك يا ايفان ألكسندروفيتش! انهم يمزقون الرجال، والدم منتشر في كل مكان.

اني أسألك باسم الله أن توقف هذا! فسوف يصغي اليك المجرمون!" فضحك سازيكوف وقال: "لا شك في أنهم سيصغون اليّ، ولكن لِمَ لا تساعدهم أنت مع الهك؟ لقد قتل ايفان الأسمر اثنين من أصدقائك حتى الآن. وسوف يقتل الآن آفسنكوف. ويبدو أن الهك لا يلاحظ ذلك!"

أجال الأب أرساني النظر حوله: فرأى الرجال مدمّمين، وسمع صراخاً، وشتائم، وعويلاً، وامتلأت نفسه بالألم لعذابهم.

تقدم نحو المعركة الحامية رافعاً ذراعيه، ووقف في الوسط تماماً، وقال بصوت عال ومفهوم: "آمركم باسم الله! توقفوا!" وباركهم برسم علامة الصليب، ثم قال هامساً: "الآن ساعدوا الجرحى". ثم توجه الى سريره. ووقف هناك وكأنه في عالم آخر، وكأنه محاط بالنور. وقف هناك، وراح يصلي وقد انسحب الى داخل ذاته. لم يسمعهم ينقلون الميّتَين الى الباب، ولا رأى الجرحى يُسعَفون. كان يركز انتباهه على الصلاة.

صار كل شيء الآن هادئاً في الثكنة. لم يعد يُسمع سوى حركة الرجال وهم يأوون الى أسرَّتهم، ونحيب الذين أصيبوا بجروح بالغة. اقترب سازيكوف من الأب أرساني وقال له: "سامحني أيها الأب أرساني، لقد شككت بالهك. اني أعرف الآن أنه موجود. وهو يرعبني أيضاً. والذي يؤمن به يتمتع بقوة عظيمة. حتى اني خائف. سامحني لأني هزئت بك".

بعد يومين جاء آفسنكوف الى الأب أرساني بعد انتهاء العمل، وقال له: "أشكرك لأنك أنقذت حياتي! أنت تؤمن بالله بشكل غير مشروط، واذ أراك على هذه الحال، فأنا أيضاً بدأت أدرك أنه موجود".

وتابعت الحياة سيرها ببطء. فالمساجين يأتون، ويعملون، ثم يُدفنون في الأرض المثلجة. ويأتي آخرون ليحلوا محلهم، وتبدأ الدورة من جديد.

توقفت سرقة حصص الطعام. واذا حصل أن نسي بعض المجرمين هذا النظام الحياتي الجديد وأقدموا على السرقة، كان الآخرون يلقنونهم درساً قاسياً. وبقي الأب أرساني يعمل كالعادة، متخطياً طاقاته الشخصية، ولكنه لم يفقد يوماً الشجاعة.

كانوا يأتون بالعديد من الرجال من بيئات اجتماعية مختلفة، ويلقونهم معاً في الثكنة التي يعيش فيها الأب أرساني، ليلقوا حتفهم. فأدى هذا الوضع الى احتكاك كبير بين المجموعات المختلفة، وعمل الأب أرساني عملَ الملطف لآلام كل الفئات المتأثرة وعذاباتها. لقد عرف كيف يهدئ نفوسهم بكلماته الدافئة والحنونة. أكان السجين مؤمناً أو شيوعياً، أو مجرماً، أو من أي نوع آخر... في جميع الحالات وجد الأب أرساني الكلمات المناسبة لكل فرد منهم. كانت كلماته هذه تدخل الى أعماق نفس الانسان وتساعده لكي يحيا، وتعطيه الأمل بالمستقبل، وكثيراً ما ساعدته ليصبح رجلاً أفضل.

وبطريقة غريبة توطدت أواصر الصداقة بين آفسنكوف وسازيكوف. ماذا يمكن أن يجمع بين شيوعي مثالي ومجرم؟ لقد وحّدهما الأب أرساني بطريقة ما وبشكل خفي.

سرد هذه القصة آفسنكوف وسازيكوف وثلاثة سجناء آخرين.

استدعاء للمثول أمام الرائد

بدأ المراقب يتردد بشكل متكرر على الثكنة ويصطنع شجاراً حول أي تفصيل صغير، فيما يكون الأب أرساني منشغلاً بتنظيف الثكنة الفارغة، أو بالنهوض بأعباء المواقد. وفي أحد الأيام كان غاضباً بشكل خاص، فضرب الأب أرساني على وجهه وشتمه بطريقة بذيئة، محاولاً أن يخيفه. في تلك الليلة استُدعي الأب أرساني للمثول أمام الرائد.

الكل يعرف بأن الاستدعاء ليلاً علامة سيئة. وقد انتشر خبر تعيين رائد جديد قائداً للمعتقل الخاص، فشعر جميع السجناء بالخوف. ولم يكن الاستدعاء الى "الدائرة الخاصة" أمراً جيداً. كان يعني بالعادة أن ضباط المعتقل سوف يحاولون أن يجعلوك تعترف بشيء ما، أو أن يجعلوا منك "معاوناً سرياً" (أي جاسوساً داخلياً). واذا رفضت، فسوف يضربونك بوحشية: اذ يحدث أيضاً أن يتعرض السجناء للضرب أثناء الاستجواب. والمرة الوحيدة التي لا يضربونك فيها هي عندما يستدعونك ليبلغوك قرار تمديد عقوبتك. كان السجناء يخافون الدائرة الخاصة: اذ يعمل فيها حوالي ٢٥ شخصاً، وأكثرهم يشربون الكحول بكمية كبيرة: كانوا يعرفون كيف يستجوبون، ويعرفون كيف يضربون، ويقولون: "سوف تعترف بأي شيء".

استقبل الأبَ أرساني ملازمٌ أول شاب. وبدأ كل شيء كالمعتاد: الاسم واسم الأب والعائلة، وبماذا يتهمونك؟، الى جانب صرخات: "نحن نعرف كل شيء". ثم توالت التهديدات. ثم يسمع المرء دائماً هذا: "الآن اعترف بأنك تنشر الاشاعات في هذا المعتقل".

أجاب الأب أرساني على جميع الأسئلة المعتادة ثم صمت. وبدأ يصلي. فشتم وحلف الملازم أول، وضرب الطاولة بقبضته، وهدده. ثم نهض وقال: "سنأخذك الى الرائد، وسوف تتكلم". وخرج وهو يلعن. وعاد بعد حوالي عشر

دقائق وقاد الأب أرساني الى الرائد، قائد الدائـرة الخاصة. ولعلـم الأب أرسـاني بقوانين المعتقل، عرف بأن الأمر سيئ.

أخذ الرائد ملف الأب أرساني وقال: "دعنا وحدنا". فخرج المـلازم أول. ونهض الرائد وأغلق الباب بلحكام. وعاد للجلوس الى مكتبه، وبدأ يقرأ الملف.

وقف الأب أرساني وصلى: "اللهم ارحمني أنا الخاطئ".

وعند انتهاء الرائـد مـن تصفـح الملـف، قـال بصـوت صـادق ولطيـف: "اجلس يا بيتر أندريفيتش. أنا الذي استدعيتك الى هنا". فجلـس الأب أرسـاني وهو يردد بصمت: "اللهم ارحمني! اني أتكل عليك". وفكر: "سـوف يبـدأ ذلـك الآن".

وأعاد الرائد النظر الى ملف الأب أرساني، وتحقق من الصورة. ثـم حـلّ زر جيب سترته، وأخرج منه ورقة صغيرة أعطاها للأب أرساني قائلاً: "هـذه لـك من فيرا دانيلوفنا. ما زالت على قيد الحياة وبصحة جيدة. اقرأها".

كان في الورقة: "عزيـزي الأب أرسـاني. ان رحمـة الله لا حـدود لهـا. لقـد أبقاك على قيد الحياة. لا تخف من شيء! ثق. تابع السلاة (كما وردت) مـن أجلنـا نحن الخطأة. لقد حفظ الله العديد منا. صلِّ لأجلنا. فيرا".

أصابته هذه الرسالة بالصدمة. كانت فيرا راهبة، وأقرب أولاده الروحيـين اليه. كان هذا خطها. وليس من شك في أنها هي التي كتبت كل هـذا. كـان علـى ثقة، لأنهما اتفقا على ارتكاب خطأ في تهجئة كلمة "الصـلاة" اذا سـنحت لهمـا فرصة الكتابة.

-"أشكرك يا رب على عطيتك اذ سمحت لي بأن أعرف كيف حال أولادي. اني أشكرك على رحمتك!" ثم أخذ الرائد الرسالة مـن بـين يـديّ الأب أرسـاني وأحرقها. وبقي كلاهما صامتين. كان الأب أرساني مذهولاً وشديد التأثر. لم يكـن

يدرك ما يحصل. وبقي الرائد صامتاً لأنه فهم حالة الصدمة التي أصيـب بـها الأب أرساني. ونظر الى الشخص الجـالس أمامـه: رجـل مسـنّ ذو لحيـة خفيفـة ورأس حليق، يرتدي سترة قطنية قديمة كثيرة الرقع، وبنطلونـاً ممزقـاً ذا خطوط وتقاطيع.

عندما درس الرائد ملف الأب أرساني، علم بأن قضيته "خطـيرة". كـان في عائلة السجين عالِم شهير. وهو نفسه قد تخـرّج مـن جامعـة موسـكو، وصـار معروفاً في الاتحاد السوفياتي وخارجه كأخصائي في تاريخ الفن لامع. لـه دراسـات معروفة حول الفن الروسي القديم وفن العمارة، وهو اليـوم كـاهن راهـب. كـان الأب أرساني رئيس جماعة دينية واسعة وقوية لم تتفـرق حتـى بعـد اعتقالـه، كمـا أمَلَت السلطات. هذا الرجل المسنّ نفسه الذي يجلس أمامه قد عرف في المـاضي البعيد كيف يوفّق بين الايمان العميق والفكر العلمـي الجـدي، عندمـا عـاش في العالم الحرّ. لقد تكلم في كتبه عن جمال موطنه وناشـد قـرّاءه أن يحبـوه. والآن رأى الرائد أن كل ذلك مات في الرجل الجالس أمامه. لقد سُحق وتحطم، وكانت عليـه هيئة الموت. وحده توسلُ زوجة الرائد الـتي يحبـها حبـاً مطلقـاً ويسـمع لهـا علـى الدوام، وطلب فيرا دانيلوفنا التي ساعدت زوجته وابنته في المـاضي مسـاعدة جمـة، هو ما دفع بالرائد الى القيام بـهذا العمـل المحفـوف بـالخطر: أن ينقـل رسـالة الى سجين.

كانت فيرا دانيلوفنا طبيبة، وقد خلّصت بعنايتها وتفانيها، حياة عدد مـن أكثر المقربين الى الرائد. وفي معسكر يراقب الجميع فيه بعضهم بعضاً علـى أمـل الوشاية بأحدهم الى الادارة، كان من الخطورة بمكـان علـى الرائـد أن يقـوم بـهذا العمل. ولكن الى ذلك كان عنده سبب آخر يدفعـه للاتصـال بـالأب أرسـاني في هذا المعسكر.

كان الأب أرساني يصلي بحرارة شديدة لدرجة أنه بدا منفصلاً عن العـالم المحيط به. ولكنه رفع عينيه فجأة الى الرائد وقال بهدوء: "أشكرك لأنـك أوصلـت لي هذه الرسالة. أشكرك باسم الرب".

نظر الرائد الى عينيّ الأب أرساني وفهم بأنه لا يرى أمامه رجلاً عجوزاً، علجزاً، بل شخصاً فريداً لم تحطمه السنوات التي قضاها في المعسكر. ولكنها على العكس شددت قوته الروحية. اذ كانت عينا الأب أرساني تلمعان ببريق وقوة لم يكن الرائد قد رأى مثلهما في حياته. وفي هذه القوة وهذا البريق يمكن للمرء أن يرى حناناً لا حدّ له، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية.

وأحس الرائد أنه يكفي الأب أرساني أن ينظر الى أحدهم أو أن يقول شيئاً حتى يتم له ذلك. فبمقدور عينيّ الأب أرساني أن تريا أعمق الأماكن الداخلية في نفس الانسان، وأن تقرآ أفكاره. كان لايمانه سلطة على الآخرين، ويبدو مشعاً منه بشكل واضح. وفهم الرائد بأن هذا الرجل لن يسأله، وهو القائد المعيّن حديثاً في هذا العسكر الخاص، لمَ تجرأ ونقل اليه هذه الورقة.

كان الأب أرساني ينظر الى شيء أعلى، وقد تجاوز الرائد. ثم وقف ورسم اشارة الصليب مرات عدة، وانحنى لأحدهم. واذ رأى الرائد ذلك وقف هو الآخر لأنه لم يكن يرى أمامه في تلك اللحظة رجلاً مسناً في سترة مرقّعة وبنطلون ممزق، بل كاهناً مرتدياً حلته الكاملة، وهو يقوم بسرّ الصلاة لله.

وارتجف الرائد لهذا الحدث الذي لم يتوقعه ولا فهمه. وعاد الى ذاكرته أمر كان نسيه منذ زمن بعيد: تذكر حين كانت أمه تصطحبه وهو طفل صغير للصلاة في الكنيسة الصغيرة الخشبية الريفية، في أيام الأعياد الكبرى. واعترى روحه احساسٌ عذب ولطيف من الماضي.

وجلس الأب أرساني. وعاد الرائد يرى أمامه رجلاً عجوزاً ومنهكاً، ولكن عينيه ما زالتا تشعان بالبريق.

قال الرائد: "بيتر أندريفيتش! لقد أرسلوني للعمل هنا، واكتشفت بأنك في هذا المكان. وكنت في موسكو فأخبرت فيرا دانيلوفنا بذلك، وأخذت على

عاتقي أمر ايصال هذه الرسالة اليك. كما أردت أن أسألك مساعدة رجل يعيش في ثكنتك. أني..." وفجأة توقف الرائد عن الكلام.

- "فهمت، فهمت! بالطبع سأساعد ألكسندر بافلوفيتش آفسنكوف. وسأنقل اليه ما طلبته مني. وأعرف أنه يصعب عليك العمل هنا يا سيرجي بتروفيتش. أنت لست معتاداً على وظيفتك الجديدة هذه. ومن الصعوبة بمكان الاعتياد على هذه الحياة، اذ تحصل هنا أمور عديدة مخيفة! ولكن كُنْ رحيماً على قدر استطاعتك، وهذا بحد ذاته سيكون عوناً للسجناء".

- "أجل الامور صعبة. انها صعبة أينما كان الآن، وهذا هو السبب الذي جعلني أصل الى هذا المكان. ان قلبي يقطر دماً عندما أرى ما يحدث من حولي: الناس ملاحَقون. انهم يشون ببعضهم البعض. وتصلنا معلومات سرية متضاربة. اني أتصرف على قدر امكانياتي، ولكن ذلك يكاد يكون عديم الجدوى. أخجل من الاعتراف بهذا: ولكني خائف على نفسي.

- "لا ينفك المراقب بابكوف عن ارسال التقارير عنك. من الواضح بأنه لا يحبك. سوف نستبدله برجل آخر أقل فظاظة. ان وضعك صعب يا بيتر أندريفيتش. وكما قلت، فأنا لا أستطيع أن أساعدك كثيراً، ولكني أنوي المحاولة. سوف أرسل في طلبك بواسطة ماركوف، الرجل الذي استجوبك منذ قليل. انه رجل صعب المراس، يرتاب في كل شيء. لهذا سوف أطلب منه أن يراقبك بشكل خاص، وأن يحضرك اليّ بعد أن يستجوبك. واطمئن بالاً فلن تدوَّن هذه المراقبة في ملفك.

- "أخبرْ ألكسندر بافلوفيتش أن الجنرال أبروسيموف قد أُنزلت رتبته الى رائد. وأن العديد من الناس الذين يشغلون مناصب رفيعة ما زالوا يتذكرونه، ولكن يتعذر عليهم مساعدته. لقد ذهب الكثيرون الى ستالين لطلب الافراج عنه، ولكنه لم يعطِ سوى هذا الجواب: "دعوه يبقى في المعسكر لبعض الوقت". في هذه الأثناء يحاول الرجل الذي يشغل مركز آفسنكوف أن يتخلص منه نهائياً لكي

يحتفظ بمنصبه. ألكسندر بافلوفيتش يعرف الكثير، وهو مثالي حقيقي ورجل مستقيم. وهذا النوع من الأشخاص غير مرغوب به في القوات المسلحة. يريدون أن يقتلوه، الا أن ستالين لم يعطِ الأمر النهائي. ولذا يحاول مرؤوسو ستالين التخلص منه بطريقة غير رسمية، عن طريق مجرمي المعسكر. وتسري اشاعة بأن "ايفان الأسمر" مكلف بالقضاء عليه بطريقة أو بأخرى.

– "أرجوك أن تعطي ألكسندر بافلوفيتش هذه الرسالة الصغيرة من زوجته. وهذا سوف يزوده بالدعم المعنوي. ساعده. قل له أن يأخذ حذره من سافوشكين، فهو يحاول أن يستنبط الاتهامات ضده، وهو الآخر يعيش في ثكنتك.

– "أما الآن فعليك أن توقّع محضر مقابلتنا، وسوف أكتبه خلال لقائنا التالي". فوقّع الأب أرساني على ورقة بيضاء وقال: "أكتب ما يتوجب عليك".

ونهض الرائد وتقدم نحو الأب أرساني، وأمسك بكتفيه وقال له: "أرجوك أن تتذكرني".

عاد الأب أرساني الى ثكنته وهو ممتلئ بالأحاسيس والانفعالات، ويمجد الله دون انقطاع. وتمدد على سريره متعباً من كل ما لقيه للتوّ.

كل سجناء الثكنة تنفسوا الصعداء. لقد بدا أن الأب أرساني لن يعود أبداً. وفيما هو ممدد على سريره، راح يتلو الصلوات والمزامير ويشكر الله ويردّد: "اني أمجد أعمالك يا رب. أشكرك لأنك أظهرت لي رحمتك. ارحمني يا الله".

في المعسكر قاعدة غير مكتوبة: وهي أنه عندما يعود أحدهم من الاستجواب، فلا تقترب منه، ولا تسأله عن شيء. فقد يتكلم الشخص من نفسه اذا رغب بذلك. لأنك اذا سألته عن أمر ما، فقد يرتاب زملاؤك منك. وقد يظنون بأنك قلق من أن يكون اسمك قد ذُكر في الاستجواب. لم ينم الأب أرساني في تلك الليلة. كان ممتلئاً فرحاً من رحمة الله، وهو يمجده ويصلي لوالدة الاله. وفي الصباح نهض وبدأ عمله اليومي مرتاح البال.

في ذلك الصباح وصل بابكوف فجأة الى الثكنة، وأجال النظر حوله وقال: "ايه أيها الكاهن، ألم يقضوا عليك البارحة؟ سوف يقومون بذلك!" وانصرف ضاحكاً.

عندما عاد السجناء في المساء الى الثكنة، بادر الأب أرساني آفسنكوف: "اني عاجز عن تقطيع هذه الجذوع بمفردي، ولن أنتهي منها في الوقت المحدد. ساعدني أرجوك".

حصل ذلك قبل تلاوة الأسماء بحوالي الساعة. كانت الأنوار الكشافة تتجوّل على الأرض ذهاباً واياباً، والسماء تتحوّل الى اللون الأسود. فقال الأب أرساني لآفسنكوف: "سأمرر لك الجذوع، وفي هذه الأثناء خذ هذه الورقة الصغيرة واقرأ ما جاء فيها، ثم ابتلعها. سأخبرك لاحقاً بكل شيء".

سأل آفسنكوف مذهولاً: "أية ورقة؟"

فدسّ له الأب أرساني الورقة الصغيرة التي أعطاه اياها الرائد. فاختطفها آفسنكوف وراح يقطع جذوع الأشجار بالاسفين الخشبي. ثم بدأ يقرأها متظاهراً بأنه يفحص أحد الجذوع تحت الضوء. قرأها مرة ومرتين، ثم بدأت الدموع تسيل على وجهه. فهمس له الأب أرساني: "الآن ابتلع الورقة، وحاول أن تتمالك نفسك".

وفيما هما يعملان، صار بامكان الأب أرساني أن يخبره بما قاله أبروسيموف: أن رتبته قد أُنزلت الى درجة رائد، وأن أصدقاء آفسنكوف يحاولون مساعدته، ولكنهم يواجهون في ذلك صعوبة فائقة، وأن هناك أوامر للتخلص منه.

– "بيتر أندريفيتش، أيها الأب أرساني، أنا لا أومن بالله، ولكني الآن بدأت أومن. أنا ملزم على الايمان به. لقد وصلتني رسالة من كاتيا، زوجتي، وفيها كلمة من صديق عزيز، شخص شديد الأهمية. انه يريد مساعدتي رغم علمه بأنه لو عثر أحدهم على هذه الورقة لكانت نهاية صديقي. ما زال هناك أشخاص

مخلصون وصادقون، حتى خارج المعسكرات. وليس الجميع غارقين في الأوساخ. تقول كاتيا انها تصلي الى الله من أجلي. لا بد أنها تصلي جيداً، لأنك تساعدني. أنت تدفئ قلبي، ولا تتركني وحدي مع أفكاري. وليس أنا فقط، فأنت تساعد العديد من الناس. أنظر ما حدث لسازيكوف: رجل شرس مثله لا يهاب شيئاً هو اليوم أكثر لطافة. انه يستمع اليك ويثق بك في كل شيء. والأرجح أنك لا تلاحظ حتى هذا أيضاً، أما أنا فألاحظه. أنا الآن أومن. فالهك يصنع كل ذلك من خلال يديك. لا أعلم ان كنت سأصبح يوماً مؤمناً حقيقياً، ولكني أعرف الآن وأرى بأن الله موجود حقاً!"

ثم نقلا الجذوع الى الداخل. وما ان رآهما سازيكوف حتى قفز عن سريره وشرع يساعدهما. وفيما بعد أسرّ الأب أرساني لسازيكوف بحديثه مع الرائد، وبأن موسكو تريد التخلص من آفسنكوف عن طريق المجرمين.

لم ينادِ الأب أرساني سازيكوف باسم ايفان، بل سيرافيم، وهو اسمه الحقيقي. ولم يقلق من أن يفشي سازيكوف هذه المحادثة لأنه قد تغيّر كثيراً.

قال سازيكوف: "انه وضع غير مألوف. أجل سوف نقدم المساعدة. سوف نؤمن الحماية لألكسندر بافلوفيتش. انه رجل طيب. رجل فاضل. لا تقلق، سنحميه، فلنا أساليبنا الخاصة. سوف أخبر جماعتي بهذا الأمر وسوف نحميه".

سرد هذه القصة آفسنكوف وأبروسيموف وسازيكوف، كما أخذت مقاطع منها من المذكرات المقتضبة التي تركها الأب أرساني.

الحياة تستمر

انتهى الشتاء وحلّ الربيع، والسجناء يمرضون ويموتون أكثر فأكثر. واكتظ مستشفى المعسكر لدرجة أن المرضى اضطروا للبقاء في ثكناتهم. كان الأب أرساني ضعيفاً جداً، ولكنه تابع تأدية مهماته كما في السابق. وارتفعت حرارة الطقس، لكنه بقي رطباً. وكان يتوجب متابعة تدفئة الثكنات تماماً كما في الشتاء، كي لا تتعفن الجدران والثياب.

وبقي الأب أرساني – رغم تعبه الشديد وعجزه تقريباً عن المشي – يساعد كل الذين استطاع مساعدتهم. وكانت هذه المساعدة تدهش الآخرين بحرارتها، وتدخل أعماق القلوب. لم يكن ينتظر أن يسأله أحد المساعدة. كان يبدو بأنه يعرف دائماً أين هي الحاجة لمساعدته. وبعد أن يقدمها، ينصرف بصمت ولا ينتظر الشكر على الاطلاق.

واستبدل الرائدُ بابكوفَ برجل آخر كما وعد. ولم يكن المراقب الجديد كثير الكلام، كان صارماً ولكنه عادل. فبدأ السجناء يلقبونه بـ "الرجل العادل". كان متشدداً بخصوص تنفيذ قوانينه، ويفرض النظافة بصورة خاصة، لكنه لم يكن يضرب السجناء ولا يشتم أبداً تقريباً.

وأنهى الصيف القصير مساره المتعرّج الحافل بغيوم البعوض التي تنشر الانزعاج والمرض في أرجاء المعسكر. وتوقفت الحاجة لتدفئة الثكنة، ولكن الأب أرساني لم يُرسل للحفر خارجاً بسبب سنه المتقدم، بل كان عليه أن ينظف الثكنة ومحيطها، ويُفرغ حفر المراحيض.

واستُدعي الأب أرساني مرتين الى الدائرة الخاصة. في المرة الأولى استجوبه ماركوف دون أن يرسله الى الرائد. وبعد الاستجواب الثاني، التقى

الرائد الذي بدا مشغول البال ومتوتراً، وقال: "انها فترة صعبة. حتى ان القوانين ازدادت صرامة. الجميع يراقبون الجميع. أنا شخص هام وكلهم يهابونني، ولكني عاجز عن تقديم المساعدة. ليس لدي أشخاص جديرون بالثقة تحت أمرتي. ولست أعلم متى سوف تسنح لي فرصة رؤيتك من جديد. اني خائف. ولكنك لا تبارح ذهني على الاطلاق، ولا آفسنكوف. أعطه هذه الرسالة الصغيرة، وقل له بأنهم يتذكرونه في موسكو. والآن وقّع على محضر مقابلتنا، لقد كتبته قبل مجيئك".

وأعطى الأب أرساني الرسالة الصغيرة لآفسنكوف، وهذا أيضاً رفع معنوياته.

"حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي".

في شتاء احدى السنين تم ارسال شاب الى ثكنة الأب أرساني. كان طالباً يبلغ الثالثة والعشرين من العمر، وقد حُكم عليه بقضاء عشرين عاماً في المعسكر. لم تكن له معرفة بالحياة في المعسكر لأنه أُرسل مباشرة من بوتيركي، السجن الصارم في موسكو، الى هذا المعسكر الخاص. ولحداثة سنه لم يفهم تماماً ما ينتظره. وما ان دخل معسكر الموت حتى صادف المجرمين.

كانت ثيابه ما زالت في حالة جيدة لأنه لم يُمضِ في السجن غير أشهر قليلة. فقرر المجرمون بقيادة ايفان الأسمر أن يسلبوا ملابس الشاب. فاقترحوا اجراء لعبة ورق تكون جائزتها الثياب. وعلم الجميع بأن هذا الصبي سيضحي عارياً في وقت قريب، الا أن أحداً لم يستطع التصرف في هذا الشأن. وحتى سازيكوف نفسه لم يتجرأ على التدخل. كانت القاعدة في المعسكر أن أي امرئ يتدخل يُقتل. والذين صار لهم في المعسكر بعض الوقت يعرفون تماماً أنه اذا قرر المجرمون اللعب على ثيابك، فان المقاومة تعني نهايتك.

وربح ايفان الأسمر كل ملابس الشاب، فدنا منه وقال له: "اخلع عنك كل شيء يا صديقي".

عند هذا الحد بدأت الأمور تصبح فظة. فقد اعتقد الشاب - واسمه ألكسي - أن اللعبة كانت للتسلية وحسب، ورفض أن يخلع ثيابه. فقرر ايفان الأسمر أن يجعل الأمر عَرْضاً أمام الجميع. وبدأ يسخر من النعومة، ثم شرع بضربه. فحاول ألكسي أن يقاوم وأن يرد الضربات، ولكن جميع من في الثكنة عرفوا في تلك اللحظة أنه سوف يتلقى من الضرب ما يكفي لكي يجعله عاجزاً

عن الحركة، أو حتى لقتله. وقف الجميع دون حراك وراحوا يراقبون ايفان الأسمر وهو يسحق ألكسي الذي نزف الدم من فمه ووجهه، وصار يترنح. وكان بعض المجرمين يحرضونه بسخرية على القتال.

لم يشهد الأب أرساني بدايات المعركة، بل كان يكوِّم جذوع الأشجار بقرب أحد المواقد عند الطرف الآخر من الثكنة. وفجأة رأى ما يحدث: كان ايفان على وشك أن يقتل ألكسي. في هذه اللحظة لم يعد بمقدور ألكسي سوى أن يغطي وجهه بيديه، فيما يصفعه ايفان ويضربه بعنف دون توقف. وضع الأب أرساني جذوع الأشجار بصمت قرب الموقد، وتقدم بهدوء الى مكان المعركة. وأمام أعين الثكنة المذهولة كلها، قبض على ذراع ايفان الأسمر. وبدا ايفان مدهوشاً، مصدوماً! لقد تدخل الكاهن في معركة. وهذا يعني أنه يجب أن يموت. كان ايفان يكره الأب أرساني، ولكنه لم يجرؤ قط على التعرض له خوفاً من السجناء الآخرين في الثكنة. أما الآن فهو يملك سبباً حقيقياً لقتله.

توقف ايفان عن ضرب ألكسي وقال: "حسناً أيها الكاهن، انها نهايتكما معاً. الطالب أولاً ثم أنت". وظهر خنجر بين يديه، واندفع بقوة باتجاه ألكسي.

ماذا حدث؟ لم يكن بوسع أحد أن يفهم. ولكن الأب أرساني الرقيق والضعيف انتصب واقفاً وضرب ايفان على ساعده ضربة قوية جعلت الخنجر يقع من يده. ثم دفع ايفان بعيداً عن ألكسي، فتعثر وسقط أرضاً واصطدم وجهه بزاوية أحد الأسرّة. فاقترب الأب أرساني من ألكسي وقال له: "اذهب يا أليوشا واغسل وجهك، لن يضربك أحد بعد اليوم". ثم عاد الى عمله وكأن شيئاً لم يكن.

الجميع أُخذوا على حين غرّة. نهض ايفان الأسمر، ولم يتفوه المجرمون بكلمة واحدة: أدركوا أن ايفان فقدَ ماء الوجه أمام جميع من في الثكنة. ومسح

أحدهم الدم عن الأرض بقدمه بحركة خفية. كان وجه أليوشا مهشماً تماماً: فأذنه ممزقة، واحدى عينيه مغمضة والأخرى حمراء قانية. وصمت الجميع كلياً. لقد عرفوا أنه قضي الأمر بالنسبة الى الأب أرساني وألكسي على السواء، وأن المجرمين سوف يقتلونهما.

ولكن الواقع أن الأمور جرت بطريقة مختلفة: لقد رأى المجرمون في تصرف الأب أرساني عملاً جسوراً وشجاعاً. اذ رغم خوف الجميع من ايفان، لم يتردد الأب أرساني عندما أخرج خنجراً. وأظهروا الاحترام لرجل لم يشعر بالخوف. كانوا يعرفون لطافة الأب أرساني وأساليبه غير المألوفة، أما الآن فقد احترموه لشجاعته. وتراجع ايفان الى سريره وتهامس مع أصدقائه، لكنه أدرك أنهم لا يساندونه حقيقة، اذ لم يهرعوا لمساعدته.

وانقضى الليل. وفي الصباح ذهب كل واحد الى عمله. وانشغل الأب أرساني بالنهوض بأعباء المواقد، والتنظيف، وكشط الأوساخ عن الأرض. وعند المساء عاد المساجين من عملهم. ومباشرة قبل اغلاق الثكنة ليلاً، دخل المراقب فجأة يصحبه عدد من الحراس.

وصرخ: "انتباه!" فقفز كل الرجال من أسرَّتهم، ووقفوا دون حراك فيما كان المراقب يتقدم على طول صف الرجال. وعندما وصل الى الأب أرساني بدأ يضربه. وفي هذه الأثناء سحب الحرّاس ألكسي من مكانه في الصف.

وصرخ الضابط: "السجين ١٨٣٧٦ والسجين ٢٨١ الى زنزانة العقاب رقم١ لمدة ٤٨ ساعة، من دون طعام ولا شراب، لخرقهما قوانين المعسكر والتعارك".

لقد وشى بهما ايفان للسلطات. كان هذا برأي المجرمين العمل الأكثر دناءة وحقارة على الاطلاق.

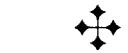

كانت زنزانة العقاب رقم ١ بيتاً صغيراً عند مدخل المعسكر، فيه عدة غرف للحجز الانفرادي، بينها غرفة لشخصين فيها لوح ضيق بمثابة سرير. وهذا اللوح يقل عرضه عن ٥٠ سنتم. وقد غطيت الأرضية والجدران بألواح معدنية. ولم تكن الغرفة كلها أوسع من ٧٠ سنتم تقريباً، وطولها حوالي ١٨٠ سنتم. في الخارج كانت الحرارة تبلغ٣٠ درجة تحت الصفر، والرياح عاصفة، مما يجعل التنفس شاقاً. ويكفي أن يخطو المرء خطوة واحدة في الخارج حتى يتخدر. وفهم رجال الثكنة أن هذا يعني الموت الأكيد: اذ سيتجمد الأب أرساني وألكسي في غضون ساعتين. لم يتم ارسال أحد الى هذه الزنزانة في مثل هذا البرد. ففي حالة خاصة أُرسل أحدهم اليها، عندما كانت الحرارة تتراوح بين ٢٩ و٣٠ درجة تحت الصفر، ولكن لمدة ٢٤ ساعة فقط. والذين تمكنوا وحدهم من البقاء على قيد الحياة، هم الذين كان بمقدورهم أن يقفزوا صعوداً ونزولاً طوال ٢٤ ساعة، حتى لا يتجمد دمهم. والذي يتوقف عن القفز يتجمد. والآن تبلغ الحرارة ٣٠ درجة تحت الصفر، والأب أرساني رجل عجوز، وألكسي قد تعرّض للضرب منذ وقت قصير، وكان كلاهما منهكاً.

قبض المراقبون عليهما وبدأوا يجرّونهما خارج الثكنة. وتجرّأ آفسنكوف وسازيكوف على الخروج من الصف والقول للضابط: "أيها الرفيق الضابط، لا يمكنك أن ترسلهما الى هذه الزنزانة، فسوف يتجمدان حتى الموت في هذا الطقس!" فصفعهما المراقب بقوة حتى انهما اصطدما بجدار الثكنة مصابَين بالدوار.

طأطأ ايفان رأسه وقد اعتراه الخوف، اذ فهم بأن جماعته في الثكنة سوف يقتلونه لهذا السبب.

وجرّوا الأب أرساني وألكسي الى زنزانة العقاب، ودفعوهما بعنف الى الداخل، فوقعا أرضاً واصطدم رأساهما بالجدار صدمة مدوية. كان الظلام حالكاً في الداخل. فوقف الأب أرساني وقال: "ها نحن في هذا المكان. لقد أحضرنا الرب معاً الى هنا. الجو بارد يا أليوشا، والمعدن يحيط بنا من كل جهة".

ثم سمعا الباب الخارجي يُغلق، والأقفال تطقطق، وأصوات الحراس وخطواتهم تتلاشى تدريجياً. وسيطر عليهما البرد ضاغطاً على صدريهما، فيما كان القمر يشع نوره الأنيس داخل الزنزانة، عبر النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية.

وقال ألكسي وهو يئن: "سوف نتجمد أيها الأب أرساني، سوف نتجمد بسببي. سنموت كلانا. نحن بحاجة للتحرك صعوداً ونزولاً دون توقف. ولكن ذلك مستحيل علينا طوال ٤٨ ساعة. فأنا أشعر منذ الآن بضعف شديد، بسبب ما نلته من الضرب العنيف. وقدماي متجمدتان منذ الآن. ولا متسع هنا، فلا يمكننا حتى أن نتحرك. سوف نموت أيها الأب أرساني. انهم لا انسانيون. كان الأفضل لو رمونا بالرصاص!" بقي الأب أرساني صامتاً. فحاول ألكسي أن يقفز، ولكن ذلك لم يدفئه. كانت محاولة مقاومة مثل هذا البرد أمراً ميئوساً منه.

وصرخ ألكسي: "لمَ لا تقول شيئاً أيها الأب أرساني؟"

وأجاب صوت الأب أرساني، وكأنه آتٍ من مكان بعيد جداً: "اني أصلي الى الله يا ألكسي!"

فتذمر ألكسي: "ماذا هناك للصلاة، أتريد أن تعرف متى سوف نتجمد؟"

– "نحن هنا بمفردنا يا ألكسي. ولن يأتي أحد لمدة يومين. سوف نصلي. لقد سمح لنا الرب للمرة الأولى بأن نصلي في هذا المعسكر بصوت عال، بأعلى صوتنا. سوف نصلي والباقي هو ارادة الله!" صار البرد يتغلب على ألكسي تدريجياً، وكان على يقين من أن الأب أرساني يفقد صوابه. وقف الأب أرساني تحت شعاع ضوء القمر وهو يرسم علامة الصليب ويتفوه بهدوء ببعض الكلمات. وتخدرت يدا ألكسي وقدماه من البرد، ولم يعد له قوة في أوصاله. راح يتجمد ولم يعد يأبه بشيء.

كان الأب أرساني صامتاً الآن. وفجأة سمع ألكسي كلماته بشكل واضح، وفهم بأن ما يقوله هو صلاة. لم يذهب ألكسي الى الكنيسة سوى مرة واحدة في حياته، بداعي الفضول. ورغم أن جدته عمّدته في طفولته، الا أن عائلته لم تكن تؤمن بالله. باختصار، لم يكونوا يهتمون بالأمور الدينية. ولم يعرفوا ما هو الايمان بالحقيقة. وكان ألكسي طالباً، وعضواً في الـ komsomol[٤]، فكيف له أن يؤمن؟

ومن خلال الخدر الذي استولى على ألكسي، وألم اللطمات التي تلقاها، استطاع أن يسمع بوضوح الكلمات التي يقولها الأب أرساني: "أيها الرب الاله، ارحمنا نحن الخاطئين! أيها الاله الكلي الرحمة! أيها الرب يسوع المسيح الذي لمحبته صار انساناً ليخلّصنا. خلّصنا برحمتك التي لا توصف، ارحمنا ونجّنا من هذا الموت المؤلم، لأننا نؤمن بك، أنت الهنا وخالقنا". وهكذا تدفقت كلمات الصلاة أكثر فأكثر، وكل منها يحمل الحب الأعمق لله، والثقة برحمته، والايمان المطلق به.

بدأ ألكسي يصغي الى كلمات الصلاة. في البدء كان مرتبكاً، الا أنه صار يفهم تدريجياً. لقد أحلّت الصلاة السلام في نفسه وأزالت عنه الخوف من الموت، ووحّدته بهذا الرجل العجوز الواقف بجانبه.

[٤] التجمع السوفياتي الشيوعي للشباب (وقد تأسس عام ١٩١٨) **(المترجم).**

"أيها الرب يسوع المسيح الهنا! لقد قلت بشفتيك الكليتيّ الطهر انه اذا اتفق اثنان أو ثلاثة في طلب الأمر نفسه، فانه يكون لهم من قِبَل أبيك السماوي. كما قلت انه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم ". وراح ألكسي يردد هذه العبارات بعد الأب أرساني.

وسيطر البرد على ألكسي، وصار جسده كله متخدِّراً. ولم يعد يعرف ان كان واقفاً أو جالساً أو ممدداً. ولكن فجأة اختفى كل شيء: الزنزانة والبرد وخدر جسده بكامله، وألمه الناتج عن اللطمات التي تلقاها، وخوفه... لقد ملأ صوت الأب أرساني الزنزانة. ولكن هل هذه زنزانة؟ استدار ألكسي نحو الأب أرساني وصعق: لقد تبدل كل شيء في هذا المكان. وراودته فكرة مرعبة: "اني أفقد عقلي. هذه هي النهاية، اني مشرف على الموت".

لقد كبرت الزنزانة واتسعت. واختفى شعاع القمر وحلّ محله نور مشع. واذا بالأب أرساني يلبس بذلة بيضاء لامعة ويصلي بصوت عال رافعاً يديه. كانت ملابس الأب أرساني هي نفسها التي رأى ألكسي الكاهنَ يرتديها مرة في الكنيسة.

صارت كلمات الأب أرساني الآن سهلة الفهم. صارت أليفة، دخلت مباشرة الى نفس ألكسي. لم يعد يشعر بالقلق ولا بالعذاب ولا بالخوف، بل فقط برغبة في أن يتحد بهذه الكلمات ويفهمها ويتذكرها حتى آخر يوم من حياته. لم تعد الزنزانة موجودة: انهما الآن في كنيسة. كيف وصلا الى هنا؟ وكيف اتفق أن في هذا المكان شخصاً آخر معهما؟ ودهش ألكسي لمرأى رجلين يساعدان الأب أرساني. كان كلاهما يرتديان الملابس اللامعة نفسها ويشعان بنور أبيض لا يوصف. لم يرَ ألكسي وجهَيهما، ولكنه أحس بأنهما رائعان.

ملأت الصلاة كيان ألكسي، فنهض وبدأ يصلي مع الأب أرساني. صار الجو دافئاً والتنفس سهلاً، وامتلأت نفسه بالسعادة. ردد ألكسي كل ما يقوله الأب أرساني. حتى انه لم يكن يردد فقط، بل يصلي معه. وبدا أن الأب أرساني قد اتحد بكلمات صلاته، ولكن ألكسي فهم أن الأب أرساني لم ينسه، بل كان يساعده طوال الوقت، يساعده على أن يصلي. وأحس ألكسي بيقين أن الله موجود، وأنه معهما. لقد رأى الله بروحه. وفكّر في بعض الأحيان أنهما قد يكونان كلاهما ميتَين، الا أن صوت الأب أرساني الحازم ووجوده بقيا يعيدانه الى الواقع.

لم يدرِ كم من الوقت مرّ على هذه الحال، الا أن الأب أرساني استدار نحوه وقال له: "هيا يا أليوشا استلق، فأنت متعب! سوف أتابع الصلاة وأنت ستسمعني". فتمدد ألكسي على الأرضية المغطاة باللوح المعدني، وأغمض عينيه وتابع الصلاة. وملأت كلمات الصلاة كامل كيانه: "... اتفقا في أي شيء يطلبانه، فانه يكون لهما من قِبل أبي الذي في السماوات..." وترنم قلبه بهذه الكلمات بآلاف الطرق. "اجتمعا باسمي..." ومن وقت لآخر راح ألكسي يفكر وهو يتابع صلاته: "نعم نعم! نحن لسنا وحدنا".

كان كل شيء هادئاً ودافئاً. وفجأة ظهرت والدته من لامكان، ووضعت عليه غطاءً دافئاً. وأخذت رأسه بين يديها وعانقته بشدة تجاه قلبها. ورغب بأن يقول لها: "أمي هل تسمعين، هل تسمعين كيف يصلي الأب أرساني؟ لقد تعلمت أن الله موجود. وأنا أومن به".

فأجابته وكأنها سمعته يتكلم: "أليوشنكا! عندما اعتقلوك، أنا أيضاً وجدت الله. وهذا ما أعطاني القوة لأعيش".

اختفى كل ما هو قبيح، فوالدته والأب أرساني بجانبه. وكلمات الصلاة التي كان يجهلها، صارت الآن تدفئ روحه وتلهبها من جديد. كان من المهم ألا

ينسى هذه الكلمات، وأن يتذكرها طوال حياته. وفكر ألكسي: "لا أريد أن أبتعد أبداً عن الأب أرساني... أريد أن أبقى بقربه على الدوام".

أصغى ألكسي الى كلمات الصلاة الرائعة وهو ممدد على الأرض في شبه اغفاءة عند قدميّ الأب أرساني. وصلى الأب أرساني، وصلى معه الشخصان الآخران بالملابس البراقة، وهما يخدمانه. وبدا عليهما الذهول من طريقة صلاة الأب أرساني. ولم يعد الأب أرساني يطلب شيئاً من الله: صار فقط يمجده ويشكره. ولا أحد يستطيع أن يقول كم استمر كل هذا.

كل ما بقي في ذاكرة ألكسي كانت كلمات الصلاة، ونور دافئ ومبهج. والأب أرساني وهو يصلي، والشخصان الآخران في ثياب من نور. واحساس هائل، لا يضاهى، من الدفء الداخلي المجدِّد.

ثم اقتحم أحدهم الباب، وصرّ القفل المثلج، وصار بالامكان سماع أصوات من خارج الزنزانة. فتح ألكسي عينيه، وكان الأب أرساني ما زال يصلي. أما الشخصان اللذان يرتديان ملابس من نور، فباركاه والأب أرساني وانصرفا على مهل. وراح الضوء الساطع يبهت، وأخيراً عادت الزنزانة كما كانت: معتمة، باردة وكئيبة.

قال الأب أرساني: "انهض يا ألكسي، لقد جاؤوا ليأخذونا".

فوقف ألكسي، فيما كان يدخل رئيس المعسكر مع الطبيب ورئيس الدائرة الخاصة والرائد. وكان أحدهم يقول من وراء الباب: "هذا أمر لا عذر له، قد يُبلّغ أحدهم هذا الخبر الى موسكو. من يعلم كيف سيبدوان الآن؟ جثتان متجمدتان. هذه ليست الطريقة العصرية".

كان في الزنزانة رجل عجوز يرتدي سترة مرقّعة، وشاب في ثياب ممزقة على وجهه كدمات. وكان وجهاهما هادئين وثيابهما مغطاة بطبقة رقيقة من الجليد.

فسأل الرائد بذهول: "هل هما حيّان؟ كيف استطاعا البقاء على قيد الحياة هنا، طوال يومين؟"

فقال الأب أرساني: "نحن على قيد الحياة". وصاروا يتطلعون بعضهم ببعض مدهوشين.

– "فتشهما".

فصرخ أحد المراقبين: "اخرجا". وخرج الأب أرساني وألكسي من الزنزانة. فنزع المراقبون قفازاتهم وبدأوا يفتشونهما. كما نزع الطبيب قفازه ووضع يده تحت ملابس الأب أرساني، ثم تحت ملابس ألكسي، وقال دون أن يوجه كلامه الى أحد بصورة خاصة: "هذا مذهل! كيف استطاعا أن يبقيا على قيد الحياة؟ ومع ذلك فالحقيقة أنهما دافئان". ثم دخل الطبيب الى الزنزانة، وأجال النظر فيها وسأل: "ما الذي أبقاكما دافئين؟"

فأجاب الأب أرساني: "ايماننا بالله وصلاتنا".

فقال أحد المراقبين بنبرة غاضبة: "انهما مجرد متعصبَين. أعِدهما حالاً الى الثكنة". وفيما كان ألكسي يخرج سمع أحدهم يقول: "هذا مذهل. لم يكن بالامكان أن يبقيا على قيد الحياة في هذا البرد سوى أربع أو خمس ساعات على الأكثر. هذا أمر لا يصدق، فالحرارة في الخارج تبلغ ٣٠ درجة تحت الصفر. أنتم بالحقيقة محظوظون أيها المراقبون، فقد كان يمكن أن تصيبكم بعض الأمور غير المستحبة".

استقبلتهما الثكنة كما لو أنهما قائمان من بين الأموات.

وسألهما الجميع: "ما الذي خلصكما؟"

فأجابا معاً: "الله خلصنا".

وفي غضون أيام جرى نقل ايفان الأسمر الى ثكنة أخرى. وبعد أسبوع لقي حتفه على أثر سقوط صخرة عليه. وقد مات وهو في حالة من المعاناة الرهيبة. وسرت اشاعة بأن أصدقاءه أنفسهم قد دفعوا الصخرة لتسقط عليه.

وأصبح ألكسي رجلاً آخر، وكأنه ولد من جديد. صار يلازم الأب أرساني كلما استطاع الى ذلك سبيلاً، ويسأل كل من استطاع من الناس عن الله، وعن الخدم الأرثوذكسية الطقسية.

سرد هذه القصة ألكسي. وأكدها شهود عدة ممن عاشوا في الثكنة خلال تلك الفترة.

الرجل العادل

لقد تم استبدال المراقب السابق، وأرسل رجل آخر ليحل محله، فلقّب "بالرجل العادل" لأنه كان يفرض تطبيق قوانين المعسكر بصرامة، ولمعاملته السجناء معاملة عادلة. ولم يكن المراقب الجديد يبالي بالأب أرساني، بل كان اذا وجد أمراً لا يروق له تماماً، يقول هازئاً: "يا أبتِ، انه لمن الضروري القيام بالخدمات بشكل جيد". ثم ينصرف ويعود بعد ساعة ليرى ان كان الأب أرساني قد قام بالعمل بالشكل الذي يرتضيه.

وخلال الصيف حصل أمر شديد الغرابة "للرجل العادل": لقد خرج يوماً لفحص الثكنة وكامل الأرض المحيطة بها، في حين كان الأب أرساني يكنس الممرات الممتدة بين الثكنات. فرأى المراقب يتوقف عندما أنهى جولته في الثكنات، ويُخرج غرضاً من جيبه، ويفتح محفظته، وينظر الى هذا الغرض ثم يعيده الى جيبه ويتابع سيره.

وفيما كان الأب أرساني يكنس، وصل الى المكان الذي توقف فيه المراقب، ورأى على الأرض دفتراً أحمر صغيراً. فلمّه ورأى أنه بطاقة انتساب "الرجل العادل" للحزب الشيوعي. تناول الأب أرساني البطاقة ووضعها في جيبه، وبعد أن انهى تكنيس الممرات، دخل ليكنس أرض الثكنة. وبينما هو يعمل صار ينظر من وقت لآخر عبر النافذة لعله يرى المراقب قادماً. وبعد مرور نحو ساعتين رأى "الرجل العادل" يركض مذعوراً. فخرج من الثكنة ودنا للقائه.

ان فقدان بطاقة الحزب، وخصوصاً في المعسكر في تلك الفترة، كان يعني الموت، وهذا ما علمه "الرجل العادل" تمام العلم. راح يركض على طول الممرات

الممتدة بين الثكنات، وهو مكفهرّ الوجه من الرعب. ونظر يمنة ويسرة، الا أن الرجال كانوا قد مرّوا في تلك الأمكنة. ثم وصل الأب أرساني وقال له: "يا رفيق! أرجوك أن تسمح لي بالتكلم اليك". فعبس المراقب غاضباً وصاح: "جِدْ عن طريقي أيها الكاهن الغبي"، وأراد أن يضربه. فأعطاه الأب أرساني بطاقة الحزب بصمت، واستدار عائداً الى الثكنة.

انتزع المراقب البطاقة وصاح: "مكانك!" وتقدم منه وسأله: "من رآك؟

- "لم يرني أحد أيها الرفيق المراقب. لقد وجدتها في الممر منذ حوالي الساعتين".

فاستدار "الرجل العادل" وانصرف. وبدا أن شيئاً لم يتغير، ولكن مع الوقت صار المراقب يزداد تطلباً حيال الأب أرساني. وفكر الرجال بأنه قد يكون اتخذ قراره بالتخلص منه كشاهد خطير، اذ كانت تحدث مثل هذه الأمور في المعسكر: كأن يقتل مراقب سجيناً ثم يقول: "لقد هاجمني!" ويمكن أن ينال ثناء الادارة أيضاً على عمله هذا.

كانت توجد وسائل عديدة للتخلص من سجين، وكلها من دون أن يلحق الفاعلَ عقاب.

ومرت الأيام.

سرد هذه القصة أندريه ايفانوفيتش، مراقب أول في الثكنة التي أمضى فيها الأب أرساني سنوات عديدة. كما استُعملت فيها بضعة حوادث وصفها وكتبها الأب أرساني.

يا والدة الاله! لا تتخلّي عنهم!

كُتبت هذه القصة بالاستناد الى ما رواه الأب أرساني نفسه لأقرب أبنائه الروحيين، وأنا أحدهم.

لقد ساعدتني الأخبار التي سمعتها عندما التقيت بآفسنكوف وسازيكوف وألكسي (الطالب الذي كان في ذلك الوقت قد خرج من المعسكر)، في سرد ما يلي. اذ كان هؤلاء الأشخاص حاضرين في الثكنة عندما مات الأب أرساني بالجسد، كما شهدوا عودته الى الحياة.

وعندما أنهيت كتابة كل هذا، شعرت بأن عليّ أن أطلع الأب أرساني على المخطوطة. فقرأها وبقي صامتاً لوقت طويل، وعندما سألته: "ألم يكن الأمر على هذه الصورة؟" أجاب:

– "لقد مُنحت لي رحمة عظيمة من الرب ومن والدة الاله التي أظهرت لي الكنز الأكثر قدسية وروعة: كنز الروح البشرية المفعمة بالايمان والحب والحنان. لقد أظهرا لي أن الايمان لن يموت على الأرض أبداً. فالكثيرون من الناس يحملونه في داخلهم ــ بعضهم بحرارة، وبعضهم الآخر باحترام مرتعد، فيما لا يحمل آخرون غير قبس منه ــ ومن الضروري أن يساعدهم كاهن جيد، ويرعاهم ليتحول هذا القبس الى لهيب من الايمان لا يخمد. لقد أظهر لي الرب أن على الناس الذين يحملون الايمان، وخصوصاً منهم رعاة النفوس البشرية، أن يعززوا الجهاد من أجل كل انسان، حتى استنفاد قواهم، وحتى رمقهم الأخير. أما قاعدة الجهاد من أجل نفسٍ ما فهي الحب والحنان وعون القريب، العون الذي لا يُبذل للمصلحة الشخصية، بل لمصلحة الأخ. فالناس يحكمون على الايمان، حتى

انهم يحكمون على يسوع المسيح نفسه، بحسب تصرفات الآخرين. كما كُتب أيضاً: بكلامك تُبرر وبكلامك تُدان (متى١٢: ٣٧). وأيضاً: احملوا بعضكم أثقال بعض وأتموا بهذا ناموس المسيح (غلا٦: ٢).

– "ما حصل معي كان لي درساً هائلاً وتحذيراً أعادني الى مكاني. فبعد أن عشت طويلاً في المعسكرات، ونجوت مرات عديدة بفضل رحمة الله، بدأت أعتقد بأن ايماني قوي. وعندما متُّ أظهر لي الرب ووالدة الاله أني لست مستحقاً حتى أن ألمس ثياب العديد من هؤلاء الذي يعيشون أيضاً في المعسكرات. وعليّ أن أتعلم منهم الكثير.

– "لقد أذلّني الرب، ووضعني في مكاني، وحيث وجب أن أكون منذ البدء. لقد أبان لي عظم تفاهتي، وأنعم عليّ بوقت اضافي لأتحسّن، ولأصحح أخطائي ومآثمي. ولكن هل فعلت ذلك؟ أعنّي يا رب!"

ولما قال الأب أرساني هذا، أخذ مني المخطوطة وأعادها اليّ بعد أيام قليلة. فقرأتها من جديد واكتشفت بأنه قد غيّر فيها كلمات قليلة، وأضاف غيرها. والمخطوطة التي أعادها اليّ هي الموجودة أمامكم الآن.

لما أعاد الأب أرساني اليّ المخطوطة قال لي: "أرجوك ألا تطلع أحداً على هذه طالما أنا على قيد الحياة. عندما أموت، دع الآخرين يقرأونها".

✣

رحل الصيف الحار المضني مع غيوم بعوضه، وحلّ محله خريف ماطر، رطب وبارد. وصارت الأرض أحياناً مثلجة، وأحياناً أخرى تتدفق عليها أنهار من الوحل اللزج. وبات الجو رطباً وبارداً داخل الثكنات، مما جعل الحياة صعبة بشكل خاص. لم تكن ثياب السجناء لتجفّ على الاطلاق، وكانت أقدامهم مبتلة على

الدوام، ومغطاة بالقروح. وانتشرت عدوى الانفلونزا. وصار يموت كل يوم ما يتراوح بين ثلاثة وخمسة رجال. ووصل الدور الآن الى الأب أرساني. لم يعد بمقدوره النهوض من سريره، وبلغت حرارته ٤٠ درجة مئوية، فأصبح عرضة للارتعاشات والسعال والاحتقان، ورفض قلبه أن يعمل.

عندما تحل عدوى أنفلونزا كهذه في المعسكر الخاص، فان المرضى لا يوضعون في المستشفى. أما اذ تحطمت جمجمة أحدهم أو بترت ساقه أو ذراعه، أو انكسرت، فعندها فقط ينقلونه الى المستشفى. اذ ينبغي مقاومة الانفلونزا داخل الثكنة. كانت القاعدة في المعسكر: انك اذا استطعت الوقوف، فعليك أن تعمل. أما اذا عجزت عن الوقوف، فعليك أن تثبت أنك لا تدّعي المرض. واذا أثبتّ ذلك، فسوف يقدمون لك العناية اذا وافقت السلطات.

ويوجد في المعسكر مخطط يبيّن مقدار العمل المفروض على كل سجين. فاذا كان باستطاعته تأدية عمل أكبر من المتوقّع، فان السلطات تجني الربح من ذلك. وهذا ما يجهله السجين بالطبع. الا أن عمله يعود بالمال الى أحدهم. والسلطات هنا كي تلتزم بمخططها، اذن لا وقت للرحمة.

عندما يمرض سجين أو يصاب بارتفاع الحرارة، عليه أن يطلب الاذن بالذهاب الى المستوصف حيث سيقيسون حرارته، واذا كانت أقل من ٣٩,٥ درجة مئوية، فسيُعاد الى العمل. واذا حاول أن يجادل، فسوف يرسلونه الى زنزانة العقاب. وفوق كل ذلك سيلكمه المراقب على وجهه لتذكيره بواجباته. أما اذا كانت حرارته أعلى من ٣٩,٥ درجة، فيمكنه البقاء في الثكنة ملازماً سريره. ولكن عليه الحضور كل يوم الى المستوصف. واذا أصيب بالغيبوبة في الثكنة، فسيحضر الطبيب ليقيس حرارته وليلقي بعض الأدوية فوق سريره. وبعد ذلك يمكنه أن يلازم السرير على أن ينتبه ولا يبقى فيه بعد أن تهبط حرارته تحت ٣٨,٥ درجة.

كانت هذه اذن القاعدة العامة: اذا استطعت المشي، فامشِ الى العمل، ولا تلجأ الى أطباء المعسكر: فهم بالعادة موظفون من قبل الدولة ويعرفون وظيفتهم. ولا يلزمهم الكثير ليصرخوا: "أنت تتظاهر بالمرض، انصرف الى العمل! والا فسأرسلك الى زنزانة العقاب!" والواقع أن العديد من السجناء كانوا أطباء قبل اعتقالهم، الا أنه لم يكن يسمح لهؤلاء بممارسة الطب في المعسكر على الاطلاق. بل كان عليهم أن يؤدوا عملاً جسدياً، كغيرهم تماماً، وبالتحديد عملاً جسدياً صعباً.

في اليوم الثالث لاصابة الأب أرساني بالمرض، فحصه أحد الأطباء المسلجين، واستدعى أخصائياً في أمراض الرئة للتداول في الوضع. فاستدعيا آفسنكوف وقالا له: "ان المريض مصاب بذات الرئة، وبالانهاك الكلي، وبنقص فادح في الفيتامينات. كما ان قلبه مرهق. يبدو الأمر سيئاً للغاية، ولا نعتقد بأنه قادر على الصمود أكثر من يومين. سوف نحتاج الى أدوية وأوكسجين وعناية، ولكننا عاجزان تماماً في ظل هذه الظروف".

كان الأب أرساني رجلاً شبه عجوز. وقد عاش في هذا المعسكر سنوات عدة مات في خلالها الكثير من الناس، وحلّ محلهم آخرون جدد. لم يكن فيه غير اثني عشر "معمّراً" مثله على وجه التقريب. وكان الجميع ينظرون بعجب الى هؤلاء "القدماء": كيف ولماذا بقي هؤلاء الشيوخ على قيد الحياة؟

واستُدعي طبيب، فنظر الى الأب أرساني من مسافة مترين، وقذف بعض حبات الأسبيرين على سريره. وأعطى آفسنكوف ميزان حرارة لقياس حرارته، ورأى بأنها تتخطى ٤٠ درجة مئوية. ثم رحل وهو يقول: "انه مصاب بالأنفلونزا".

وساءت حالة الأب أرساني باطراد. وصار بمقدور أصدقائه أن يـروا بأنـها النهاية، وأن ساعته قد حضرت. فأرسـلوا رجـلاً الى المستشـفى ليحـاول الحصـول على المعونة. كما حـاول أصدقـاؤه السـجناء أن يرققـوا قلـب المراقبـين، وتدبـروا أمرهم للحصول على شيء من بودرة الخـردل لصنـع لصقـة، وشـيء مـن مربـى التوت. فأحضروا كل ما استطاعوا اليه سـبيلاً. كمـا نجـح رسـول في الوصـول الى المستشفى بصعوبة بالغة، وبمساعدة بعض الأصدقاء الحقيقيـين، توسّـل للحصـول على العون والدواء. وشرحَ ما يحصل للأب أرساني.

وقد استمع الطبيب الى الرسول وسأله: "كم يبلغ السجين مـن العمـر، وكم مضى عليه من الوقت في المعسـكر؟" فأجـاب الرسـول بـأن السـجين يبلـغ التاسعة والأربعين من العمر، وأن له ثلاث سنوات في المعسكر.

فردّ الطبيب: "هل تظن بأن المعسـكر الخـاص هـو مكـان للنقاهـة؟ وأن على المسلجين أن يعيشوا فيه حتى عامهم المئة؟ ان مريضك قد تجاوز الحدود، وقـد حان وقت رحيله. لقد عاش بما فيه الكفاية. لا دواء له، فالجيش يحتاج هذا الدواء"

وصارت الحرارة ترتفع بشكل متواصل، والأب أرساني يفقد الوعي أكثر فأكثر. وحاول آفسنكوف أن يعطيه الأسبيرين مع شراب مربى التوت. ووضـع لـه سازيكوف خرقة عليها خردل على صدره وظهره. وساعده الأطباء السجناء حسـب امكانياتهم، عند عودتهم من عملهم. الا أن حالته صارت تزداد سوءاً مع الوقـت. وفي بعض الأحيان كان يتوقف كلياً عن الحراك. كان يحتضر.

ان الموت حدث عادي في المعسكر، والجميع معتادون عليه. ولكـن الكـل أحسّوا به بشكل مختلف هذه المرة. (كان بالامكـان سماع هـذه الجملـة مـن طـرف الثكنة حتى طرفها الآخر: "الأب أرساني يحتضر! بيتر أندريفيتـش يحتضـر!" لقـد صنع مع كل واحد منهم عملاً صالحاً، عمـلاً لطيفـاً. ثمـة رجـل غـير عـادي علـى

الاطلاق يحتضر. وهذا ما أدركه السجناء السياسيون والمجرمون على السواء). [لقد أضفت هذه الجملة الأخيرة الموضوعة بين هلالين لذكرى الأب أرساني بعد وفاته، بمساعدة سازيكوف والطالب الكسي].

أما الأب أرساني فكـان يصلـي بغـير انقطـاع. وأحـسّ بدعـم أصدقائـه وعونهم، وازداد صمته تدريجياً.

قال أحدهم: "انه يموت". وأحس الأب أرساني أيضاً بأنه يحتضر. لم يعـد بامكانه أن يرى الثكنة ولا سازيكوف وآفسـنكوف وألكسـي، والطبيـب بوريـس بتروفيتش. اختفى كل شيء واضمحل...

وبعد مرور بعض الوقت، شعر الأب أرساني بنور غير مـألوف يسـتحوذ عليه، وسمع صمتاً مطبقاً يحيط به، فأصبح هادئاً. واختفى كـل مـا كـان يعـاني منـه: صعوبة تنفسه، والمادة المخاطية التي تحتقن في حلقـه، والحـرارة الـتي تحـرق جسـده، وضعفه وعجزه. لقد شعر أنه يتمتع بالصحة والنشاط.

وقف الأب أرساني الآن بجانب سريره، فرأى عليـه رجـلاً هزيـلاً مرهقـاً، طويل اللحية، أبيض الشـعر تقريبـاً، نـاحل الشـفتين وعينـاه نصـف مفتوحتـين. واستطاع أن يرى بقرب الرجل آفسنكوف وسازيكوف وألكسي، وعدداً قليلاً من السجناء الآخرين الذين يعرفهم ويحبهم بشكل خاص. نظر الأب أرساني بامعـان الى الرجل الممدد على السرير، وفجـأة اكتشـف بذهـول أن الرجـل الممـدد علـى السرير هو اياه نفسه.

فجأة صار الأب أرساني يرى كل مـا يحيـط بـه بوضـوح كلـي: أصدقـاءه الذين يتحلقون قرب سـريره، والثكنـة المترامية الأطـراف، بسـكانها العديديـن، والمعسكر الواسع بأكمله. وأدرك في هذه اللحظـة بـالذات أنـه لا يسـتطيع رؤيـة مظهرهم الخارجي فحسب، بل ونفوسهم أيضاً.

ومن خلال الصمت الذي كان فيه، رأى تحركات السجناء. ورغم أنه لم يكن يستطيع سماعهم، غير أنه كان يستطيع، بطريقة ما، أن يفهم بوضوح ما يقولونه ويفكرون به. وأدرك برهبة أن باستطاعته رؤية حالة كل نفس من نفوسهم، ولكنه علم أنه لم يعد معهم في هذا العالم.

كان هناك خط غير مرئي يفصله عن هذا العالم، وهو عاجز عن تخطيه.

قرّب الآن سازيكوف كوباً من "شفتيه"، وحاول أن يسكب شيئاً في فمه، دون جدوى، فاندلق الماء على وجهه. وكان آفسنكوف وألكسي يتكلمان مع بعض السجناء الآخرين حول أمر ما. فوقف الأب أرساني على قدميّ جسده، وراح ينظر الى نفسه والى الآخرين، وكأنه من خارج المجموعة. وأدرك فجأة أن روحه قد غادرت جسده. وأنه، أي الكاهن أرساني، ميت بالجسد.

استدار الأب أرساني حوله متعجباً. راحت الثكنة تختفي في الظلام. ولكنه رأى نوراً باهراً في مكان ما في البعيد.

استعاد الأب أرساني رباطة جأشه وبدأ يصلي. وفي الحال وجد نفسه في سلام. وأدرك بأن عليه أن يقصد مكاناً ما. وبدأ يسير باتجاه النور الباهر. ولكنه عاد أدراجه بعد أن قام بخطوات قليلة، ودخل الثكنة، وسار باتجاه سريره. ونظر الى ألكسي وألكسندر بافلوفيتش، وايفانوف وسازيكوف وآفسنكوف والعديد غيرهم الذين شاركهم السير في طريق العذاب المليء بالأشواك. وأدرك أنه عاجز عن ترك هؤلاء الأشخاص. لم يستطع أن يتركهم.

فركع وبدأ يصلي، ويتوسل الى الله ألا يتخلى عن ألكسي وآفسنكوف وألكسندر وثيودور وسازيكوف، وجميع الآخرين الذين عاش معهم في هذا المعسكر:

– "يا الله، يا الهي! لا تتركهم. أعِنهم وخلّصهم!" لقد صلى وطلب شفاعة والدة الاله بصورة خاصة، متوسلاً اليها أن ترحم سجناء المعسكر الخاص ولا تتخلى عنهم.

وفيما هو يصلي صار يبكي ويتوسل الى الله ووالدة الاله وجميع القديسين أن يرحموا هؤلاء جميعاً. ولكن صلاته كانت خالية من الكلمات. وأمام عينيه الروحيتين ظهرت الآن الثكنة وكامل المعسكر بشكل مختلف تماماً. رأى المعسكر كله مع جميع سجنائه وحرّاس سجنه، وكأنه يراهم من الداخل. وكان كل شخص يحمل في داخله نفساً يراها الأب أرساني بشكل واضح. كانت نفوس البعض تشتعل بنار الايمان وتضيء الناس من حولهم. ونفوس البعض الآخر أمثال سازيكوف وآفسنكوف، تحترق بلهب أصغر، ولكنه يتنامى دون توقف. وكان لبعضهم شرارات ضئيلة من الايمان، ولا تحتاج سوى لقدوم راعٍ ينفخ هذه الشرارات ويحوّلها الى لهب حقيقي. وثمة أيضاً أشخاص يحملون نفوساً داكنة وحزينة، وليس فيها أدنى قبس من "النور". والآن لدى نظر الأب أرساني الى داخل نفوس الأشخاص التي سمح له الله برؤيتها، شعر بتأثر شديد:

– "يا رب! لقد عشتُ بين هؤلاء الناس من غير أن ألاحظهم. كم من الجمال يحملون داخل ذواتهم! فالعديد منهم زهّاد حقيقيون في الايمان. ورغم كونهم محاطين بمثل هذا الظلام الروحي والعذاب البشري الذي لا يُحتمل، الا أنهم لا يخلّصون أنفسهم فحسب، بل يقدمون حياتهم أيضاً ومحبتهم للناس الذين حولهم، ويساعدون الآخرين بأقوالهم وأفعالهم.

– "يا رب! أين كنتُ؟ لقد أعمتني الكبرياء، وأخطأت في تقدير أعمالي البسيطة فحسبتها عظيمة".

ورأى الأب أرساني أن "نور" الايمان لا يتوهج فقط في داخل السجناء، بل في بعض الحراس والموظفين الاداريين أيضاً، هؤلاء الذين كانوا يقومون بالأعمال الصالحة ضمن الحدود التي يستطيعون التصرف فيها وكان هذا صعباً عليهم للغاية، لأنه كان خطراً جداً.

"ما الغاية من كل هذا؟" خطر هذا السؤال في ذهن الأب أرساني. "ما الغاية من كل هذا؟".

وقف وراح يراقب العالم الروحي للأشخاص، هؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين عاش معهم، وتكلم اليهم، أو رآهم فقط. وكم ظهر هذا العالم أمامه مختلفاً بشكل مدهش، ورائع الجمال من الناحية الروحية. أشخاص بدوا للأب أرساني في وسط الآخرين فارغين روحياً ودون شخصية، رآهم الآن بهيئة جديدة. ورأى بأنهم يحملون ايماناً كبيراً، وحباً للآخرين لا ينضب، وأنهم قد صنعوا الكثير من الصلاح وحملوا صليبهم دون تذمر. وأنه هو، الأب أرساني،عندما كان يعيش فيما بينهم، هو، الكاهن والراهب أرساني، لم يرهم ولم يلاحظهم، ولم يقم علاقة معهم.

– "يا رب! أين كنتُ؟ سامحني وارحمني. لم أكن أرى سوى نفسي. كنتُ مخدوعاً. لم تكن لي ثقة كافية بالناس".

انحنى الأب أرساني وصلى طويلاً. وعندما وقف وجد بأنه ما زال في المعسكر. الا أنه فقد احساسه الجديد به؛ اختفت الأسرّة والثكنة. وقف الأب أرساني عند بوابة المعسكر. وكانت الاشعاعات الخارقة للأنوار الكشافة تمشط المنطقة. وقد وقف حارس عند البوابة. كان الوقت ليلاً والمعسكر يغط في النوم.

استدار الأب أرساني باتجاه المعسكر وباركه، وصلى لأجل كل الذين ما زالوا يعيشون فيه:

– "يا رب! كيف لي أن أتركهم؟ وكيف أبقى من دونهم؟ لا تُبعد رحمتك عن جميع الذين يعيشون هنا. ساعدهم!" وجثا على ركبتيه فوق الثلج وصلى.

كان الطقس بارداً والرياح تقذف كتلات من الثلج، الا أن الأب أرساني لم يشعر بشيء من ذلك. لقد صلى وقتاً طويلاً ثم نهض وغادر المعسكر. تجاوز الحرّاس وسار على الطريق. ورأى ضوءاً براقاً، جذاباً في مكان ما بعيد جداً، ومشى باتجاهه. مشى بسهولة وهدوء. تجاوز الغابة والقرية، وفجأة وجد نفسه في مدينته، المدينة التي فيها كنيسته، كنيسته الخاصة، الكنيسة التي خدم فيها في البدء ككاهن جديد، والتي عمل فيها جاهداً بمساعدة أبنائه الروحيين الكثيرين من أجل تجديد جمالها القديم. وتمتم: "كيف يحصل هذا يا ربي؟ ولِمَ أنا هنا؟ " ثم دخل الكنيسة.

وكان أول ما رآه أيقونة والدة الاله المألوفة، القديمة والعجائبية التي ينظر وجهها الحزين بعمق وامعان الى كل من يقترب منها. كان كل شيء في هذه الكنيسة كما تركه، الا أنها الآن ممتلئة بالبشر، حتى انها تغص بالبشر. كانت وجوه المصلين مبتهجة وهم ينظرون الى أيقونة والدة الاله.

وفيما كان الأب أرساني يتقدم باتجاه الهيكل، صار الناس يتزاحمون يميناً وشمالاً ليدعوا له ممراً. تقدم باتجاه الهيكل بخطى خفيفة ومزهوة. واذ دخل الهيكل رغب في ارتداء الحلة الكهنوتية، فشرع بخلع سترة المعسكر حتى يبدأ بالخدمة. الا أن أحدهم ــ وكان يقف بالجوار ــ قال له بنبرة حازمة: "لا تخلعها! فهذه الملابس تصلح أيضاً للخدمة".

نظر الأب أرساني الى سترة السجن القطنية المرقعة التي يرتديها، فوجد أنها ذات لون أبيض مضيء يعمي الأبصار. فوضع بطرشيله لكي يبدأ بالخدمة،

وهو مذهول. كان الهيكل يفيض بنور باهر والكنيسة كلها تشع بالنور، وظهرت الأيقونات على الجدران شديدة الروعة، وبدت كأنها حية. كان المصلون كثيرين، وهم يصلون بعمق وبفرح.

وفيما كان الأب أرساني يخدم القداس الالهي، رأى أن معه في الخدمة الكاهن الراهب هيرمان والكاهن أمبروسيوس والشماس بطرس وعدة كهنة آخرين. وعرف الأب أرساني جميع الذين يخدمون معه الآن. وفي طرف الهيكل وقف بهدوء الأساقفة يونان وأنطونيوس وبوريس، وأبوه الروحي وصديقه الأسقف ثيوفيلوس. وكانوا جميعهم ينظرون اليه بفرح.

وفكر الأب أرساني: "يا رب، جميعهم قد ماتوا منذ وقت طويل، وها هم الآن هنا. حسن جداً أن نكون هنا معاً".

قام الأب أرساني بالخدمة وقد حفلت نفسه بالسعادة، وملأت الصلاة كيانه كله ورفعته.

وبينما هو يبارك الناس المصلّين معه، أدرك أنه يعرفهم كلهم أيضاً: انهم أبناؤه الروحيون، وأبناء رعيته، وغيرهم ممن التقاهم في أماكن مختلفة، وفي معسكرات مختلفة. لقد شارك حياته مع هؤلاء الناس. وكان جميع هؤلاء الناس يصلون من أجل أحدهم، ويطلبون أمراً ما. واذ نظر اليهم بامعان أكثر، أدرك أنهم تماماً كالكهنة الذين يخدمون معه، والأساقفة الواقفين في الهيكل – جميعهم قد ماتوا، بعضهم منذ زمن بعيد، والبعض الآخر مؤخراً.

وفكر الأب أرساني: "يا والدة الاله، كيف يمكن أن يحصل أمر كهذا؟" ولم ينتظر جواباً، بل استغرق في الخدمة وفي الصلاة. وفيما هو يقوم بخدمة القداس

الالهي أحس بأنه يلتهب بالسعادة والحرارة الداخلية. فتناول من الأسرار المقدسة وختم القداس، ثم جثا أمام أيقونة سيدة فلاديمير ورجاها أن تغفر له جميع خطاياه:

– "يا والدة الاله، ان الآب السماوي قد استدعاني للدينونة لأني متّ. فلا تتركيني، بل كوني شفيعتي أمام ابنك. لا تتركيني، اني أتكل عليك، أنا الخاطئ غير المستحق".

وكما صلى من أجل مغفرة خطاياه، توسل أيضاً الى والدة الاله ألا تترك جميع أولئك الذين بقوا على قيد الحياة. صلى من أجل أبنائه الروحيين، والسجناء الذين عاش معهم وما زالوا في المعسكرات. لقد صلى من أجل ألكسي (الطالب)، ومن أجل آفسنكوف وسازيكوف وأبروسيموف وألشيفسكي والعديد العديد غيرهم. لقد فقدَ الاحساس بالوقت وصلى بشدة لدرجة أنه أحس بأن جميع المصلين في هذه الكنيسة يصلون معه، ويرددون دون توقف: "يا والدة الاله، لا تنسيهم، هؤلاء المتألمين منذ عهد بعيد". راح يبكي ويتنهد، وفاضت الدموع على وجهه.

وأحس الأب أرساني بقلبه يؤلمه ويضيق في صدره: كيف سيعيش كل هؤلاء الموجودين هناك؟ وتضرع من جديد الى والدة الاله ألا تنساهم، هؤلاء الذين يفوق ألمهم قدرة الانسان على الاحتمال... وفجأة سمع صوتاً، صوتاً واضحاً، فائق الحنان ولكنه حازم ومفهوم، يقول: "لم تحن بعد ساعة موتك يا أرساني. عليك أن تخدم الناس بعض الوقت أيضاً. ان الله سيعيدك لتعين شعبه! اذهب واخدم. وأنا لن أتركك".

رفع الأب أرساني رأسه ونظر الى الأيقونة، وتراءى له أن والدة الاله قد نزلت من الأيقونة ووقفت في مكانها. فجثا على ركبتيه عند قدميها ولم يستطع إلا

أن يردد: "يا والدة الاله لا تتركيهم. وارحميني أنا الخاطئ!" وسمع صوتها يقول له من جديد: "ارفع وجهك يا أرساني وانظر اليّ وأخبرني ما عندك، أعلمني بأفكارك".

فرفع الأب أرساني وجهه ونظر الى والدة الاله واذ غلبه حنانها وعظمتها الفائقة الطبيعة، انحنى كثيراً وقال:

- "لتكن مشيئتكِ يا والدة الاله، مشيئتكِ ومشيئة الرب. ولكني عجوز ومريض، فهل سأتمكن من خدمة هؤلاء الأشخاص كما تريدين مني أيتها الملكة؟

- "أنت لست وحدك يا أرساني، فهناك العديد من الناس الذين يعملون لأجلي، وسوف تعمل الى جانبهم. وبعملك معهم سوف تساعد الكثيرين. لقد أظهر لك الله للتوّ أن لديه الكثير من الناس الذين يعملون لأجله. لقد أظهر لك نفوس الأشخاص الذين يعيشون في المعسكرات، والايمان يحيا في العديد منهم. الايمان والمحبة. لست وحدك في المنـّة التي مُنحت لك. اذهب واخدمني، وأنا سأساعدك!" وشعر الأب أرساني بيد والدة الاله تلامس رأسه.

نهض الأب أرساني وخلع بطرشيله. وسجد لجميع المجتمعين: الكهنة والشعب. ورأى من جديد أنه يعرفهم جميعاً، وأنه قد رافق معظمهم في ساعة انتقالهم الى راحتهم الأبدية، وأن حياته هي بطريقة ما مرتبطة بكل واحد منهم. اقترب من الباب الملوكي وجثا، ثم نهض وطلب الى حشد المجتمعين ألا ينسوه في صلواتهم. وسار باتجاه باب الكنيسة. وفيما هو يسير بين الناس، صاروا يباركونه. وخرج من الكنيسة وروحه تفيض بالسعادة. كان السير سهلاً. سار باتجاه المعسكر، باتجاه ثكنته. وركض كل شيء بقربه: الغابة والطريق والمنازل. فتجاوز الحرّاس ودخل الى ثكنته وسار نحو سريره، ورأى جسده ممدداً عليه والناس المتحلقين حوله. فتمدد فوق سريره وسمع أحدهم يقول: "قُضي الأمر! انه يبرد. مات أبونا أرساني.

الساعة تقارب الخامسة، واقترب وقت الاستيقاظ. سيكون علينا أن نُعلم المراقبين".

وأضاف أحدهم: "أصبحنا كلنا يتامى. لقد ساعد العديد منا. أنا صارعت الله طوال حياتي، ولكنه هو أظهره لي. لقد كشفه لي من خلال أعماله".

وتنفس الأب أرساني عميقاً، فدهشوا جميعاً وخاف العديد منهم. ثم قال بهدوء: "كنت في كنيستي. وأما الآن فقد أعادتني والدة الاله اليكم!" ولم يشعر أحد بأن هذه الكلمات غريبة رغم أنهم كانوا لا يزالون منذهلين لعودته.

وبعد حوالي أسبوعين أصبح الأب أرساني قادراً على النهوض من سريره. وبدا له كل شيء غريباً: الحياة بصورة عامة، والأشخاص، كل ذلك بدا مختلفاً. وكل واحد رغب بتقديم المساعدة. كل واحد صار يحضر له جزءاً صغيراً من حصة طعامه. حتى ان "الرجل العادل" أحضر بعضاً من الزبدة وأعطاه لسازيكوف من أجل الأب أرساني.

نهض الأب أرساني وعاد الى الحياة بعد أن تركه المرض الرهيب. أرسله الرب ووالدة الاله ليخدم الناس. لقد أعاداه الى العالم.

ميخائيل

جرى عدّ جميع السجناء ثم دُفعوا لاعادتهم الى الثكنات، وأُغلقت الأبواب. قبل النوم يمكنك أن تتكلم قليلاً، وأن تشاطر الآخرين في انطباعاتك حول الحياة في المعسكر، أو أن تلعب الدومينو، أو تتمدد ببساطة فوق سريرك متذكراً ماضيك. وحتى بعد مرور ساعتين على اغلاق الأبواب، يمكنك أن تسمع أيضاً بعض المحادثات، ثم تخفت الأصوات ويحلّ الصمت في الثكنة.

بعد اغلاق الثكنة وقف الأب أرساني طويلاً بجانب سريره وهو يصلي. ثم تمدد فوقه وتابع صلاته. وأخيراً نام. ولم يكن نومه يوماً عميقاً جداً. وفي حوالي الساعة الواحدة صباحاً شعر بأن أحدهم يدفعه، فقفز من سريره ورأى رجلاً لا يعرفه يهمس له:

– "تعال! ان جاري يحتضر! وهو يطلبك!"

كان الرجل المحتضر في الطرف الآخر من الثكنة، ممدداً على ظهره وهو يحشرج متنفساً بصعوبة. وكانت عيناه مفتوحتين على مداهما بشكل غير طبيعي. فقال للأب أرساني: "سامحني أرجوك! ولكني أحتاج اليك، فأنا أحتضر". ثم قال فجأة وكأنه يصدر أمراً: "اجلس".

فجلس الأب أرساني على طرف السرير. وكان النور الذي يتسرّب من الممرات الواقعة بين الأسرّة ضعيفاً، بالكاد يضيء وجه الرجل المحتضر الذي تغطيه قطرات العرق. كان شعره مبللاً وشفتاه مطبقتين بشدة. كان مرهقاً جداً، يحتضر. الا أن عينيه كانتا تنظران الى الأب أرساني كمشعلين متقدين. في هاتين العينين توهجت واحترقت وتسارعت الحياة الكاملة التي عاشها هذا الرجل. كان يترك

هذه الحياة. لقد عانى العذاب وكان متعباً، الا أنه أراد أن يؤدي حساباً الى الله عن حياته.

– "أرجوك أن تسمع اعترافي، وأن تغفر لي خطاياي. فأنا راهب، راهب في السرّ." وعندها نهض الذين كانت أسرَّتهم قريبة من سرير ميخائيل، ووجدوا لأنفسهم أماكن أخرى للنوم. كان بمقدورهم جميعاً أن يروا الموت يخيّم عليه. وعلى الانسان أن يكون رحوماً ومتساهلاً تجاه شخص يموت، حتى ولو كان ذلك في الثكنة. انحنى الأب أرساني فوق الراهب، وقوّم الغطاء الممزق الذي يكسوه، ووضع يده على رأسه وهمس بالصلوات التي تسبق الاعتراف. ثم استجمع قواه وتحضّر لسماع اعترافه.

قال الرجل: "ان قلبي ينهار". وقال ان اسمه كراهب هو ميخائيل، ثم بدأ اعترافه.

واستمع الأب أرساني وهو منحنٍ، ووجهه بقرب وجه الرجل المحتضر، الى الهمسات التي بالكاد تُسمع، وهو ينظر في عينيّ ميخائيل. وفي بعض الأحيان كانت الهمسات تتوقف، ويمكن سماع الصفير الناتج عن صعوبة تنفس ميخائيل وهو يفتش عن الهواء. وكان أحياناً يصمت، ويمكن أن يظن من يراه بأنه مات. الا أن عينيه بقيتا حيَّتين، وكان باستطاعة الأب أرساني وهو ينظر في داخلهما، أن يقرأ كل ما يحاول الرجل المريض أن يقوله في همسه الشاق.

لقد استمع الأب أرساني الى اعترافات العديد من الناس وهم على فراش الموت، وكانت هذه الاعترافات تهزّه في العمق على الدوام. أما الآن وباستماعه الى اعتراف ميخائيل، فقد أدرك بوضوح أنه ينظر الى رجل عاش حياة روحية عظيمة وغير اعتيادية. ثمة رجل صلاة، رجل صدّيق يحتضر. رجل كرّس حياته لله وللبشر اخوته. ثمة رجل صدّيق يحتضر. وفهم الأب أرساني أن الكاهن أرساني غير مستحق لتقبيل هدب ثوب الراهب ميخائيل، وأنه لا يساوي شيئاً بالمقارنة معه.

صارت الهمسات تقصر باطراد، الا أن العينين كانت تتوقدان، تشعّان بالنور. كانتا حيّتين. وعاد بمقدور الأب أرساني أن يقرأ في هاتين العينين كل ما أراد الرجل المحتضر أن يقول.

كان ميخائيل قاسياً مع نفسه في اعترافه. اتهم نفسه دون رحمة. وفي بعض الأحيان بدا أنه سبق وفصل ذاته عن الرجل الممدد على السرير، وأنه يتكلم عنه من خارج. ورأى الأب أرساني أن حياة ميخائيل الدنيوية هي كسفينة محمّلة بآلامه وعذاباته وماضي أحزانه وحاضرها، وأنها سبقت وأبحرت بعيداً عنه الى عالم النسيان النائي. ولم يبقَ الآن غير الأمور الأساسية التي عليه أن يضعها أمام الله في يوم الفحص. واذ أبعد كل ما هو غير أساسي، فعليه أن يودع كل ما هو أساسي بين يديّ الكاهن أرساني الذي سوف يغفر له كل شيء ويعطيه الحلّ بقوة السلطان المعطى له من الله.

على الراهب ميخائيل أن يضع كل شيء أمام الله في الدقائق القليلة التي بقيت له من الحياة، وأن يعترف بجميع خطاياه وينقّي ضميره قبل مثوله أمام دينونة الله.

ثمة رجل يحتضر كما احتضر الكثيرون قبله بين يديّ الأب أرساني. الا أن هذا الموت جعل الأب أرساني يرتجف، ويفهم أن الله أغدق عليه هبة عظيمة اذ سمح له بأن يستمع الى اعتراف هذا الرجل الصدّيق.

كان الله يظهر له كنزه الأعظم الذي تعهده بمحبة: كان يظهر له مدى الكمال الذي يمكن لانسان أن يرتقي اليه، انسان أحبّ الله وأخذ "نير مسيحيته" و"حِملها" وسار بهما الى النهاية. كل هذا رآه الأب أرساني وفهمه.

ان اعتراف ميخائيل المحتضر جعل الأب أرساني يرى أنه حتى في ظل الظروف الكثيرة التعقيد للحياة العصرية، باضطراباتها السياسية وعلاقاتها الانسانية المعقدة، والالحاد المدعوم رسمياً، والايمان الذي يُداس بالأقدام، وسقوط

القيم الأخلاقية، والشكوك المتواصلة والتقارير الكاذبة، وغياب الارشاد الروحي، يمكن لرجل عميق الايمان أن يتغلب على كل ما يقف حائلاً بينه وبين الله.

لم يسافر الراهب ميخائيل الى الله من داخل دير أو سكيت، بل من الخارج، من وسط ظروف الحياة القاسية، في أصعب الأوقات، وعبر صراع مرّ ضد قوى الشرّ والالحاد العدائي. لم يحظَ تقريباً بأي عون أو ارشاد: التقى بكاهنين أو ثلاثة، وكان له فرح قضاء سنة على اتصال بالأسقف ثيودوروس الذي سامه. وفيما بعد تلقى منه ميخائيل رسالتين أو ثلاث رسائل مقتضبة. ولكن رغبته المتقدة التي لا تُقهر، رغبته بالاقتراب من الله أكثر فأكثر، هي التي قادته بالدرجة الأولى.

قال ميخائيل: "هل سلكتُ الدرب الصحيح؟ هل سرتُ كما يجب ؟ أم أني اتبعت طريقاً خاطئاً؟ لا أعرف".

لكن الأب أرساني وجد بأن ميخائيل لم يضلّ عن السبيل الذي دلّه عليه الأسقف ثيودوروس وحسب، بل انه قطع فيه أيضاً شوطاً بعيداً، بعيداً جداً، يفوق ما فعل مرشدوه الروحيون أنفسهم. كانت الحياة التي عاشها ميخائيل تشبه حرباً من أجل كمال روحي وخلقي، في خضم الحياة اليومية المعاصرة في هذا القرن. وفهم الأب أرساني أن ميخائيل ربح حربه هذه التي خاضها بشكل ملتحم ضد الشر المحيط به من كل صوب. وفي وسط الناس كان يفعل الصلاح باسم الله، حاملاً في نفسه كلمات الرسول كالشعلة المتقدة:"احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا أتمّوا ناموس المسيح"(غلا٦: ٢).

وأدرك الأب أرساني كمال ميخائيل وعظمته، وفهم مقدار تفاهته الشخصية. وصلى بحرارة شديدة، ملحّاً على الله لكي يمنّ عليه، هو الأب أرساني، بالقوة ليخفف عذاب الرجل المحتضر في لحظاته الأخيرة. وفي بعض الأحيان كان الأب أرساني يشعر بنفسه عاجزاً كلياً، ولكنه أحس في الوقت نفسه

بفرح عظيم لشعوره بمدى قرابته من ميخائيل الذي راح اعترافه يفتح أمامه سبل الله الغامضة، ويلقّنه، ويضعه على درب الايمان الأكثر عمقاً.

وحان الوقت اذ أفرغ ميخائيل كل ما كان في نفسه أمام الأب أرساني، ومن خلاله أمام الله. ونظر الى الأب أرساني وفي عينيه سؤال. فحمل الأب أرساني ثقل خطايا ميخائيل وتناولها بين يديه، وأخذها على روحه الكهنوتية وارتجف. وارتجف من جديد وهو يعي تفاهته البشرية وعجزه. وعندما تلا صلاة الحلّ على ميخائيل تنهّد أولاً في أعماقه ولم يستطع أن يتمالك نفسه عن البكاء لمرأى الرجل المحتضر.

رفع ميخائيل عينيه ونظر الى الأب أرساني بعمق وقال: "أشكرك! عد الى هدوئك! لقد حانت ساعة ارادة الله. صلِّ لأجلي ما دمتَ على هذه الأرض، فما زالت رحلة عمرك طويلة. أرجوك أن تأخذ قبعتي: فقد خِطت في داخلها رسالة صغيرة موجهة الى شخصين. ان لهما ايماناً عظيماً، ايماناً عظيماً جداً. عنواناهما موجودان داخل القبعة. وعندما تخرج من هذا المعسكر، عندما تستعيد حريتك، أعطهما الرسالة. انهما يحتاجان اليك وأنت تحتاج اليهما. خِط رقمك كسجين داخل قبعتي وصلِّ الى الله من أجل الراهب ميخائيل".

كانا وحيدين في الثكنة طوال فترة الاعتراف: فالثكنة نفسها والرجال الذين يعيشون فيها، والجو كله كان في مكان ما، بعيداً جداً، واختفى في ما يشبه اللاوجود. وقد استولت عليهما حالة من القربى من الله، والتأمل المفعم بالصلاة والوحدة الداخلية الصامتة، ووضعتهما أمام الله. اختفى كل ما هو مؤلم وحزين وبشري. لم يعد هناك سوى الرب الاله الذي يذهب اليه أحدهما الآن، بينما يُعطى للآخر أن يتأمل في أمر شديد العظمة والسرّية: الموت، الرحيل من هذه الحياة.

شدّ الرجل المحتضر على يد الأب أرساني وصلى. واستغرق في الصلاة لدرجة أنه انفصل عن كل ما في هذا العالم. وفيما كانت روح الأب أرساني قريبة

جداً من روح ميخائيل في اتحاد مليء بالصلاة، تحرر من كل ما يحيط به، وانساق في صلاة الراهب ميخائيل بلجلال وتواضع.

ولكن حانت الآن لحظة الموت. استضاءت عينا الرجل المحتضر بنورٍ فرح صامت، وهمس: "لا تنبذني يا ربي!" وانتصب ميخائيل في سريره ومدّ يديه وكأنه تقدم خطوة نحو الأمام، وقال بصوت عالٍ مرتين: "يا رب! يا رب!"

ثم سقط الى الوراء، وانفتحت اليد التي كانت تمسك يد الأب أرساني. وأمست قسمات ميخائيل هادئة، الا أن عينيه كانتا تلمعان وتتفرسان في الأعلى ببهجة. وبدا للأب أرساني أنه رأى بأم العين كيف كانت روح ميخائيل تغادر جسده.

سقط الأب أرساني على ركبتيه وهو في حالة الصدمة، وبدأ يصلي. لكنه لم يصلِّ من أجل روح الميت وخلاصه، بل كان يشكر الله الذي برحمته جعله مستحقاً ليرى مَن لا يُرى ولا يُعرف، والسرّ الأكثر سرّية على الاطلاق: موت رجل صدّيق.

نهض الأب أرساني وانحنى فوق جثمان ميخائيل الذي بقيت عيناه مفتوحتين وبرّاقتين، ولكن نورهما راح يخفت ببطء. وغطتهما غشاوة شبه محسوسة عندما أُغلقت الجفون ببطء. وامتد ظل فوق وجهه فأضحى مهيباً، فرحاً وهادئاً.

صلى الأب أرساني وهو منحنٍ فوق جثمان ميخائيل. ورغم أنه شهد للتوّ موته، لكنه لم يشعر بأسى، لم يشعر سوى بسلام عظيم وفرح داخلي. لقد التقى رجلاً صدّيقاً ولامس رحمة الله ومجده.

رتّب الأب أرساني ملابس ميخائيل بحنو وسجد لجثمانه. وعادت الى ذهنه من جديد الفكرة نفسها، كبرق لامع: ان الله، الرب نفسه، كان هنا. وأنه تقبّل روح ميخائيل.

كان الفجر يلوح. سوف يستيقظ الجميع بعد وقت قصير. تناول الأب أرساني قبعة ميخائيل الفرو وبدّل رقم ميخائيل برقمه وذهب الى السجين المسؤول ليعلمه بموت ميخائيل. فسأل الرجل ــ وهو الأكبر سناً بين المجرمين ــ عن رقم السجين الميت وأبدى حزنه عليه. ثم فتحت الثكنة وخرج السجناء لتلاوة الأسماء الصباحية. ووقف المراقبون مقابل الثكنة، فاقترب منهم الرجل المسؤول قائلاً: "لدينا جثة، رقم ٣٨٢".

دخل أحد المراقبين الى الثكنة ونظر الى الرجل الميت، ورفسه بجزمته، ثم خرج. وبعد ساعتين حضرت مركبة جليد لنقل الجثة. ثم دخل طبيب وألقى نظرة لامبالية على جثة ميخائيل، ورفع أحد جفونه بيده المكسوة بقفاز، وقال باشمئزاز: "أخرجوه من هنا بسرعة".

كان ثمة جثث أخرى في عربة الجليد، فحملوا ميخائيل ووضعوه فوق بقية المساجين الموتى. ورتّب السائق وضعية جلوسه بشكل مريح، واضعاً قدميه على الأجساد المثلجة. كان الجو جليدياً وهادئاً. وتساقط ثلجٌ خفيف على وجوه الرجال الموتى وذاب ببطء، فبدوا وكأنهم يبكون. ووقف المراقبون على مقربة من الثكنة، وكذلك الطبيب والأب أرساني الذي كان يصلي بصمت واضعاً يديه على صدره.

وتحركت مركبة الجليد فانحنى الأب أرساني وبارك الميت برسم علامة الصليب. ثم عاد أدراجه الى داخل الثكنة.

شدّ السائق على اللجام وهو يشتم ببذاءة، وصاح بالأحصنة، فتحركت المركبة ببطء، ثم اختفت وراء الثكنة.

كتبت هذه القصة سنة ١٩٦٠ استناداً الى أقوال الأب أرساني. وفي العام ١٩٦٦ قام الكاهن الراهب اندراوس بتنظيم المذكرات المبعثرة التي خلفها الأب أرساني.

أيَّ طرف تؤيّد أيها الكاهن؟

عندما تدخلُ الى المعسكر تبدأ أولاً بحساب الأيام، ثم الأسابيع، وبعد انقضاء السنة الثانية يحين الوقت الذي لا يبقى لك فيه سوى انتظار الموت. فالعمل المضني والجوع المزمن والمشاجرات والضرب والبرد والبُعد عن المنزل، كل ذلك يصيبك بالملل، فلا تعود تفكر سوى بموتك المحتوم. لهذا السبب كان معظم السجناء يتدهورون تدريجياً من الناحية الخلقية.

كان مزاج معظمنا ــ نحن السجناء السياسيين ــ ومزاج جميع السجناء المجرمين، يتقلب تبعاً للظروف: زيارة المراقب، أو خبز مسروق، أو معركة، وخصوصاً عمل جسدي شاق يُعهد به الى الفرقة، أو زنزانة العقاب، أو اصبع مجلّد، أو وفاة جار لنا في الثكنة. لقد أصبحت أفكاركَ بدائية، وتركزت فقط على مثل هذه الظروف. كانت الغالبية العظمى من السجناء لا تحلم سوى بوجبة طعام ضخمة، أو بالنوم لمدة يومين، أو بالعثور على نصف ليتر من الفودكا، وشربه كله، ثم بالتهام وجبة أخرى. ولكن ذلك لم يكن بالطبع سوى أضغاث أحلام.

وحاول عدد ضئيل جداً من السجناء السياسيين أن يحافظوا على انسانيتهم، فانفصلوا عن الآخرين، وساندوا بعضهم البعض، ولم يريدوا أن يتدنوا الى مستوى المجرمين، بل حاولوا أن يعيشوا بطريقة محترمة، على قدر ما تسمح حياة المعسكر بذلك. واعتاد هؤلاء الأشخاص أن يتجمعوا في احدى زوايا الثكنة، فيلقون المحاضرات ويقرأون الشعر أو الأبحاث العلمية. وفي بعض الأحيان كانوا يكتبون أيضاً بعض الأشياء على قصاصات ورق يعثرون عليها في مكان ما. وما أكثر ما كانت تقوم بينهم مناقشات حامية حول بعض المواضيع، الا أن أكثرها حرارة كانت الجدالات التي تدور حول السياسة. وفي بعض الأحيان كان بعض المجرمين ينضمون أيضاً الى هذه النقاشات. وكان السجناء السياسيون يولون أحياناً

هذه الأمور شيئاً من الاهتمام، هم الذين بدا أنهم فقدوا الاهتمام بكل شيء. وكان الرجال يجادلون بحدة ويحقدون على مناوئيهم. ولم يشترك الأب أرساني في أي من هذه المناقشات على الاطلاق، ولكنه اجتُذب مرة الى احداها رغماً عن ارادته.

ويخاف السجناء الافصاح عن آرائهم بالعادة، الا أنهم كانوا ينسون كل مخاوفهم في حدة النقاش، ولا يفكرون في العواقب المحتملة. حتى ان بعضهم كانوا يقولون: "ماذا يهمني من الأمر! فسوف أموت قريباً في جميع الأحوال! على الأقل سأكون قد قلت ما أفكر به".

جرى عدّ السجناء وأغلقت الثكنة، وكانت الرياح تصفّر خلف جدرانها يميناً وشمالاً. سدّ الثلج النوافذ وصار الجو في الداخل خانقاً ورطباً، ولكنه دافئ. ولم تكن المصابيح الكهربائية لتعطي سوى نصف كمية الضوء الضرورية، فأدى كل هذا الى التجهم والكآبة. وكان الرجال متعبين من احساسهم بالوحدة.

تجمّع الرجال في فرق وبدأوا يتكلمون ويجادلون ويتذكرون. وراح المجرمون يلعبون الورق أو الدومينو من أجل المال أو حصص الطعام. وتشكلت في وقت قصير مجموعة من الرجال بقرب السرير الذي استراح عليه الأب أرساني، وبدأ نقاش مثير حول موقف السجناء من الدولة. وفي غضون خمس عشرة دقيقة تقريباً كان حوالي عشرين شخصاً قد انضموا الى المجموعة، وارتفعت حرارة النقاش. صار الرجال يقاطعون بعضهم بعضاً بلهجة متوعدة. وكان بين المشاركين أعضاء سابقون في الحزب، ومثقفون من مهن مختلفة، وعدد قليل من الفلاسّوفيين[٥] وغيرهم. وسُمعت صرخات: "لمَ نحن هنا؟ بدون سبب! أين هي العدالة؟ يجب أن يُرمَوا جميعاً بالرصاص!" وصارت وجوههم قاسية وغاضبة. ولم يكن هناك غير أربعة أو خمسة أعضاء سابقين في الحزب ممن خالفوهم الرأي،

[٥] روس انضموا الى الجيش الالماني تحت لواء العماد فلاسّوف (Vlassov) بهدف محاربة الشيوعية من الخارج. وفي وقت لاحق أعادهم الحلفاء الى روسيا، فشُنق معظمهم وارسل الآخرون الى المعسكرات.

وحاولوا أن يشرحوا بأن ما يحدث هو خطأ هائل ومأساوي قد يتم تصحيحه يوماً ما. فمن المحتمل برأي هؤلاء أن يكون كل هذا نتيجة تسرّب من العدو، يجهله ستالين نفسه الذي تعرّض للخداع.

فصرخ صوت: "ستالين مخدوع! في حين أن نصف روسيا في المعسكرات! انها ابادة بشرية تم التخطيط لها!"

ووافق آخر: "ستالين على علم بهذا: وهو نفسه قد أعطى الأوامر ".

وبدا أحد السجناء غاضباً بشكل خاص، وقد تم اعتقاله لتصرف مُخلّ بالنظام وتدبير مؤامرة لاغتيال ستالين. كان وجهه مشوّهاً من الغضب وصوته يرتجف، فيما راح عدد قليل من الفلاسّوفيين يصرخون متهمين كل شيء وكل الناس.

- "يجب أن يُشنق جميع أعضاء الحزب هؤلاء، أو يُرموا بالرصاص".

وراح عجوز، بولشيفي متصلّب منذ العام ١٩١٧، يجادل بشراسة ويتلاكم مع رجل خدم في الجيش الالماني. فصرخ به:

- "أنت خائن! يجب أن تُعدم رمياً بالرصاص، ولكنك ما زلت هنا، حياً ترزق! أنا نفسي شنقت ورميت بالرصاص أشخاصاً مثلك، العديد منهم. أنا آسف فقط لأني لم ألتقِ بك في ذلك الوقت. أنا هنا بسبب أخطائي، ولكن عندما أفكر بأنك أنت ــ الخائن ــ هنا أيضاً، لتموت معي..."

- "أنا خائن؟ أنا خائن؟ أنا كنت موالياً للحكومة السوفياتية".

- "يمكنك أن تقول: "أنا؟ أنا؟" ولكنك في المعسكر بصفة خائن. هذا هو المكان الذي أوصلَتنا اليه حكومتك".

فضحك الرجال المحيطون بهما، لكن الجدال استمر عنيفاً. وفجأة قال أحدهم: "دمّروا الكنائس، وداسوا الدين". وعند ذلك لاحظ أحدهم أن الأب أرساني يجلس بالجوار، فقال له: "حسناً قل لنا يا بيتر أندريفيتش كيف تنظر الكنيسة الى السلطات؟"

فبقي الأب أرساني صامتاً، الا أنهم جرّوه جسدياً الى داخل حلقة المناقشين. فشعر أصدقاؤه بالقلق عليه. كان واضحاً لهم ما سيكون جواب الأب أرساني، فقد عانى الكثير من العذاب في المعسكرات.

كان الفلاسّوفيون بقيادة جيتلوفسكي يعزلون أنفسهم عن كل الباقين. ولم يكونوا يرهبون شيئاً لعلمهم أنهم اعتقلوا بحق وأن نهايتهم وشيكة. فقال أحدهم: "هيا، أنطق أيها الكاهن. أنطق!"

تردد الأب أرساني للحظة ثم قال: "انكم تقيمون نقاشاً حامياً تحوّل الى ملتهب، وحتى انه عنيف. والحقيقة أن الحياة صعبة في المعسكر، وكلنا نعرف كيف ستكون النهاية لنا. لهذا السبب أصبح النقاش مريراً الى هذه الدرجة، وهو أمر مفهوم. غير أنه يجب ألا يُهلك أحد أو يُقتل. كلكم تلقون اللوم على السلطات والأوامر والشعب. وقد جررتموني الى هذا النقاش لكي تدفعوني لمناصرة أحد الطرفين وتغيظوا الطرف الآخر.

"تقولون ان الشيوعيين اعتقلوا المؤمنين وأقفلوا الكنائس وداسوا الدين. أجل ان الأمور تبدو سطحياً على هذه الصورة. ولكن دعونا نلقي نظرة أكثر عمقاً. لنلتفت نحو الماضي: ان العديد منا نحن الروس فقدوا الايمان، وفقدوا اجلالهم لماضينا. فقدنا الكثير مما كان ثميناً وجيداً. ومن هو المذنب؟ السلطات؟ كلا، بل نحن أنفسنا مذنبون. اننا نحصد فقط ما زرعت أيدينا.

"لنستعد بالذاكرة الأمثلة السيئة التي قدمتها لنا طبقة المثقفين، وطبقة النبلاء، والتجار، والموظفون في دوائر الحكومة. وكنا نحن، في سلك الكهنوت، أسوأهم جميعاً.

"أصبح أبناء الكهنة ملحدين وثواراً، لمجرد مشاهدتهم الأكاذيب وغياب الايمان الحقيقي داخل عائلاتهم بشكل واضح. وفقدَ الكهنة حقهم الحقيقي بأن يكونوا رعاة لشعبهم وضميرهم، وذلك قبل الثورة بوقت طويل. أصبح الكهنوت مهنة. وكان العديد من الكهنة ملحدين ومدمنين على الكحول.

"ولم يكن من بين كل الأديار الموجودة على أرضنا، سوى خمسة أو ستة منارات حقيقية للمسيحية: دير بلعام ودير أوبتينا بوستين مع آبائه الروحيين العظماء[٦]، ودير ديفييفو، وكذلك دير ساروف. بينما تحوّل غيرها الى جماعات خالية تقريباً من الايمان.

"فماذا يمكن للشعب أن يتعلم من أديار كهذه؟ وأي مثال قدمته له؟

"نحن لم نربِ شعبنا بشكل صحيح. لم نعطه أسس الايمان القوي. تذكروا كل هذا! تذكروه! لهذا السبب نسيَنا الشعب بسرعة كبيرة، نحن كلنا، كهنته. نسوا بالأساس ايمانهم، واشتركوا في تدمير الكنائس. وكانوا أحياناً ايضاً يسبقون غيرهم في تدميرها.

"ولعلمي بكل هذا لا يمكنني أن أوجّه اصبع الاتهام الى سلطاتنا، لأن بذور عدم الايمان سقطت في التربة التي أعددناها بأنفسنا. ومن هنا تأتي البقية: معسكرنا، وعذاباتنا، وموت الناس الأبرياء بشكل جائر. ولكني سأقول لكم بكل صدق: مهما يجري في بلادي، فأنا ما زلت مواطناً فيها. وبصفتي كاهناً فاني أقول

[٦] حرفياً: "ستارتزي"، ومفردها "ستاريتز"، وهو شيخ يأتيه الناس لتلقي الارشاد والنصح. وقد اشتهر دير أوبتينا تقليدياً بآبائه الروحيين.

لأبنائي الروحيين على الدوام ان من واجبنا الدفاع عن أرض آبائنا ودعمها. وما يحدث الآن يجب أن ينتهي: انها غلطة فادحة سوف تُصحح عاجلاً أم آجلاً".

فقال أحدهم: "اذن ان كاهننا شيوعي. ينبغي أن يسحقوك بسبب موعظة كهنه. أنت تدّعي الورع ولكنك بالحقيقة مخادع. أنت تروِّج الدعاية للسلطة. لا شك أنك تعمل لحساب السلطات". ثم دَفع الأب أرساني بخشونة خارج حلقة المتحاورين.

واستمر النقاش حامياً أكثر من أي وقت آخر، ولكن الكثيرين بدأوا يغادرون المجموعة.

وبعد هذه الحادثة بدأ بعض السجناء يضايقون الأب أرساني. فتعرّض للضرب ليلاً مرات عدة. كما سكب أحدهم البول على كامل سريره، وسرق آخرون حصته من الطعام. وحاول الذين كانوا أصدقاءه من داخل جماعتنا، أن يؤمنوا له الحماية ضد الفريق الآخر لأننا عرفنا بأنهم أشخاص يائسون، ولذا فهم مستعدون للقيام بأي عمل كان.

وفي احدى الليالي جاء أحدهم ويدعى جورا غريغورنكو، وهو من كييف، فاقتاد الأب أرساني الى جيتلوفسكي، قائد الفلاسّوفيين. وكان جيتلوفسكي يتحادث مع رفقائه وهو مستلقٍ على سريره. فقال له:

– "حسناً أيها الكاهن، هل ستقف الى جانبنا أم الى جانب الشيوعيين؟ أنت تعمل لحساب سلطات المعسكر، فتستمع الى الاعترافات وتبلِّغ عنها. سوف نقتلك قريباً، ولكننا سنضربك الآن بانتظار ذلك، لكي نجعلك مثالاً للآخرين. هيا يا جورا. ولكن دعنا نستمع أولاً الى ما عند هذا الكاهن ليقوله".

كان الجميع يكرهون جورا: فهو قصير القامة، ممتلئ الجسم، عريض المنكبين، لا رقبة له. وعلى وجهه ندبة عريضة تشوِّهه وتجعله يبدو مبتسماً على الدوام. وهذا ما جعله بغيضاً. وتقول الاشاعة انه عمل في الجيش الالماني كمنفِّذ

لعقوبات الاعدام، رغم أنه أُرسل الى المعسكر فقط بسبب انتمائه الى جيش فلاسّوف.

نظر الأب أرساني الى جيتلوفسكي بهدوء وقال له: "وحده الله هو الذي يقرر مدة حياة البشر، لا أنت. لن أنضم الى فريقكم". ثم جلس على السرير المقابل لسرير جيتلوفسكي وتابع كلامه: "لا تحاول أن تخيفني، فأنا معتاد على الصراخ والضرب والتهديدات بالقتل. والله الذي أومن به بشكل غير مشروط، هو الذي حدد لكل واحد منا حصته من العذاب، ومدة حياتنا على هذه الأرض. واذا انتهت حياتي هنا، فهذا يعني أنها مشيئة الله، ولا تستطيع أنت ولا أنا أن نغيّر هذا. وسوف يكون علينا جميعاً أن نمثل أخيراً أمام دينونة الله حيث سنُحاسب عن كل ما فعلناه.

"أنا أومن بالله وأومن بالبشر، وسأحافظ على ايماني حتى رمقي الأخير. وأنت؟ أين هو الهك؟ أين ايمانك؟ أنت تكثر الكلام عن حماية الذين يتعرضون للاضطهاد، ولكنك حتى الآن لم تفعل شيئاً سوى الاضطهاد والقتل والاذلال. انظر الى يديك: انهما ملطختان بالدم!"

رفع جيتلوفسكي يديه وحدّق فيهما باستغراب. ثم نظر الى الأب أرساني وأخفض يديه الى حضنه وصرخ: "لا تحاول أن تقنعني بشيء!" وحملق من جديد بالأب أرساني.

فنادى غريغورنكو من السرير الأعلى قائلاً: "يا أركادي سيميونوفيتش! يبدو أن الكاهن يثرثر. لمَ لا ننهي له حياته في هذه اللحظة بالذات؟"

فأجاب جيتلوفسكي: "اخرس يا غريغورنكو! دعه يقول كل ما عنده قبل أن نقضي عليه. ان وظيفتهم تقوم على الكلام، تماماً كمروّجي الدعاية الشيوعيين".

وتابع الأب أرساني: "قال لي أحدهم يوماً انك كنت مؤمناً. ولكن بماذا تؤمن؟ باسم من عذبت وقتلت الناس؟ أذكر أني سمعتك تتكلم عن دوستويفسكي: قلت انه أحد كتّابك المفضلين، وروح الشعب الروسي. سأستشهد بكلمات الستاريتز زوسيماس من كتاب "الاخوة كارامازوف": هذا ما قاله للذين كانوا يحيطون به وهو على سرير الموت: "لا تكرهوا الملحدين ومعلمي الشر والماديين ولا حتى الأشرار، لأن بعضاً منهم طيبون فعلاً، وخصوصاً في أيامنا هذه. أحبّوا شعب الله. آمِنوا وارفعوا راية الايمان عالياً. عامِلوا الجميع بالخير وساعدوهم على حمل عذاباتهم". في حين أن حياتك أنت قد انقضت في الحقد والغضب. كل انسان يحظى بفرصة اعادة التفكير في حياته وتصحيحها، وأنت أيضاً".

واذ قال الأب أرساني هذا قام ومشى باتجاه سريره. الا أن غريغورنكو قفز عن سريره وقبض عليه بسرعة خاطفة، وبدأ يخنقه. وفي هذه اللحظة ظهر سجين طويل القامة قوي البنية، وشق طريقه من بين الأشخاص المجتمعين. كانوا يلقبونه في الثكنة "بالبحّار". والواقع أنه كان بحّاراً من أوديسا حُكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة في معسكرنا بسبب "قضايا سياسية". كان رجلاً لا مبالياً، مرحاً على الدوام، وصديقاً مخلصاً. ولسبب مجهول لم يفقد مظهره الدالّ على الصحة رغم أنه كان يعيش مثلنا كلنا.

دفع "البحّار" الرجال بعيداً وقبض على غريغورنكو ورفعه عن الأرض كأنه كيس، ثم رماه في وسط حشد أصدقاء جيتلوفسكي قائلاً:

– "يا هذا، لقد نسيت أنك لست هنا بين الألمان! أنت في معسكرنا". ثم استدار نحو جيتلوفسكي وقبض على ذراعه وقال له بلكنة خاصة بأهل أوديسا: "الأفضل لك يا عزيزي أن تهدّئ أصدقاءك. والا فسنقطع كل أعناقكم! جميعكم!"

وبدت الصدمة على جماعة جيتلوفسكي، في حين ظهرت مجموعة كبيرة من السجناء المستعدين لمناصرة الأب أرساني و"البحّار".

وتقدم "البحّار" من غريغورنكو وقال له: "لا تتجرأ على المسّ ببيتر أندريفيتش. اذا حصل له أي مكروه فسأقتلك بيديّ. ولكني قبل ذلك سأضربك لتتحول الى عجينة". ثم نادى الأب أرساني قائلاً: "هيا بنا يا بيتر أندريفيتش! اننا الآن نغيظهم فقط. احتراماتي لكم جميعاً. وأرجو أن أراكم مرة أخرى في ظروف أفضل".

وبعد حوالي ثلاثة أسابيع نُقل غريغورنكو الى ثكنة أخرى. ومنذ ذلك اليوم أصبح جيتلوفسكي هادئاً وأكثر لطافة في تعامله مع الآخرين. كما جرت مناقشات أخرى ولكن الأب أرساني لم يُجتذب الى أي منها. الا أن ما قاله حول مسؤوليتنا في الأمور التي حدثت بروسيا بقي حياً في الأذهان لمدة طويلة.

سازيكوف

مرت الأيام، ومع الوقت ازداد سازيكوف تعلقاً بالأب أرساني. كان يعتني به، ويخبره الكثير عن نفسه. كما أخبره عن سنوات طفولته: وُلد في عائلة مثقفة في روستوف، وتخرّج من معهد روستوف الصناعي وأصبح مهندساً. ثم التحق بالصدفة بمجموعة "أصدقاء"، وعلى أثر ذلك بدأت حياته كلها بالتقهقر. وسلك سازيكوف طريق الجريمة لمدة اثنتي عشرة سنة تقريباً. وفيما هو يسلك هذه الطريق، كان ينظر من وقت لآخر الى الوراء ويبدأ بالتساؤل، الا أنه لم يستطع أن يعود الى الطريق القويم على الاطلاق.

كان أخبر ادارة المعسكر وأصدقاءه رواية ما عن حياته، الا أنه كشف حياته الحقيقية للأب أرساني، ولم يُخفِ عنه شيئاً. لقد نال سرّ العماد ودعي باسم سيرافيم تيمناً بالقديس سيرافيم ساروفسكي. وكانت والدته مؤمنة، وبقيت تصطحبه الى الكنيسة حتى بلغ عامه الرابع عشر، وربّته على ايمانها. ثم توفيت وهو في الثانية والعشرين من العمر. وكان والده قد هجر العائلة منذ عهد بعيد، فوجد سيرافيم نفسه وكأنه عالق في دوامة. وكالعادة بدأ كل شيء بجرائم تافهة، ثم سرقات مسلحة، وحفلات سكر، ثم ضرب وقتل. دونما توقف. فما أن يبدأ المرء في هذا المجال حتى لا يعود يتوقف. واذا تنحى جانباً فان "أصدقاءه" سيعملون حتماً على اعادته اليهم.

نسي ما علمته اياه أمه: فالحياة الفعلية عالم مختلف تماماً. لم يفكر بالله على الاطلاق. أنّى لك أن تجده في عالم من الاجرام؟ وعدا ذلك كانت ثمة أمور أخرى عديدة تشغل البال.

وفي بعض الظروف تسنى له التعامل مع "اللحية الرمادية". وكان هذا رجلاً غريباً، شديد القسوة، ومع ذلك فقد كان يكشف النقاب أحياناً عن نفسه الحقيقية. كان ذا طبيعة معقدة جداً.

عمل سازيكوف في سرقات كبيرة سُلبت فيها مبالغ ضخمة من المال. كان يتوظف في شركات كبيرة ومخازن عظيمة أو في أي مكان آخر يجري فيه نقل مبالغ كبيرة من المال في أيام دفع الرواتب، أو حين تستلم الشركة عن طريق الشحن كمية ضخمة من السيولة. وفيما هو يشغل وظيفته، كان يدرس كيفية عمل المؤسسة. وحظي بمساعدة النساء لأنه كان طويل القامة، وسيماً ومتكلماً بارعاً، أنيق الملبس. وأتقن عمله لدرجة كبيرة حتى ان رؤساءه كانوا يثنون عليه. وكانت أوراق عمله منظمة بشكل مثالي على الدوام. تحلّى بمعرفة واسعة، وقد تلقى اختصاصه في الهندسة. صار لا غنى عنه في ادارة المخازن حيث اعتُبر أخصائياً لأنه تمتع أيضاً ببعض المعرفة في علم الاقتصاد. وهكذا عمل على تنفيذ عملياته: يدرس المكان، ويتبيّن طريقة سير الأمور فيه، ثم يسرق مبالغ ضخمة من المال.

وانتهت الأمور في أغلب الحالات بشكل جيد بالنسبة اليه، الا أنه أمضى فترات طويلة في السجون والمعسكرات. سعى حتى يُقبض عليه في عمليات سلب صغيرة، ولم يعلموا شيئاً البتة عن السرقات المسلحة العظيمة الشأن. ولكن أحد الأصدقاء وشى به تحت ضغط الاستجواب، وأخبر السلطات باشتراك سازيكوف في احدى العمليات الشديدة الضخامة. فحُكم عليه بالاعدام رمياً بالرصاص، وعوض ذلك تم ارساله ليموت في هذا المعسكر الخاص.

في أحد الأيام قال سازيكوف: "لقد التقيتُ بك أيها الأب أرساني وأذهلتني. ان كل ما تفعله هو من أجل الآخرين. وظننت في البدء أنك تفعل ذلك حتماً من أجل بعض الربح، أو أنك أبله. ثم راقبتك، وبدأتَ تذكرني بوالدتي. وعادت الى ذاكرتي أمور كثيرة أخبرتني بها عندما كنت صغيراً. لقد أذهلتني عندما

ناديتني باسم سيرافيم. وظننت أني أخبرتك باسمي خلال مرضي، ثم لاحظت أن هذا النوع من الأمور يحصل لك أيضاً مع الآخرين.

"عملتُ على مراقبتك بدقة حتى فهمت بوضوح أنك لا تعيش لذاتك بل للآخرين: باسم الهك. وبدأت أنظر الى الوراء، الى حياتي. وبدأت أدرك بأني عشت على الدوام من أجل اللحظة الحاضرة، دون أن أفكر بالمستقبل على الاطلاق. وأنا الآن أفكر: الى أين أوصلني ذلك؟ انني لا أملك أصدقاء حقيقيين، فقط بعض الرفاق. لا أحد يحتاج اليّ، وان فعلوا شيئاً ما من أجلي، فذلك فقط بداعي الخوف.

"قد لمستَ قلبي وغلبتني بالمثال الذي قدمته. وقررتُ التخلص من ماضيّ، ولكن ذلك صعب جداً: اذ عندما تبتعد عن أصدقائك، فانهم يجهزون عليك. بالمناسبة ان "اللحية الرمادية" يراقبك أنت أيضاً. ان المجرمين الذين يعيشون في المعسكرات هم ذوو نفوس يائسة، ولا سيما في المعسكرات الخاصة. انهم لا يهابون شيئاً لعلمهم بهلاكهم المحتوم. لقد أقمنا نوعاً من النظام في ثكنتنا، ولكن الأمر ليس سهلاً مع هذا الصنف من الناس الذين نتعامل معهم. أعلم بأني سأنهي حياتي هنا، لكني أريد أن أسير في طريقك. أريد أن أومن".

الاعتراف

في أحد الأيام دخل سازيكوف وبقي واقفاً، وبدا متحيراً في اختيار كلماته. وتكلم في أمور عدة بغير أهمية، ثم قال فجأة: "أيها الأب أرساني! لو سمحت لي، فاني أود أن تستمع الى اعترافي. يمكنني أن أتوقع اقتراب نهايتي. لن أغادر هذا المعسكر أبداً. وأنا أحمل عبئاً ثقيلاً من الخطايا، عبئاً ثقيلاً جداً".

من الصعب أن تتوفر للمرء في المعسكر ساعة أو ساعتان من الوقت: فهم يراقبونك على الدوام، وهو أحد الأسباب التي جعلت هذا المعسكر يدعى "خاصاً". ورغم ذلك استطاع سازيكوف أن يتدبر أمره للمجيء الى الأب أرساني ليدلي باعترافه. وكانا بمفردهما، وتلاوة الأسماء التالية بعد ساعتين تقريباً. ولو تم اكتشافهما جالسَين معاً على حدة، لكانا أُرسلا الى زنزانة العقاب لمدة خمسة أيام على الأقل. وكان كلاهما يعلمان ذلك.

جثا سيرافيم على ركبتيه وهو متأثر ومرتبك. فوضع الأب أرساني يده على رأس الرجل وبدأ يصلي. ومرت دقائق وهو مستغرق كلياً في الصلاة. ثم شرع سيرافيم بالكلام، في البداية بشكل غير مترابط وعلى نحو متقطع. كان متوتراً جداً. وبقي الأب أرساني صامتاً. لم يوجّه سازيكوف ولم يساعده، بل استمع اليه وصلى، عالماً بأن على المرء أن يجد نفسه بدون مساعدة. لقد استمع الى اعترافات العديد من الناس خلال وجوده في هذا المعسكر، الا أن الاستماع الى اعتراف مجرم مختبر و"ميئوس منه"، كان بالطبع حدثاً نادراً.

معظم المجرمين الذين جاءوا مع اعترافاتهم كانوا أناساً فقدوا كل شيء، ذوي نفوس كئيبة وفارغة هجرها منذ زمن الضمير والحب والحق، والايمان بأي شيء كان. كانوا محطمين، ملطخين بالدم والقسوة والفسق. لم يكن ماضيهم يمثل لهم أي فرح، بل يخيفهم. وقد عجزوا عن اقتلاع أنفسهم من مجموعة أترابهم،

فعاشوا في القسوة والغضب حتى آخر أيامهم، دون أمل بأي شيء في هذا المعسكر. وما كانوا يضعون نصب أعينهم سوى الموت، أو النجاح بالفرار.

كانت اعترافاتهم – عند حدوثها – متشابهة على الدوام. وفي حين أن سنوات طفولتهم كانت تختلف بين الواحد والآخر، كانت البقية كلها متشابهة: سرقة وقتل وعربدة وفسق، وفوق ذلك الخوف من الاعتقال. واختلف عمق السقطة بحسب الشخص. فأدرك بعضهم ما كانوا يعملون، لكنهم عجزوا عن التوقف، وازدادوا غرقاً باطراد. وكان غيرهم فخورين بما اقترفوه، وتابعوا العيش في العنف والدم معتبرين أن حياتهم صائبة وبطولية، وكانوا يتلذذون بايلام الآخرين. في حين أن غيرهم من المجرمين بدأوا بالتفكير في حياتهم عندما تقدموا في السن، الا أنهم عجزوا عن اتخاذ قرار بما سيفعلون. وقد رأى سيرافيم عمق سقطته وحاول ايقافها، لكنه لم يستطع أن يجد سبيلاً للخروج من عالم المجرمين.

وقد علم الأب أرساني هذا الأمر.

تكلم سازيكوف، الا أن اعترافه لم يتدفق. لقد فكر وهو في طريقه الى الاعتراف بما سوف يقوله، وكيف سيقوله، ولكنه نسي الآن كل ذلك، وكان مضطرباً. أراد أن يكون صادقاً بالكلية، الا أنه عجز عن الكلام من روحه. وفقد اعترافه الصلة بروحه، وتحوّل الى قصة. وقد رأى الأب أرساني هذا وفهمه، لكنه أراد أن يربح سيرافيم المعركة بنفسه وبمجهوده الشخصي. كان عليه أن يربح المعركة ضد ماضيه، فيفتح بذلك الطريق للحاضر.

تكلم سيرافيم بعصبية واضطراب، وهو ينشج دون تحفظ. ورغم ذلك فان اعترافه لم يتدفق من روحه: فقد كانت تجري معركة هائلة بين ماضيه والحاضر. وأحسّ الأب أرساني أن سيرافيم يحتاج للمساعدة، وأنه يحتاج الى تلك القشة التي يُضرب بها المثل، والتي رغم كونها دقيقة وهشة، فهي قادرة على انقاذ المشرف على الغرق، اذا تمسك بها. وحمل الأب أرساني هذه القشة الى سيرافيم بقوله:

"تذكّر كيف كانت تلك المرأة ترجوك أن تشفق عليها ولم تفعل. وتذكر كم خجلت من نفسك فيما بعد".

أدرك سيرافيم كما في ومضة البرق أن الأب أرساني فهم وعرف كل شيء عنه، فلم يضطر لاختيار كلماته ليكشف نفسه. كان عليه فقط ألا يخاف من فتح روحه، فالأب أرساني سوف يرى ويفهم ويزن كل شيء. وسيقول بعد ذلك ان كان بالامكان أن يغفر لسيرافيم.

أنهى سيرافيم اعترافه مسلّماً كامل روحه ونفسه الحقيقية بين يديّ الأب أرساني. وبقي جاثياً، ووجهه مبلل بالدموع. لأول مرة في حياته يفتح قلبه بالكلية. لقد كشف حياته بكاملها وانتظر الحكم، العقاب، الملامة.

صلى الأب أرساني وهو منحنٍ فوق سيرافيم. ولم يستطع أن يجد الكلمات البسيطة التي احتاج اليها ليطهِّر، ويعطي الضوء والارشاد لهذا الرجل في بداية حياته الجديدة.

كان الاعتراف صادقاً جداً، ووعيه لخطيئته عظيماً جداً، ولكنه قد اقترف فظاعات عديدة، وأدت جرائمه الى تعذيب أناس كثيرين، كما أدت الى بؤس شديد. كل ذلك كان مختلطاً ببعضه، وكان على الأب أرساني أن يقيس ويزن ويفصل الأمور عن بعضها البعض، ويقدِّر وزن كل ذلك.

ان أرساني الكاهن الذي يستطيع أن يغفر ويحلّ هذا الخاطئ باسم الله هو الآن في صراع مع أرساني الرجل الذي عجز، ككائن بشري، عن قبول وادراك ومغفرة كل ما فعله سيرافيم. "يا رب، يا الهي! أعطني القوة لأدرك مشيئتك. ساعدني حتى أُظهر الطريق لسيرافيم، ساعده لكي يجد نفسه. يا والدة الاله! ساعدينا كلينا نحن الخاطئَين. ساعدنا يا رب".

وفيما هو يصلي، أدرك أن عليه ألا يقول شيئاً، عليه ألا يزن أو يقرر شيئاً. ان اعتراف سيرافيم – هذا الرجل الذي فقد روابطه بالله – كان عميقاً جداً

وصادقاً، فعرّى روحه ودلّ على أن هذا الرجل لا يتحرك باتجاه الله وحسب، بل انه قد وجده أيضاً، وسوف يسير باتجاهه من الآن فصاعداً. وسوف يجيب سيرافيم الله مباشرة عن كل أعماله الشريرة في يوم الدينونة الأخير، ويجيب نفسه كذلك في ضميره.

وقف الأب أرساني وشدّ رأس سيرافيم الى صدره قائلاً: "أنا الأب أرساني، الغير المستحق، بالسلطان المعطى لي [من الله]، أغفر لك وأحلّك من كل خطاياك يا سيرافيم. عامِل الناس بالصلاح وسوف يغفر لك الله الكثير من خطاياك. اذهب وعِش بسلام، وسوف يدلّك الله على الطريق".

وبعد أن أنهى الأب أرساني استماعه لاعتراف سيرافيم وعانقه، قال وكأنه يتنبأ بالمستقبل: "لن أتركك طوال حياتك يا سيرافيم، والله سيعيننا".

وبعد تلك الحادثة امتدت روابط خفية بين الأب أرساني وسيرافيم سازيكوف ووحدتهما الى الأبد.

لن أتركك

قال سازيكوف خلال احدى محادثاتهما: "اني أرى أيها الأب أرساني أنك تصلي عن ظهر قلب، لأنك لا تملك أي كتاب صلاة. ونحن علمنا أن باستطاعتنا أن نحضر لك بعض الكتب. لقد تكلم "اللحية الرمادية" مع رفاقه فقالوا ان هذا الأمر ممكن". فأجاب الأب أرساني:

- "اني أطلب اليك باسم الله ألا تسرق كتباً من أحد، فان وزر الخطيئة سيقع على روحي.

- "بالطبع لا أيها الأب أرساني، فماذا تظن؟ سنقوم بكل شيء من دون اذية أحد. هناك مكان تحتفظ فيه الادارة بكل ما يُصادَر من السجناء، السجناء الجدد، فور وصولهم. وقد علمنا من مصادر موثوقة أن فيه بعض الكتب. وهذه الكتب موجودة في ذلك المكان منذ عهد بعيد. لقد قرر الرجال أن يسرقوا المخبأ بكامله، وأنا قلت لهم ان عليهم أن يأخذوا الكتب الدينية أيضاً. وعيّنت لهم الكتب التي يجلبونها".

وقلق الأب أرساني: كيف عليه أن يقبل بهذا الأمر؟ وصلى خلال الليل. ثم اذ غلبه نعاس خفيف عند انبلاج الفجر، رأى شيخاً راهباً يدخل ويباركه قائلاً: "لا تخف يا أرساني! خذ ما تحتاج اليه، وصلِّ لألكسيوس متروبوليت موسكو. الله لن يتخلى عنك". ثم بارك الأب أرساني من جديد وخرج بهدوء وجلال.

وبعد حوالي يومين حدث اضطراب عظيم في الثكنة تم في خلاله تفتيش الثكنة بكاملها. واستُدعي الرجال للاستجواب في الدائرة الخاصة، اذ تبين أن مخبأ الأغراض المصادَرة قد تعرض للسرقة من قبل المجرمين.

ومرت عشرة أيام، ثم أعطى سازيكوف الأب أرساني كتابين صغيرين: الانجيل، وكتاب الخدم الطقسية. فتلقاهما الأب أرساني باحترام، وتوجه الى سريره وفتح الانجيل، وارتجف لرحمة الله التي لا تُصدَّق.

كان غلاف الكتاب من الداخل مطعّماً بقطعة صغيرة من الحرير مربع يبلغ ضلعه حوالي ٥ سنتيمترات - قديمة ومصفرّة اللون. وقد كتبت تحتها هذه العبارة: أنديمنيسي[٧]، ذخيرة من القديس ألكسيوس، متروبوليت موسكو، ١٨٨٣". وقد نُقشت بقربها أيقونة صغيرة فضية، اهليجية الشكل بحجم قطعة ٢٠ كوبيك. فسجد الأب أرساني أمام غرض مقدس كهذا، وشكر الله قائلاً: "يا رب، أنا أحيا برحمتك! وعظيمة هي أعمالك". وبكى بفرح.

- "أيها الأب أرساني، كلما انتهيت من الصلاة مستعيناً بهذين الكتابين، سلّمهما اليّ أو الى "اللحية الرمادية"، فلن يعثر عليهما أحد بحوزتنا، لكنهم سيعثرون عليهما في الحال اذا بقيا معك، فيأخذونهما منك. لا تقلق، فلن ندنّس أي شيء، وسنحافظ على كل شيء في مأمن".

بعد ذلك مرت على الأب أرساني أيام فرح عظيم. كان ينهي عمله، وفي الليل صار باستطاعته أن يقرأ الانجيل على ضوء شمعة مرتجف، ويقوم بالخدم المعتادة. وعندما يحين وقت النهوض من النوم، كان يسلّم الكتابين لسازيكوف.

ومرّ شهران تقريباً، وتلاشت عمليات التفتيش. واستطاع الأب أرساني أن يحتفظ بالانجيل أحياناً خلال النهار، ولكنه كان يخفيه على الدوام خلف لوح معلق في الجدار، وهو مكان سري صنعه سازيكوف لهذه الغاية. وأحس بأنه مكان أمين، حتى خلال عمليات التفتيش النهارية والليلية. وبعد أن أنهى الأب أرساني عمله مرة في الثكنة في حين كان جميع الباقين لا يزالون في عملهم، أخرج الانجيل وبدأ يقرأ. وما أن بدأ القراءة حتى فتح الباب فجأة واندفعت منه فرقة من

[٧] الأنديمنيسي: أيقونة مرسومة على قطعة من الحرير خيطت في وسطها ذخائر قديس. وعندما يبتغي الكاهن اقامة القداس الالهي، عليه أن يملك بالضرورة أنديمنيسي على المائدة في الهيكل.

الحراس لاجراء تفتيش: الملازم الأول وثلاثة جنود والمراقب ("الرجل العادل"). ولم يدرِ الأب أرساني ما العمل، فدسّ الانجيل في الجيب الداخلي لسترته القطنية المرقّعة، ووقف يصلي.

قلب الجنود كل ما في الثكنة رأساً على عقب، ونزعوا كل ألواح الأرضية التي اهتزت [عند تحريكها] ولو قليلاً جداً. ونزعوا الألواح التي تغطي الجدران، وأخرجوا جميع مقتنيات السجناء من أكياسهم وهم يهزونها. ثم وصلوا الى الأب أرساني. فأعطى الملازم الأول من الدائرة الخاصة الأمر "للرجل العادل" قائلاً: "يا رفيق! أنت فتش الكاهن"، وذهب بعيداً برفقة جنوده.

بدأ "الرجل العادل" بتفتيش الأب أرساني. وأحسّ حالاً بالانجيل، فوضع يده عليه لوقت قصير، ثم سحبه من جيب الأب أرساني ووضعه في جيبه الخاص. وتابع تفتيش الأب أرساني. وعندما انتهى، بلّغ الملازم الأول النتيجة قائلاً:

- "لم أجد شيئاً".

- "لقد فتشته بسرعة كبيرة! اخلع ثيابك أيها الكاهن! سوف نفتشك على طريقتنا".

فخلع الأب أرساني ثيابه كلها، ودقق الجنود بكل ملابسه. دققوا بكل الدرزات، ورموا أرضاً كل ما كان في جيوبه، ولم يجدوا شيئاً بطبيعة الحال. فحنق الملازم الأول حنقاً شديداً، وشتم الأب أرساني بفظاظة ثم أنصرف.

أرتدى الأب أرساني ثيابه. وصلى، وبكى عرفاناً بالجميل لهذا الفرح الهائل: ايمان رجل من اخوته. ثم تناول جميع أغراضه، وخاط جميع الدرزات التي تعرّضت للتمزيق، وبدأ بتنظيف الثكنة على أثر التفتيش.

وبعد مرور ساعة ونصف من الوقت، دخل "الرجل العادل" وسأل الأب أرساني: "هل يوجد أحد في الثكنة؟".

فأجاب الأب أرساني: "جميعهم في العمل".

فحص "الرجل العادل" الثكنة بكاملها، وحتى انه نظر تحت الاسرّة. وفجأة أعاد الكتاب الى الأب أرساني وقال له: "هذا الانجيل هو أحد الكتب المسروقة، أليس كذلك؟".

فبقي الأب أرساني صامتاً.

- "أجبني، من أين حصلت عليه؟".

فأجاب الأب أرساني بالقول: "انه أحد الكتب التي سُرقت".

- "هل جننت؟ عليك أن تفكر! اذا أخذت انجيلاً فيجدر بك ان تخفيه. ولو عثر عليه الملازم الأول لكان انهال عليك بالضرب حتى الموت". ثم همس: "أنا آسف يا أبتِ! فالامر عسير جداً هنا، في المعسكر. أنه عسير ليس فقط للسجناء، بل لنا أيضاً، الذين تبقّى لهم شيء من الضمير. أنا أعلم أيها الأب أرساني، أعلم كل شيء! أعلم كم هي قاسية الحياة هنا لكم جميعاً. ولكن أرجوك أن تتذكر بأننا مجبرون على العمل في هذه الحفرة من الجحيم. وليس هذا لأننا جبناء أو ضعفاء. سوف أساعدك، وحتى اني سأحاول أن أرسلك إلى مكان آخر حيث الحياة أسهل بعض الشيء. ولكن كل ذلك يتطلب وقتاً. عليّ أن أقوم بما أستطيع القيام به في الخفية، وسأكون أمام الآخرين قاسياً بشكل خاص. عليك أن تغفر لي! أرجوك أن تسامحني!".

وعندما قال "الرجل العادل" هذا خرج دون أن يلتفت الى الوراء.

تفرّس الأب أرساني بالمراقب عند خروجه، وأحس بالخجل لأنه لم يثق برحمة الله وبطرقه غير المُدرَكة. وفهم مرة جديدة الى أي مدى يمكن أن تكون النفس البشرية متنوعة وغنية، وأن بوسع المرء أن يجد قبس الله ومحبته في كل نفس دون استثناء. وبدأ يصلي: "ارحمني يا الله كعظيم رحمتك وبحسب كثرة رأفتك.

أيها الرب، يا ربي، عظيم أنت وممجَّد في أعمالك. هؤلاء هم المعاونون الذين أخبرَتني عنهم والدتك. هل كان باستطاعتي أن أعرف بأن المراقب يمكن أن يكون الشخص الذي أرسلْته لكي يساعدني؟ هل كان باستطاعتي أن أعرف؟"

واذ تذكر الأب أرساني أن اسم "الرجل العادل" أندرو، بدأ يصلي من أجله. وفي أثناء صلاته رأى حياة أندرو بكاملها، وفهم أي نوع من الأشخاص هو: انه رجل طيب وكريم.

رحلة متعبة

كانت معرفة الأب أرساني بأفكار الآخرين، أو بما فعلوه، تذهل أحياناً الناس الذين يأتون اليه، وحتى انها كانت تخيفهم. أما هو نفسه فلم يستطع أن يفهم هذا الأمر، ولم يعتبر أن الله منحه معرفة عميقة خاصة للنفس البشرية. وأنا كنت دائماً بقرب الأب أرساني، ورأيت أنه اعتقد بصدق بأن معرفة النفس أمر طبيعي جداً عند الكاهن. كان مقتنعاً أنه عند معرفته بتفكير شخص ما، لم يكن يقرأ أفكاره، بل أن الشخص نفسه قد شاركه في أفكاره. كان له تأثير هائل ومدهش في الأشخاص الذين يحتكون به. والذين كانوا معه في أكثر الأوقات، ورأوا طريقة حياته، أصيبوا بالذهول لما منحه الله من عمق البصيرة وقوتها. وروى لي آفسنكوف حادثتين حرّكتا مشاعره بالعمق، وقد شهدهما حين كان في بداية ايمانه، بتأثير من الاب أرساني:

"في احدى الامسيات، ومباشرة قبل تلاوة الاسماء الاخيرة، أُلقيت في المعسكر مجموعة ضخمة من السجناء الجدد. وشرعت الادارة بفرزهم في الثكنات لشغل الاسرّة الفارغة".

وأخبرني آفسنكوف: "خُصصت ثكنتنا بعدد يناهز ٢٥ شخصاً تقريباً. وكان بامكانك أن ترى أن رحلتهم كانت مضنية جداً. تمّ قذف المساجين الى داخل الثكنة. وبدوا كأشباح اكثر منهم كأناس: فبالكاد يستطيعون الوقوف، وحياتهم تتسرّب خارج اجسادهم. في الخارج كان الطقس مثلجاً، ولم يكونوا قد تناولوا الطعام منذ يومين، ولم يناموا منذ ثلاث ليال.

"كان معظمهم من المثقفين، من "أعداء الشعب": مهندسين، وعلماء زراعيين، وأطباء، الى جانب عدد قليل من المجرمين.

"ووصلوا مباشرة قبل تلاوة الاسماء الاخيرة، بعد وجبة الطعام المسائية المكوَّنة من الخبز والشوربا الهزيلة. وكانت الادارة قد انصرفت أو في طور الاستعداد للانصراف في ذلك اليوم.

"وفكّر الحراس في البداية أن عليهم اعطاء الواصلين الجدد بعض الخبز وبعض الشوربا، ثم قرّ رأيهم على أن الامر مزعج جداً. وفكروا: "ان علينا في هذه الحال أن نترك النار مشتعلة، وأن نسخّن الشوربا، نفتح غرف التخزين، نقطع الخبز، ثم نكتب التقارير عن الكمية والنوعية التي أُعطيت"....

"لا شك أن الامر كان مزعجاً، كثير الازعاج. وتقرر أن بامكان الرجال الانتظار الى الغد، وعندها سوف يتوفر لهم الوقت الكافي لاطعامهم. وأبدى قائد المعسكر رأيه بالقول: "في جميع الاحوال هؤلاء ليسوا اسياداً لكي نخدمهم، انهم أعداء للشعب. وسوف يبقون على قيد الحياة". كان هذا القرار. لقد عرفوا بالطبع أن العديد منهم سيموتون خلال تلك الليلة، وسيكون عليهم أن يبلغوا عن الوفيات في غضون أيام قليلة، فلا تقع عليهم الملامة لحدوث وفيات كثيرة عند الوصول. وعندها تقع مسؤولية حالات الوفاة على عاتق المعسكر.

"وهكذا دخل السجناء الجدد الى الثكنات. والجدد - أينما حلّوا - لا يلقون الترحيب على الاطلاق. ويبدأ كل ذلك في المدرسة حين يسخر الاولاد من التلاميذ الجدد، ثم في العمل، حيث يهزأ الناس بالموظفين الجدد، وكذلك الامر ويزيد في المعسكر. وهكذا نحن، فقد ألقينا مجرد نظرة على هؤلاء - حتى انهم لم يكونوا يبدون كأناس، بل كبقايا بشر، وما كان باستطاعتهم الوقوف دون مساعدة. ولم نفهم كيف تمكنوا من السير للدخول الى المعسكر: كانوا يستندون الى الجدران، أو يتمسكون بالأسرّة.

"فقال لهم السجين المسؤول عن كامل الثكنة: "اذهبوا وتمددوا على الأسرّة الفارغة". وعندها علم الجميع تماماً أن الاسرّة الفارغة هي الاكثر بُعداً عن

المواقد، حيث يسيطر البرد، ولا يمكن للسجناء الجدد أن يحظوا بالدفء على الاطلاق.

"كان نزلاء الثكنة الأكثر قدماً يتحضرون ليأووا الى أسرّتهم، وكان بعضهم مستلقين عليها، بينما بقي غيرهم يلعبون الورق. وتفرّس المجرمون بالواصلين حديثاً فوجدوا أن ليس ثمة ما يأخذونه منهم، فنسوا أمرهم.

"كان الاب أرساني مستلقياً على سريره يصلي. وحين دخل الرجال نهض، ونظر اليهم نظرة فاحصة، ثم ذهب الى زعماء المجرمين. فقد كانت كلمتهم هي القانون عند المجرمين، كما عند السياسيين. واذا لم تُصغِ الى ما يقوله زعماء المجرمين هؤلاء، فقد تتعرض لأي حادث ممكن.

"ذهب الأب أرساني اذن الى هؤلاء الزعماء، "الحالات الخطيرة"! وقال لهم: "يجب علينا أن نساعد الواصلين الجدد. انهم يعانون من البرد والجوع، وهم منهكون. اذا لم نساعدهم فسيموت الكثيرون منهم خلال الليل".

"كان هؤلاء "الحالات الخطيرة" يعرفون الاب أرساني ويحترمونه. لقد عاشوا معه سنوات عدة وأحبّوه على طريقتهم. أما الآن فقد بصق أحد المجرمين، وشتم وقال: "دعهم يقضون. فنحن أيضاً سنموت عما قريب. وانا لست على استعداد لمشاركة أحد في حصتي. هل فهمت يا كاهن؟".

"وبقي الآخرون صامتين. فمن يريد بالحقيقة أن يعطي شيئاً مما يملكه، وخصوصاً في هذا المكان حيث القانون هو أن تساعد أصدقاءك فقط؟ نظر الجميع الى الاب أرساني والى "الحالات الخطيرة" متسائلين: كيف سينتهي كل هذا؟ في حين وقف الواصلون حديثاً في مجموعة متراصة وهم ينصتون.

"نظر الاب أرساني بهدوء الى زعماء المجرمين، ورسم علامة الصليب وقال: "حسناً سوف نضع القادمين حديثاً على الاسرّة القريبة من المواقد، ونحن سنأخذ الاسرّة الأكثر برودة. ومهما كان بحوزة كلٍ منا من الطعام، فليأتِ به الى

ههنا ويضعه على الطاولة. سوف نسخن بعض الماء: فالمواقد ما زالت حامية. لنقم بكل هذا بسرعة".

"وقف "الحالات الخطيرة" دون كلمة، وبدأوا يحرّكون الرجال. وراح كل واحد منهم يحضر ما تبقى عنده من الطعام ويضعه على الطاولة. وبطبيعة الحال فقد حذا حذوهم باقي المقيمين في الثكنة. وحاول بعض المجرمين أن يخفوا جزءاً من خبزهم، ولكن الآخرين ضربوهم لدرجة أن الحادثة بقيت في أذهانهم لوقت طويل.

"وهكذا كسرة فوق كسرة جمعوا من الطعام ما يكفي لاطعام الرجال الخمسة والعشرين الجدد في الثكنة. سُخن الماء فوق المواقد في أكواب من القصدير. وقسّم الاب أرساني ما تمّ جمعه، ووزعه على الواصلين الجدد. كما أعطاهم السجناء الأسرّة الدافئة. وجميعهم بقوا على قيد الحياة، ولكنك لا تستطيع أن تقول ذلك عن المساكين الذين تمّ ارسالهم الى الثكنات الاخرى. وبعد أربعة أيام تقريباً أصبح الرجال الجدد أقوياء لدرجة أنهم أُرسلوا الى العمل".

"كنت مصعوقاً لهدوء الاب أرساني وتركيزه عندما قال: "لنقم بكل ذلك بسرعة! " قال ذلك لأشخاص لا يرحمون احداً. قال ذلك ونفذوه، وكأنه كان أمراً.

وقال الكسندر آفسنكوف: "كثيراً ما تساءلت: من أين جاءت قوة الاب أرساني؟ هل كان قادراً على مناشدة ضمائر الناس، أم أنه أمرهم فقط باسم الله للقيام بواجبهم الذي لا مفر منه؟" ثم قرّ رأي آفسنكوف على أن قوة الاب أرساني كانت في أنه التمس كل ذلك باسم الله.

"اني آمرك بالتوقف!"

وهذه حادثة أخرى رواها آفسنكوف، ولعلها تركت فيه أثراً أقوى من الأولى:

"قبل اغلاق الثكنة كانت تجري على الدوام تلاوة الأسماء، فيُساق جميع السجناء الى الخارج حيث يجب أن يقفوا في صف حتى تُتلى الأسماء. وقد تكون الحرارة أقل من درجة واحدة تحت الصفر. وقد تمطر السماء شلالات، وقد ينقضّ البعوض على الجميع... ولكن لا شيء يمكن أن يغيّر القاعدة: على السجناء أن يخرجوا ليتم تعدادهم.

"هذه المرة ركض الجميع الى الخارج كالعادة، ووقفوا في الصف. كان الطقس بارداً، الا أنه كان عليهم اجراء التعداد للمرة الثانية: اذ كان أحد الرجال مفقوداً. بدأ الرجال يتجمّدون، والادارة تحتدم غيظاً، ثم شرعوا بالعدّ للمرة الثالثة. وفجأة اندفع احد الرجال خارجاً من الثكنة: كان يبلغ حوالي الخامسة والعشرين من العمر، وحاول أن يجد مكانه في الصف. ولكن لم يتسنَّ له الوقت ليحتل مكانه، فقد بدأ المراقبون يرفسونه بجزماتهم. وحاول الشاب أن يبرر نفسه، الا أنهم راحوا ينهالون عليه بالضرب دون رحمة. ونظر الجميع الى المشهد بصمت. كانت وجوه الجميع حالكة وغاضبة، ولكن احداً لم يتجرأ على قول كلمة واحدة.

"كنت واقفاً مع الأب أرساني، وفجأة رأيته يخطو خطوة خارج الصف، ويرسم علامة الصليب مباركاً المراقب الذي يضرب الشاب. ثم قال بصوت مفهوم: "اني آمرك باسم الله أن تتوقف! توقف عن هذا!". وبعد أن بارك الجميع برسم علامة صليب كبيرة، عاد الى مكانه في الصف. وفي الحال توقف المراقب عن الضرب وانشغل باعادة عدّ السجناء. وسار الشاب مترنحاً واحتل مكانه في الصف.

"وفيما بعد سألت الرجل الذي كان يقف الى جانبي في الصف: "هل رأيت ما فعل بيتر أندريفيتش (الأب أرساني) عندما كانوا يضربون الشاب؟".

"فأجابني: "ماذا فعل؟ كان يقف في مكانه جامداً كالصنم".

"لقد أثرت فيّ كل هذه الاحداث أشد التأثير، اذ رأيت القوة التي منحها الله لهذا الرجل: الأب أرساني. وتساءلت: هل يمكن أن يكون هذا تنويماً مغناطيسياً؟ فأتاني الجواب: "لا يمكن أن يكون ذلك بالطبع تنويماً مغناطيسياً. فالأب أرساني لم يقم بكل هذا لنفسه: بل من أجل الآخرين وحسب".

يمكنك أن ترى في المعسكر أنواعاً مختلفة جداً من الناس. ومنهم أناس متعصبون بشكل جنوني. ففي قناعتهم الخاصة كانوا صادقين الى أقصى الحدود، وبنتيجة ذلك بدوا لجميع الباقين وكأنهم خراف ضالة. كانوا يخافون من اهمال حتى التفاصيل التافهة في عقيدتهم. وكثيراً ما ساعد هؤلاء المتعصبون الناس، الا أنهم تركوا الانطباع بأنهم يفعلون ذلك من أجل خلاصهم الشخصي وليس من أجل الآخرين.

كان الأب أرساني محبوباً. وقد حاول بعض الناس أن يقنعوه بأن ايمانه خاطئ، وهذا ما كان الأب أرساني يردّ عليه دائماً بالقول: "هل أحاول أن أقنعك بأن ايمانك خاطئ؟ آمن بما تمليه عليك نفسك، وعندها ستجد الحقيقة. تذكر كلمات الرسول بولس: احملوا بعضكم أثقال بعض وأتمّوا بهذا ناموس المسيح . بالخير فقط يمكنك أن تتغلب على الشر".

وكان هذا هو شعوري على الدوام: أجل ان كونه في الواقع يحمل أثقال الآخرين قد ساعده في حمل عذابه الشخصي، واجتذب الناس اليه، وأعطاه قوة الروح التي أجبرت الآخرين على تنفيذ ما أمر به باسم الله. والحالتان اللتان أخبرتهما لتوّي هما المثال على هذا.

بهجة!

عاش المعسكر حياته النظامية القاسية. مات أشخاص، وحضر غيرهم ليحلوا محلهم، وليموتوا بدورهم. كانوا جميعهم بانتظار أن تحين ساعتهم، اذ لم يُخلَ سبيل أحد تقريباً من هذا المعسكر الخاص. في حالات قليلة أخلي سبيل بعض العلماء المشهورين جداً، أو أشخاص كانوا ذوي نفوذ في الحزب الشيوعي وعملوا في تنظيمات فدرالية. ويُقال ان في السنوات الثلاث الاخيرة أطلق سراح حوالي عشرة أشخاص بينهم واحد مات بنوبة قلبية عندما سمع نبأ الافراج عنه.

وفي العام ١٩٥٢ استُدعي الاب أرساني الى الدائرة الخاصة للاستجواب. فالتقى أولاً الملازم الاول ثم الرائد. وقد استقبله الرائد ببشاشة قائلاً: "صباح الخير أيها الأب أرساني، صباح الخير يا بيتر أندريفيتش! عندي لك أخبار سارّة: سوف يُطلق سراح ألكسندر بافلوفيتش آفسنكوف، لقد تدبر أصدقاؤه هذا الأمر بصعوبة بالغة. وسأستدعيه في الغد لازف اليه النبأ السار. ولكني أخشى أن يصدمه هذا الخبر، فان قلبه ضعيف. فأرجوك أن تبلغه الأمر بطريقة لطيفة. سأقول له هذا في حضور الضابط المسؤول عن المعسكر، أي اني سأكون قاسياً، وليس عليه أن يقلق لهذا الأمر. لن يُطلق سراحه فحسب، بل سيُعاد الى مركزه السابق في الحزب: ان ستالين نفسه قد أمر بذلك.

"أما بالنسبة اليك، فالامور تبدو سيئة. أنت رجل كنيسة. وعلى ملفك ختم خاص: للابقاء في المعسكر الى ما لا نهاية — حتى الموت . اني أود أن أساعدَك ولكني عاجز عن ذلك. والذين مثلك لا يتم اطلاق سراحهم من معسكرنا هذا الا بأمر من بيريا[٨] أو من هو في مستواه. لا يمكنني أن أفعل شيئاً من

[٨] بيريا: رجل عنيف كان رئيساً للبوليس السري على عهد ستالين.

أجل قضيتك. واذا أطلقت سراحك من دون موافقتهم فسوف يبلّغ أحدهم ذلك في الحال، وسيتم ارسالي الى معسكر كسجين. أما اذا تغيرت الامور فسأبذل كل ما بوسعي للتوصل الى اخلاء سبيلك. والآن سيكون بمقدور آفسنكوف أن يقدم المساعدة هو الآخر.

"وأنا أيضاً سأُنقل عائداً الى موسكو، لقد "غفروا" لي، اذا جاز القول. فاستعدت رتبة "عماد"، وسوف يعيدونني للعمل في جهاز الاستخبارات.

"لقد أحببت بلادي ودافعت عنها طوال حياتي. وخلال الحرب الاخيرة عملت في مجال استكشاف مواقع العدو، ونجحت في انقاذ الآلاف من الموت. ومن ثم عرض لي الوقوف في طريق احدهم، فوشوا بي الى ستالين. وقرروا التخلص مني ورميي بالرصاص بحجة أني أقمت "اتصالات بالألمان"...

"أمر ستالين بالتدقيق في ملفي، ثم أرسلني الى هذا المعسكر. وعندما وصلت انتابني الرعب: فأنا عاجز عن مساعدة أي كان وبأي طريقة كانت، لأنهم يراقبون كل خطوة من خطواتي. وما كنت لأتخيل يوماً بأني سأرى الامور التي أراها: أناس يدمرون أناساً آخرين. ولست أملك السلطة للتصرف في أي شأن كان. مرة وضعت حداً لعمل ظالم فأُرسل حالاً تقرير عني يفيد بأني "أعيق العدالة"! الامر مخيف. لمَ يحدث كل هذا؟ لا سبيل الى فهم السبب الآن. قل لي يا بيتر أندريفيتش، مَن هم الأشخاص الذين عليّ أن أساعدهم قبل رحيلي. قل لي وأنا سأنفذ. أنا أسف فقط لأني عاجز عن مساعدتك".

نظر الأب أرساني الى الرائد متفكراً ثم قال: "أشكرك، أشكرك. أعلم بأنك عاجز عن مساعدتي. عندما يحين الوقت فان الله سيساعدني. في هذه الاثناء ساعد سازيكوف على مغادرة المعسكر. ساعد الطالب ألكسي نيكونوف، والطبيب دنيزوف، والمجرم السابق تريفونوف. إعمل على نقلهم الى معسكر عادي حيث ستكون الحياة أسهل لهم، حيث يمكن أن يتلقوا المساعدة من الخارج".

لم يذكر الاب أرساني اسم "اللحية الرمادية". ونظر الى الرائد مضيفاً: "سيرجي بتروفيتش! حين تصل الى موسكو، ابذل كل جهدك حتى لا تعمل لحساب "أمن الدولة" بعد اليوم. أطلب نقلك والا فسوف تحترق. لقد تحوّلتَ الى انسان جديد بعدما رأيت ما يحدث هنا. خلّص نفسك".

نظر أبروسيموف الى الرجل العجوز وفكر بأنه هو نفسه غير متأكد من حياته في المستقبل. ولكن الارجح أن الأب أرساني يعرف الشيء الكثير عن ماضيه وحياته المستقبلية. وعادت الى ذهنه ذكريات طفولته. أجل ان رجلاً كالأب أرساني هو مسيحي حقيقي. لقد حدث له في الماضي أن قرأ عن أشخاص مثله.

وسيطر على سيرجي بتروفيتش شعور بالحزن الشديد. فوقف واقترب من الأب أرساني وقال بكثير من التأثر: "لست ادري ان كنت سأراكَ من جديد، الا أنك تركت فيّ أثراً لا يُمحى. اني أرى الآن الامور بطريقة مختلفة. اني أثق بك. وأثق بفيرا دانيلوفنا، وبزوجتي. اني أفهم كل شيء. وأعرف بأنك تصلي دون انقطاع. لا تنسني يا بيتر اندريفيتش - ايها الأب أرساني، لا تنسني!".

نهض الأب أرساني عن كرسيه، واقترب من أبروسيموف وعانقه قائلاً: "ليحفظك الله يا سيرجي بيتروفيتش! لا تنسَ الناس الآخرين. ساعدهم، افعل الصلاح أينما ذهبت. ساعد الناس. وسوف نلتقي نحن الاثنين من جديد".

وانحنى بشدة ثم انصرف. وفي طريقة خروجه أحس أبروسيموف بأنه لم يكن هو الذي استدعى الأب أرساني للتكلم معه، بل أن الاب أرساني قد دعاه.

ولم ينسَ أبروسيموف أبداً اجتماعاته بالأب أرساني. عندما رآه للمرة الاولى، أبصر رجلاً عجوزاً في سترة قطنية مرقعة ومبطنة، رجلاً منهكاً، متعباً. وظن بأن هذا الرجل العجوز منسحق وعديم الجدوى. ولكن عندما نظر في عينيه أدرك أن الأب أرساني ممتلئ بالحياة والايمان، وبحبٍ للناس لا حدود له. لم يكن منسحقاً

ولا عديم الجدوى. كان يتّقد بقوة داخلية يهبها بوفرة للآخرين، فيخفف ثقل عذاباتهم، ويطرد عنهم الاحساس بالخوف واليأس. كان ينقل ايمانه للآخرين.

وفهم أبروسيموف أنه لو كانت لهذا الرجل العجوز مجرد رغبة بالخروج من المعسكر، أو بفِعل أي أمر آخر أحسّ بأنه ضروري له، لكان تم كل شيء بحسب ما يريد، لفرط عظمة قوة روحه التي كان ايمانه يُغنيها ويغذيها.

ورغم أنه عاش هنا في المعسكر الخاص الحياة القاسية نفسها مثله مثل الآخرين، الا أنه كان ينقل نسكه المسيحي للآخرين، ويمنح المساعدة ونور الله للجميع.

كان العمل الذي يقوم به أبروسيموف صعباً الى أبعد حدّ، وكانت حياته كلها قاسية، فانقطعت صلته بالله. واذا بلقائه بالأب أرساني يهزّه بعنف، ويجعله يعيد النظر في كل شيء، ويعيد تقييم ماضيه. ما زال على أبرسيموف أن يقطع شوطاً طويلاً للوصول الى الله، الا أنه قام بالخطوة الاولى على طريق الايمان بمساعدة الاب أرساني. وبعد سنوات عديدة أخبر أبروسيموف بما جرى معه: "كانت عودتي الى موسكو عسيرة. فقد أُعيد اليّ كل شيء، رتبتي ووظيفتي... الا أن أمراً ما انتصب بين حياتي القديمة والجديدة. وانتهى بي المطاف الى اعادة النظر في حياتي، فتركت هذا النوع من العمل. سأكون صادقاً معك: لقد قمتُ بأعمال كثيرة فظيعة، أعمال كثيرة مرعبة. وفيما كنت أقوم بها، كنت على يقين من أني أفعل الصواب.

"لقد ساعدني ألكسندر بافلوفيتش آفسنكوف. ساعدني في حلّ الأمور المتشابكة داخل نفسي. عندما أدركت فداحة كل ما فعلت، صرت على يقين بأنه لا غفران لي. ولكن عندها سلمني ألكسندر بافلوفيتش رسالة صغيرة من الأب أرساني الذي كان حراً في ذلك الوقت. كان في الرسالة: "تذكّر ولا يخامرك شك! أن الله الذي يستطيع أن يعاقبنا لأجل آثامنا هو أيضاً قادر، برحمته التي لا حد لها، أن

يخلنا من خطايانا. لا توجد خطيئة عظيمة أو لعنة لا يمكن ألا تُفتدى بالأعمال الصالحة والصلاة".

"كثيراً ما ساعدني الأب أرساني خلال رحلة عمري في تفهّم الايمان. لم أصبح بالطبع صالحاً على غرار العديد من أبنائه الروحيين، ولكني حاولت واجتهدت في السير باتجاه الله.

"كان الأب أرساني - الذي أفضيت اليه بكل شكوكي وترددات حول الايمان وطقوسه - يجيبني على الدوام: "اذا نظرت الى حياتك، وتيهاناتك الطويلة بدون عقيدة، وبدون محور داخلي، فمن الطبيعي أن تساورك شكوك وترددات. ولكن هل هذا هو المهم؟ أنت تعي وتشعر بأن الله موجود، وتعرف الطريق اليه. آمِن، وعندها فان كل ما هو غير مهم سيختفي". كان الأب أرساني رجلاً مميزاً، ومسيحياً حقيقياً".

عاد الآن الأب أرساني الى الثكنة، يملأه الابتهاج لأجل ألكسندر بافلوفيتش وسازيكوف وألكسي ودانيزوف وتريفونوف، لأنهم سوف يغادرون المعسكر الخاص ويصبحون أحراراً في النهاية. الا أن شعوراً بالحزن أظلم نفسه: ان أصدقاءه على وشك الرحيل...

سوف يقلّ عدد مساعديه وعدد أصدقائه. وتيقن بأن الله لن يتركه وحده، وأن أشخاصاً جدداً سيظهرون ويحلون محل الذين رحلوا. في تلك الليلة نفسها زفّ الى آفسنكوف نبأ الافراج عنه. فتكلما طوال الليل، وتودّعا عند الصباح. لقد قلب الأب أرساني والمعسكر طريقة تفكير آفسنكوف رأساً على عقب، ونظرته الى الآخرين. عندما وصل الى المعسكر أراد أن ينتحر، أصبح يائساً وفقد ارادته. أما الآن فهو يرحل وقد تغذى روحياً، بنفسية قوية وايمان راسخ وثابت بالله، وتفهّم جديد واحترام لعذابات الآخرين.

في تلك الليلة صليا طويلاً معاً. وقال آفسنكوف للأب أرساني وردّد له فيما كان يعانقه: "لا تنسني أيها الأب أرساني. سوف ألتقي بأصدقائك الذين أصبحوا الآن أصدقائي أيضاً. صلِّ لأجلنا!" وعند الصباح ودّع آفسنكوف سازيكوف وألكسي: كان يعلم بأنهم لن يسمحوا له بالعودة الى الثكنة بعد تبليغه نبأ الافراج عنه.

وبعد نحو أربعة أسابيع استُدعي كل من سازيكوف وألكسي وتريفونوف ودنيزوف الى الدائرة الخاصة، ولم يعودوا بعد ذلك الى الثكنة. وراح السجناء يتساءلون عما يمكن أن يكون قد حلّ بهم. كان الرائد أبروسيموف — الذي أصبح الآن برتبة "عماد" — قد وفى بوعده.

وتستمر الحياة

تواصلت الحياة في المعسكر. كانوا يُحضرون سجناء جدداً بشكل منتظم للحلول محل الذين انتقلوا الى مقبرة المعسكر. والموت يزور المعسكر يومياً، فيأخذ منه ضحايا جديدة. والغد لا يحمل معه مفاجآت: بل كان مفعماً بالجوع والتعب، ثقيلاً، ومليئاً بالملاحظات المحقِّرة، وكان يستمر لساعات كثيرة، كثيرة جداً. وكانت حالات الفتور واللامبالاة والرغبة بالموت شائعة بين السجناء. وتابع الأب أرساني حياته المتفانية النسكية.

اشتاق الى الطالب ألكسي والى سازيكوف وآفسنكوف. فقد انتهى به المطاف الى أن يحبهم، كما أنه اعتاد عليهم وعلى مساعدتهم له في كل أعماله. وظهر أناس جدد أصبحوا مقربين اليه، وبعد ذلك صاروا يُنقلون من ثكنة الى ثكنة، أو يموتون، أو يُنقلون الى بعض حفر المناجم في معسكرات أخرى.

وقد ساعد الأب أرساني هؤلاء الأشخاص الموجودين حوله، كما فعل في السابق، مقدِّماً لهم العون الجسدي والتعزية الروحية. وكان وجوده ضرورياً لكثيرين. لقد دخل حياة الآخرين بطريقة ما، لا تُلاحظ، فحمل آلامهم وخفف متاعبهم. وأظهر لهم، بمثال حياته الشخصية، أن بامكان المرء أن يعيش في معسكر اذا علم أن الله يعضده على الدوام، وأن باستطاعة الانسان أن يعتمد عليه دائماً.

بعد ذلك مرض السجين الملقب "باللحية الرمادية" مرضاً حاداً، وأصيب بآلام في جهازه الهضمي. وعندما أصبح عاجزاً عن احتمال الآلام ذهب الى أطباء المعسكر. فأعطوه الأسبيرين، ثم عشبة الراوند (المعروفة بمزاياها المسهِّلة)، فلم ينفعه شيء. لم ينظروا اليه مرة بشكل جدي، ولم يفحصوه البتة. وعندما فحصوه أخيراً، قالوا انه سرطان في الكبد قديم العهد، وقد انتشر في جسده.

وعانى "اللحية الرمادية" من نزاع عسير، ولم ينقلوه الى المستشفى. صار عرضة لآلام فظيعة، ولكن بقي عليه أن ينهض من سريره عند تلاوة الأسماء، وكذلك عند ذهابه الى المراحيض. فاعتنى به الأب أرساني بصبر وحاول أن يساعده على قدر استطاعته. حتى انه ذهب الى الأطباء ليطلب منهم بعض الأدوية المسكنة للآلام، لكنهم لم يعطوه شيئاً.

غضب "اللحية الرمادية" من كل الناس ومن كل شيء، الا أنه تقبّل بوداعةٍ عناية الأب أرساني به. وفرح عندما جاءه الأب أرساني وسأله أن يجلس على سريره. وكان "اللحية الرمادية" يبدأ بالكلام عن حياته عندما يكون الأب أرساني بقربه، ويتمكن أحياناً من نسيان آلامه.

وقبل موته بيومين قال: "أنا أحتضر وأتألم لأني أستحق ذلك. لقد جلبت الألم لكثيرين من الناس، وقتلت الكثيرين، اذ بدأتُ حياتي بطريقة خاطئة. لا أريد أن أتوب لأني قمت بأعمال سيئة عديدة جداً لدرجة أني لا أستطيع أن أحصيها. اعرف أنه من المستحيل أن أنال المسامحة، ثم لماذا أنال المسامحة؟ فأنا بالكاد أومن بالله. اني أعتقد ببعض الخرافات، ولكني أعرف وأشعر بأن الله موجود لأنك أنت أيها الأب أرساني تؤمن به وتحيا به.

"اني متحدر من عائلة اكليريكية. كان والدي شماساً، ولم يكن يؤمن بالله. بل خدم لينال أجرته، لأنه لم يجد عملاً آخر. كان يقوم بخدمته لأنها مورد رزق.

"وفي مرحلة بلوغي رأيت الأكاذيب والاحتيال من حولي. كانوا يشربون الفودكا ويغتصبون النساء ويهزأون بالله وبطقوس الكنيسة، وفي الوقت ذاته يتسترون وراء هذا الاله عينه. كان والدي يقول شيئاً ويفعل شيئاً آخر. وكان يعود الى البيت أحياناً بعد احدى الخدم، فيبدأ بعدّ المال، ثم يرسل أحدهم لابتياع الفودكا، ويسخر بكل ما هو مقدس، ويشتم ويحلف بطريقة وسخة. وكان يخبر الجميع كيف أخذ المال من صينية الكنيسة، وكيف خدع امرأة بسيطة.

"لم أومن بالله رغم أني تلقيت دروسي في مدرسة اكليريكية. وعندما أنهيت دراستي بدأت بالسرقة، ودخلت السجن مرات عدة. ثم جاءت الثورة باضطراباتها وبلبلاتها، فبدأت أشرب الكحول وأسرق وأنا أفرح. اسرقْ واقتلْ، فالله غير موجود، وأنت سيد نفسك. ووجدت بعض "الأصدقاء الملائمين"، وبدأ كل شيء. بدأ صغيراً أولاً، ثم تعاظم. وبعد ذلك أرقت دماء بشرية... ثم لم يعد يوقفني شيء. هكذا كان الوضع أيها الأب أرساني!

"لقد أرقت دماءً كثيرة. وكنت في كل حين أخطط للمغامرة التالية، وللمتعة التالية مع امرأة، أو أخطط للأساليب التي أتحاشى بها السجن. وليس من وقت للتفكير: "هل الله موجود أم لا؟" ولكي أكون صادقاً معك: لم أرد أيضاً التفكير به. ثم التقيت بك في هذا المعسكر. وظننت أنك مختل العقل بعض الشيء، أو أنك تحاول من خلال تصرفك أن تجني مكسباً بطريقة ما. ثم رأيتك تحوم حول نفسَي آفسنكوف ورفيقي سازيكوف، ففهمت أنك تؤمن بالله دون مراءاة. وأنا نفسي فهمت أن الله موجود، والا فكيف كانت حتى الكنيسة التي يخدم فيها والدي تغصّ بالناس على الدوام؟ لقد رأيت كل هذا في صغري عندما خدمت في الهيكل.

"الآن أعرف أن الله موجود. ولكني لا أملك سبيلاً مفتوحاً يفضي اليه، اذ لا يمكن أن تُغفر الأعمال التي فعلتها.

"اني أموت، ولكني لست خائفاً من الموت. ورغم ذلك ثمة أمر مخيف لا أعلم ما هو. لقد ظننت لفترة وجيزة أني سأطلب اليك أن تستمع الى اعترافي. ولكني بعد معرفتي اياك فكرت بأنك لن تستطيع أن تغفر لي بسبب خطاياي. ولكني في الواقع غير آسف، فما حصل قد حصل.

"ولكن ثمة أمران كثيراً ما أراهما أمام عينيّ عندما يعصاني النوم، كما أني أراهما أحياناً في الحلم. في الثلاثينات كان عليّ أن أقتل فتىً في السابعة عشرة من عمره، وكانت القضية تافهة ودون أهمية. فراح يرجوني وهو جاثٍ على

ركبتيه. راح يرجوني ويبكي. وكنت قد شربت بعض الفودكا وأردت أن أتباهى أمام أصدقائي، فهزئت به. ما عليّ سوى أن أغمض عينيّ، وها هو الفتى بوجهه المبلل بالدموع.

"ثم كانت هناك تلك المرأة. انها لن تتركني بسلام. انها تظهر أمامي مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع. وهي الآن تظهر كل يوم. هذا ما جرى: أردنا أن نسرق شقة ظننا أنها فارغة، اذ كان من المفترض أن الجميع في أعمالهم. دخلنا، فاذا فيها أحد: امرأة جميلة، طويلة القامة، جميلة القوام، وكما يقولون: حسناء.

عند دخولنا فهمتْ كل شيء، فركضتْ باتجاه النافذة، ولكننا حبسناها داخل غرفة. كان في هذه الشقة أشياء كثيرة جديرة بالسرقة، حتى انها كانت تحتوي على بعض الذهب. فبدأنا نجمع الأشياء. ثم حان وقت رحيلنا ولكن... هذه المرأة قد رأتنا. فعلينا أن نقتلها، ولا مفر من ذلك: اذ يمكن أن تتعرف الينا في وقت لاحق. والحقيقة أن أصدقائي لم يرغبوا بالقيام بهذا العمل، اذ لم يسبق لهم أن قتلوا أحداً.

"ودخلتُ الغرفة. فتحتُ الباب، فنظرت اليّ وفهمت ما سيكون مصيرها. وكانت عيناها واسعتين من الخوف... تناولت خنجري... فوقفت بازاء الجدار بانتظار الضربة. واستدارتْ باتجاه الزاوية حيث توجد أيقونة، ورسمتْ علامة الصليب مرات عدة ثم قالت. "اقتلني الآن فان الله معي. يا والدة الاله لا تتخلَّي عني! "

"لقد راودني احساس بالشفقة عليها، ولكن ما كان بمقدوري أن أفعل؟ لقد أخذنا أغراضاً كثيرة من تلك الشقة. وهكذا طعنتها بخنجري في صدرها، فراحت تتهاوى ببطء، ورسمت علامة الصليب بعجلة وهي تهمس قائلة: "يا رب ارحم! " هكذا تظهر لي الآن في كل يوم".

أصغى الأب أرساني الى "اللحية الرمادية" وراح يصلي دون انقطاع. الا أن التفاصيل المرعبة التي كان يسمعها جعلت جسده كله يقشعرّ. لم يكن مثل هذا العنف والغضب والاحتقار وغياب الرحمة بالكلية لتُشاهد كثيراً، حتى في هذا المعسكر. كان "اللحية الرمادية" يحتضر، ووجهه يتشوه من الآلام، وربما من الغضب تجاه كل الأشخاص الأحياء. وعندما مات بقي وجهه غاضباً بشكل غير مألوف.

كتبت هذه القصة حول "اللحية الرمادية" في العام ١٩٦٥ استناداً الى أقوال الأب أرساني. وقد دوّنها أ. ر. الذي كان في ذلك الوقت مع الأب أرساني و"اللحية الرمادية" والمجرمين الآخرين في الثكنة نفسها.

الاستجواب

بعد رحيل الرائد أبروسيموف كقائد للمعسكر الخاص، توالى قائدان آخران في المعسكر، وكلاهما لفترة وجيزة. وفي نهاية الأمر عُيّن رجل صارم متوسط العمر، فأحضر العديد من أصدقائه. وأصبحت قوانين المعسكر حتى أشد صرامة من قبل، فأمست حياة السجناء غير محتملة على الاطلاق.

استُدعي كثيرون الى الدائرة الخاصة للاستجواب، وأصبحت التهديدات والضرب وزنزانة العقاب حتى أكثر تكرراً من قبل. كان يبدو من غير المعقول على الاطلاق أن يحاولوا ويحصلوا على أي شيء من هؤلاء المساجين الذين كانوا عملياً محكومين بالموت. ومع ذلك فقد استمر المستجوِبون في محاولاتهم للحصول على المكافآت من موسكو، عن طريق "كشف النقاب" عن جرائم جديدة.

صارت الدائرة الخاصة تعمل وقتاً اضافياً: فاستُنبطت اتهامات جديدة، واكتُشفت "مؤامرات"، وأُعيد فتح الملفات، واتُخذت قرارت جديدة، ورُمي العديد من السجناء بالرصاص. وفي شهر آذار استُدعي الأب أرساني للاستجواب. وكان مستجوبه الرائد أودينزوف. كان رجلاً معتدل القامة، أصلع، أحمر الوجه، ذا عينين لا لون لهما، وشفتين رقيقتين تقطعان وجهه. كان أنيق الملبس على الدوام، يرتدي ثياباً مكوية جيداً. وكان مهذباً على الدوام في بداية حديثه، ولكنه بعد ذلك يوقع الذعر في قلب الذين يستجوبهم، بسبب قساوة أسئلته. ولا يعلم أحد سبب اطلاق السجناء عليه لقب "الرجل اللطيف"، أو في أحيان أكثر: "حسناً، لمَ لا نبدأ؟"

دخل الأب أرساني الى المكتب ووقف عند الباب. وكان المستجوِب كثير الانشغال في النظر الى بعض الأوراق، فلم ينتبه الى الأب أرساني. ثم رآه

بالصدفة، فبادره بالقول: "أنا سعيد بلقائك يا بيتر أندريفيتش! أنا سعيد جداً! من المرجح أنك سمعت عني. أدعى أودينزوف".

فأجاب الأب أرساني:

- "أجل لقد سمعت عنك، أيها الرفيق المستجوِب".

- "حسناً، هذا جيد يا أبتِ! والآن لمَ لا نبدأ؟ معي أنا يجب أن تتكلم وتقرّ وإلا فستستحم بدمك. اني مشهور بأساليبي. لنبدأ! حسناً: اعترف بجرائمك.

- "عمَ يجب أن أتكلم؟

- "أخبرني، أيها الكاهن الغبي، عن المنظمات الموجودة في هذا المعسكر التي تحيك المؤامرات لاغتيال الرفيق ستالين. نحن نعلم كل شيء: لقد بلّغ أناس عنك. لن تضيع وقتي ان كنت قد سمعت عني".

أصبح الأب أرساني كتلة من الأعصاب. كان كل تركيزه على الصلاة. توسّل الى والدة الاله ألا تتركه. وتوسّل اليها لكي تعطيه القوة لاحتمال هذا الاستجواب. "يا رب، يا الهي! لا تنبذني أنا الخاطئ. أعطيني القوة يا أم الله، فان روحي ضعيفة".

- "لا علم لي بأية مؤامرات أو مكائد، وليس عندي ما أعترف به.

- "ماذا، لا علم لك أيها الكاهن؟ لن أمزح معك بما أنك نصف ميت ولا تبالي اذا متّ. أما فيما يختص بي، فمن الضروري جداً لمستقبلي أن أكشف مؤامرة. ولذا فانك سوف تجلس وتكتب ما سوف أملي عليك.

- "اسمح لي أيها الرفيق المستجوب أن اوجه اليك سؤالاً.

- "لم يُوجَّه اليَّ سؤال على الاطلاق، فالناس يجيبون فقط على أسئلتي. ولكن اسأل بما أنك نصف ميت على كل حال.

- "أرجوك أيها الرفيق المستجوب، أن تفحص ملفي. وسترى بأني لم أبلّغ عن أحد يوماً، رغم الضرب الذي تلقيته، الضرب العنيف".

فوقف أودينزوف ودار حول الطاولة، وأعطى الأب أرساني ورقة وقلماً وهو يقول: "من استجوبك، لا أريد أن أعرف. أما معي فستكتب كل ما أقول.

- "كلا لن أكتب شيئاً. ليس من مكيدة في هذا المعسكر. انت تريد فقط أن تفتتح قضية جديدة، وترمي بالرصاص العديد من الأبرياء، أناس سوف يموتون هنا قريباً على أية حال".

اقترب أودينزوف من الأب أرساني، وارتجفت شفتاه، وتشوّهتا، ودبّت الحياة في عينيه الخاليتين من اللون، وقال وهو يكاد يتأتئ: "آه يا عزيزي، لست تتصور ما ينتظرك في هذه اللحظة".

"ساعدني يا رب". بالكاد تسنى للأب أرساني الوقت للتفكير بهذه الكلمات قبل أن يتلقى ضربة قوية على وجهه. فسقط عن كرسيه فاقد الوعي من الألم الذي لا يحتمل. وأدرك بأن قد قضي الأمر، وأن أودينزوف سوف ينهال عليه بالضرب حتى الموت. وصار يشعر بالضربات خلال بعض لحظات الوعي. كان يتلقى الرفس على وجهه بالجزمة، والضرب بحلقة الحزام المعدنية. وفي اللحظات القصيرة التي أفاق فيها، صلى الى والدة الاله، ولكنه عاد الى الاغماء من جديد. وأخيراً استغرق كلياً في اغماءته.

ثم استعاد وعيه لثوان قليلة وأدرك ببعض الدهشة أنهم قد جرّوه الى ثكنته. واستعاد وعيه مرة ثانية على سريره وشعر بأن أحدهم يمسح وجهه بخرقة رطبة. وسمع أحدهم يقول: "لقد انهالوا عليه بالضرب حتى الموت رغم كونه

رجلاً عجوزاً. لن يعيش حتى الغد!" ثم شتموا أودينزوف بحقد، هذا المستجوِب "اللطيف".

ورغم ذلك فقد استعاد الأب أرساني وعيه للمرة الثالثة. وكان نصف صاحٍ فظن بأنهم يستجوبونه من جديد لأنه أحس وكأن رأسه قد قُطع. فأراد أن يدعو باسم الله، ولكن ما أن التقط أولى كلمات صلاة حتى فقدها في الحال. كان يمزقه ألمٌ لا يُحتمل. وظن بأنه سوف يتلقى الضرب من جديد، فانتظر الموت.

وبالاجمال أفاق الأب أرساني حوالي عشر مرات. وفي كل مرة كان يحاول أن يصلي، ولكنه عجز عن الولوج في الصلاة: كان عقله مغشى بسبب ألمه المبرح.

وخلال احدى هذه الإفاقات شعر الأب أرساني بالخوف من أنه سوف يموت دون صلاة ودون توبة. ثم أدار أحدهم رأسه، وأحس بشيء يحرق، شيء يخز. وفجأة سمع الأب أرساني هذه الكلمات: "أعطهِ بسرعة جرعتين من الكافور، واحذر عند استعمال اليود لئلا يصيب عينيه. قطّب الجروح. واحلق رأسه بلحتراس..."

وأحس الأب أرساني بأن أحدهم يدير رأسه برفق شديد، وأنه ممدّد فوق شيء فائق الصلابة، وأنه عارٍ.

ثم فقد وعيه من جديد. وفيما بعد أخبره بعضهم أنه بقي ممدداً على سرير في مستشفى المعسكر، فاقد الوعي لمدة ثلاثة أيام. وعندما استعاد وعيه حاول أن يفهم أين هو: هل هو عند المستجوب؟ في ثكنته؟ أو أين؟ ثم فهم أنه في المستشفى. حاول أيضاً أن يصلي، ولكن أغمي عليه من جديد. واستمرت هذه الحرب بين الصلاة والاغماء لأيام عدة.

وقد نجح كل يوم في أن يلتقط ــ أن يلتقط بالضبط ــ بعض الكلمات الجديدة من الصلاة. وأخيراً انتصرت الصلاة على كل ما عداها.

كانت عيناه مضمدتين، ولكنه شعر على الدوام بلمسة يدين ناعمتين تعتنيان به. وسمع أحدهم يكلمه بمحبة ويطعمه بمحبة.

قال الصوت: "كل شيء على ما يرام! أنت حيّ. لم أكن أظن أنك ستنجو. غداً سأنزع الضمادات عن وجهك. أنا نفسي قد نجوت من عدد قليل من استجواباتهم، وأعرف هذه "المحادثات". ولكننا أصلحناك، أنت جيد وكأنك عدت شاباً!"

وفي غضون وقت قصير نُزعت الضمادات عن عينيه ورأسه. واهتم الطبيب، واسمه ليف ميخائيلوفيتش، بالأب أرساني بحنان، وقدم له النصح وهدّأ روعه: "صه، صه، دعنا ننظر. يا عزيزي! لن يكون على وجهك ندب واحد تقريباً. جيد! أنا سعيد من أجلك".

كانت ثمة عينان مصابتان بقصر النظر تنظران الى الأب أرساني داخل نظارتين سميكتين. وكان الوجه لطيفاً ووديعاً. وقال ليف ميخائيلوفيتش: "سوف أستبقيك هنا ما استطعت. سوف أستبقيك في هذا المستشفى حتى لا تواجه هذا الحيوان مرة جديدة. صلِّ الى الهك، وإلا فسوف يقتلك ذلك الرجل".

وبقي الأب أرساني في المستشفى أكثر من أربعين يوماً. وعندما حان وقت الوداع بكى الأب أرساني والطبيب كلاهما. كان الطبيب رجلاً طيباً وطبيباً ممتازاً. واحتضن ليف ميخائيلوفيتش الأبَ أرساني وقال له بثقة: "لا يمكن أن يستمر هذا الأمر. سوف ينتهي، وسوف نخرج كلانا من هذا الجحيم. سوف نلتقي من جديد". والحقيقة أنهما عادا والتقيا من جديد سنة ١٩٦٣.

وعندما عاد الأب أرساني الى ثكنته كان جميع الذين يعرفهم تقريباً قد نُقلوا الى مكان آخر. وقيل له ان الرائد أودينزوف قد نُقل هو الآخر.

وبعد مضي ثلاثة أشهر على اخراجه من المستشفى، استُدعي الأب أرساني من جديد الى الدائرة الخاصة. فاستقبله رجل سمين قاسي الوجه. فتفرّس في الأب أرساني وقال له: "أنت ناجٍ من الموت. حتى أودينزوف لم يجهز عليك! هذا جيد. لقد تلقيتُ أمراً من موسكو بعدم الاجهاز عليك، ولست أعلم السبب. ولكن الأرجح أنهم يدققون في أمر ما. اذن حسناً، اذهب وعِش. سوف أعطي التعليمات بألا يُعهد اليك بعمل قاسٍ".

ومنذ تلك الحادثة وحتى موت ستالين، لم يُستدعَ الأب أرساني الى الدائرة الخاصة. وبقيت الندوب في جسده ورأسه تذكارات من استجواباته.

كل هذا أخبره الأب أرساني لأصدقائه وأبنائه الروحيين.

تغييرات رئيسية

وصلت الأخبار عن وفاة ستالين الى المعسكر بعد ثلاثة أيام فقط من حصولها. وكان ذلك صدفة، عن طريق الحراس. ولسبب مجهول لم ترغب ادارة المعسكر بنشر هذا الخبر.

حدث هذا في شهر آذار، وكان الطقس جليدياً. واندفعت عواصف الثلج حول المعسكر تغطيه وتقطع أحياناً كل اتصال مع العالم الخارجي. ومع وصول أخبار وفاة ستالين تسلل احساس بالقلق الى داخل المعسكر، احساس مؤلم بالاضطراب والهمّ، ولكنه بالغالب احساس بالغموض. وتساءل كل سجين في قرارة نفسه: "ماذا سيحصل؟ هل سيبقى كل شيء على حاله أم ستتغير الأمور؟ هل ستتغير نحو الأسوأ؟ هل سيتم رمي جميع السجناء بالرصاص؟" وراح كل واحد ينتظر بصمت: لا بد أن يحصل أمر ما.

واستمرت الحياة في المعسكر كما في السابق، خلال الشهرين الأولين اللذين أعقبا خبر الوفاة. ولكن بعد ذلك بدأ أمر ما بالتسرّب الى داخل المعسكر بشكل غير ملحوظ. وبدا كأن أحداً رمى عيداناً أو حجارة داخل آلة ميكانيكية أثناء عملها. ما زال الجميع يؤدون العمل المضني نفسه، وما زالوا يتلقون الغذاء السيء نفسه، وما زالوا يموتون، ولكن لم يتم احضار سجناء جدد الى المعسكر. وصار بامكان المرء أن يشعر بشيء من التردد في تصرف الادارة، حتى ان الحراس تبادلوا المزاح أحياناً مع المساجين.

وبعد مضي حوالي سنة على وفاة ستالين، ظهرت بوضوح تغييرات أخرى: صار السجناء يتلقون طعاماً أفضل، ولم يعد ثمة شتائم ولا ضرب. حتى ان المراقبين أصبحوا مهذبين مع السجناء. وحضر مفتشون من موسكو. ونُزعت

الأرقام عن القبعات والأكمام. وصار السجناء يُدعَون بأسمائهم لا بأرقامهم. أعيد فتح القضايا، واستُجوب شهود جدد. حتى ان بعض السجناء أعيدوا الى المدن التي فُتحت فيها قضاياهم لمحاكمات جديدة. وسُمح للسجناء باستلام الرسائل وحتى الطرود. وأعطي السجناء أجرة لقاء عملهم، كما قُدمت لهم ملابس وأطعمة أفضل.

ثم حضرت لجنة للمرة الأولى، واستجوبت مئات المساجين، ثم رحلت. وبعد نحو شهرين حضرت لجنة أخرى واستقرت في المعسكر، وبدأت باستجواب السجناء واحداً فواحداً. في البداية أطلقوا سراح العسكريين، ثم أعضاء الحزب، والعلماء، وكبار ملاكي الأراضي.

ثم مرّ الوقت أيضاً، وبعد ذلك مُنح جميع السجناء المجرمين الصفح، وأُعلن لهم عفو جماعي عام. لم يعد المعسكر "خاصاً"، بل أصبح "عادياً". ولم يبقَ فيه سوى أعضاء الشرطة السابقين، وأعضاء جيش فلاسّوف، والمجرمين ذوي الماضي الخطير جداً، والمعتقلين السياسيين الذين كان اطلاق سراحهم يشكل خطراً على أحد ما في مكان ما.

وفي غضون سنة ونصف اختفى تسعة أعشار السجناء، وفرغت ثكنات عديدة. كما أصبح عدد المراقبين نصف ما كان عليه قبلاً. وتقرر تقليص حجم المعسكر: فأُزيلت الأبراج وحرّاسها وأضواؤها، ونُزعت الأسلاك الشائكة لتشكيل دائرة أصغر. وأما الثكنات التي أصبحت خارج المنطقة المسيّجة فقد بقيت فارغة، وأخيراً أُحرقت. وفي هذه الأثناء نُقل الأب أرساني من ثكنة الى أخرى. ولم يعد في المعسكر أحد من أصدقائه. وبقي يصلي دون انقطاع، ويساعد الناس من حوله. أصبح بامكانه الآن أن يكتب الرسائل الى أبنائه الروحيين وينتظر أجوبتهم بتلهّف. والذين تبقوا من السجناء أصبحوا مغتاظين وغاضبين على الدوام. وكان من الصعب مصادقة أحد منهم. وكان الأب أرساني يعرف من بينهم كاهنين أو ثلاثة، وبضعة مؤمنين. وقد أحس هؤلاء وكأنهم عالقون في الفخ

أو مضطهَدون، ولم يبقَ عندهم أمل بالحرية. فكتبوا العديد من الرسائل الى السلطات، والعديد من الشكاوى. وانغلقوا على أنفسهم لسبب ما ولم يتواصلوا مع أحد.

وربما كانت هذه المرحلة هي الأصعب للأب أرساني. كان الفراغ يحيط به. لم يبقَ له غير الصلاة، وبها عاش، لكن ذلك كان صعباً. كان الأمر صعباً بشكل خاص لأنه يتقد برغبة المساعدة وعمل الصلاح، دون أن يجد مكاناً يوظف فيه جهوده.

وتغيَّر وضع الأب أرساني في منتصف العام ١٩٥٦: اذ سُمح له بمغادرة المعسكر من وقت لآخر للذهاب الى القرية المجاورة. كما أُعفي من العمل المتعب، ونُقل الى ثكنة السجناء المرضى.

وفي آذار ١٩٥٧ أصبح المعسكر شبه فارغ بعد أن أُنقص حجمه مرات عدة، وأُحرقت ثكنات كثيرة. وصار بامكان المرء أن يرى خلف الأسلاك الشائكة عشرات المداخن التي سوّدتها النيران، ولفائفَ الأسلاك الشائكة الصدئة القديمة المنتشرة في كل الأنحاء، وقطعاً من الزجاج الملتمعة تحت الشمس، وبقايا حجارة من الأساسات المنتشرة في كل مكان.

تلقى الأب أرساني رسائل كثيرة، وكان هذا مصدر فرح عظيم له. وصلته في البدء رسائل من فيرا دانيلوفنا، ثم من ألكسي، وايرينا، وسيرافيم سازيكوف، وألكسندر آفسنكوف. ثم أُحضرت له، بوسائل كثيرة التعقيد، رسالة صغيرة من أبروسيموف الذي أصبح الآن برتبة "فريق". وقد كتب أبروسيموف: "اني أتذكر! لم أنسَ شيئاً. اني أحاول كل شيء. لكن عوائق كثيرة تقف في طريقي. اني أتذكر وأتذكرك! وأثق بأننا سنلتقي قريباً في ظروف أخرى. لا تفقد الأمل!"

وأجاب الأب أرساني على كل الرسائل. كان له ارتباط وثيق بما يحصل في حياة أبنائه الروحيين. وكثيراً ما وصلته رسائل من أشخاص لم يرهم منذ سنين عديدة، تقص عليه من الأخبار لدرجة أنه شعر بوجود الشخص معه تماماً.

أما المراقب الذي لقبوه بالـ "الرجل العادل"، فقد تمّ نقله من هذا المعسكر. واشتاق الأب أرساني الى هذا الرجل والى نفسه الساذجة.

وأُعيد الى المعسكر عدد من المجرمين، لجرائم جديدة اقترفوها. كان هؤلاء عدوانيين بشكل خاص ووقحين. وما كانوا يهابون الحراس. وفجأة تغير قائد المعسكر، وتغير كل شيء. أضحت متطلبات العمل أكثر صرامة، الا أن الغذاء تحسن. وصار العقاب على العصيان شديداً، وفي المقابل اختفى العنف والقسوة والاهانات.

واستمرت الحياة. وسلّم الأب أرساني بمشيئة الله.

كانت هذه الثكنة الأخيرة التي عُيِّن فيها الأب أرساني قبل الافراج عنه. لم يعد له فيها أصدقاء، فجميعهم أصبحوا أحراراً أو نُقلوا أو ماتوا.

الوداع[٩]

كانت تلك السنة ١٩٥٧. لم أعد تحت المراقبة الصارمة، بل سُمح لي بمغادرة المناطق المسيّجة لفترات قصيرة. وكان من عادتي ان أخرج من المعسكر بعد أن أنهي عملي، فأسير ببطء نحو الغابة الأقرب، أو الى الجدول الصغير الراكد. فأجلس على جذع شجرة جاف وأبدأ بالصلاة. ويرحل صوتي داخل الغابة المتناثرة، داخل فروع البتولا، والصفصاف المنحني الى الماء؛ داخل أشجار الصنوبر، وداخل العشب. هنا في الغابة كانت الصلاة تعطي سلاماً كبيراً وارتياحاً، اذ تختفي خشونة حياة المعسكر وتحل محلها امكانية اتحادي بالله في الصلاة. في مثل هذه الأوقات كان يتهيأ لي أن أبنائي الروحيين وأصدقائي الذين أصبحوا أحراراً، مجتمعون معي. كنت أذكر الموتى الذين أحببتهم، الى جانب الذين رافقتهم في دربهم الأخير بعد لقائي بهم صدفة في المنفى أو في المعسكرات.

كان الطقس دافئاً. والبعوض يطنّ ويؤلف غمامة رمادية تحاول أن تدخل من خلال الأسلاك الشائكة. وفجأة تهب نسمة ريح فتحملها كلها بعيداً. الا أن الريح تهدأ بعد ثوان قليلة، فتعود غمامة البعوض لتحيط بي. وكنت أنسى في الحال المعسكر والثكنات والمجرمين، والمراقبة الدائمة. لم يكن هناك سوى السماء الزرقاء التي لا حدّ لها، والغابة، والأعشاب المتمايلة، وتغاريد الطيور، والصلاة التي تُتحد هذا كله بالله وبكامل العالم الذي خلقه.

لم أكن أحظى كثيراً بالاذن لمغادرة المعسكر. وكان اليوم أحد هذه الأيام. فغادرت المنطقة المسيّجة وتوغلت في السير داخل الغابة المتناثرة الممتدة وراء المعسكر. هناك، حين كان المعسكر الخاص لا يزال مكتظاً بآلاف المساجين الذين

[٩] هذا الفصل كتبه الأب أرساني.

عاشوا وكابدوا العذاب فيه، كانت المشاعل تحترق دون توقف لاذابة الثلج عن الأرض، حتى يصبح بالامكان نقب الحفر القليلة العمق التي قد يدفنون فيها المسلجين الذين قضوا في ذلك اليوم.

كانت أرض المدفن هائلة الاتساع. كل هذه المنطقة التي كانت مسيّجة بالأسلاك الشائكة هي الآن مفتوحة. في بعض الأماكن سقطت الأعمدة على الأرض، وانقطعت الأسلاك وتدلّت بهيئة تثير الشفقة. وبدت المقبرة الآن، بأثلام الأوساخ الغير المتساوية والمخرّبة، كحديقة خضار ضخمة مهملة. كان على هذه الأثلام في الماضي قضبان تحمل أرقاماً على صفائح صغيرة من التنك مسمّرة عليها. معظم هذه العلامات هي الآن مطروحة على الأرض، وقد امّحت عنها أرقام المسلجين، ولم يبقَ سوى على البعض منها فقط آثار حروف أو أرقام.

تابعت السير الى الأمام. كان التراب رطباً في بعض الأماكن، وغاصت قدماي عميقاً في الوحل الممتزج بعشب ميت وأوراق. كان المشي عسيراً، فقد كان عليّ أن أخطو فوق عصيّ سقطت على الأرض، وكوَم من التراب، وحول الكوَم الأكثر ضخامة، أو الخنادق التي احتوت القبور العامة. فسرت داخل المقبرة متشبثاً بالأشجار الهزيلة الضامرة ومتكئاً عليها.

كانت شمس الربيع الدافئة تدنو من الأفق. فتوقفت وأجلت النظر فيما حولي، ورسمت علامة الصليب لمباركة جميع الذين دُفنوا هنا، وبدأت أصلّي. كانت نفسي مثقلة بالهمّ، كئيبة وحزينة. وسكنت الريح حتى ان العشب، والشجيرات الضامرة المكتظة، وأشجار البتولا الفتية والصنوبرات الشاهقة كانت هادئة. وبدا كأن الريح تتمدد بسكون قريباً من الأرض، متوقّعة حدثاً ما.

مشيت ببطء في هذا الحقل، متغاضياً عما حولي، ومركزاً انتباهي ومصلياً من أجل المسجَّين هنا. فانتصبت أمامي ذكريات وهاجمتني بعنف، ذكريات مؤلمة وثقيلة الوطأة.

العديد من الناس الذين عرفتهم وقتاً ما ـ ممن رافقتهم على سرير موتهم، ممن استودعوني حياتهم في اعترافاتهم، وأناس قد صادقتهم ـ كانوا هنا تحت التراب في حقل الموت هذا.

تذكرت وجوههم المنهكة، الضائعة، الحزينة، المفعمة بالكآبة، المصلية، أو تلك ذات العيون المحتضرة التي تتقد بالحقد. كل واحد منهم كانت له حياته. وقد لامست حياتهم، وكوني كاهناً، فقد أخذت على نفسي جزءاً من حياتهم عند استماعي الى اعترافاتهم.

جاءت الذكريات ورحلت، فقط لتحلّ محلها ذكريات أخرى. صليت بصوت عالٍ ورحلت كلمات خدمة الدفن الرائعة فوق المقبرة، ممزقة نفسي الى أجزاء.

آلاف، مئات الآلاف من الناس المسجَّين هنا قد قتلتهم الظروفُ القاسية في هذا المعسكر. قتلتهم ببطء، ووصلوا الى الموت على يد أشخاص آخرين. شبان وشيوخ، آلاف المؤمنين، مقاتلون من أجل وطنهم قدموا له دمهم، وأناس عاديون أُرسلوا الى المعسكر لأن أحداً بلّغ عنهم بلا موجب حقيقي... كانوا كلهم هنا، تحت هذه التربة المستنقعية.

وهنا أيضاً، تحت هذه التربة عينها، يوجد أناس كانوا خونة، قتلة، جلادين، من البوليس السري، ومن المجرمين الشرسين.

وفي مكان ما بعيداً يمكنك أن تسمع صوت الجرافة التي تسوّي الكوَم والمتاريس بالأرض، حتى لا يتمكن أحد يوماً من أن يعرف أو يتذكر من كان مسجىً هنا.

في مكان ما رُميت أجساد الأسقف بيتر، والأرشمندريت يونان، والراهب الصدّيق ميخائيل، والراهب ثيوفيلوس من دير أوبتينا، دون مبالاة، والعديد العديد من الصدّيقين ورجال الصلاة. وكذلك الطبيب ليفاشوف الذي ساعد

العديد من الناس، والبروفسور غلوهوف، والنجار ستيبّين الذي عمل الخير مع الآخرين حتى رمقه الأخير، والعديد غيرهم ممن عرفتهم في وقت ما.

وبتذكري الراحلين صليت، ولكن كلمات الصلاة تسرّبت مني فجأة. ووجدت نفسي في هذا الحقل الضائع، تسحقني الذكريات والشكوك، وفراغ لا يسبر غوره. ماذا تبقى من هؤلاء الذي رحلوا؟ علامة صدئة تحمل رقماً، وعظم ينتؤ من تحت التراب، وقطعة قماش ممزقة.

كانت عمليات الدفن هنا تتم بعجلة على الدوام. كانت حُفَر الدفن مثلجة وشديدة الضحول. وكان يُرمى الكثيرون داخل قبر واحد.

في أيام الشتاء، طُمرت الأجساد بالثلج الممزوج بالتراب. وفي الصيف، كُلفت فرقة خاصة بطمر عظام الأيدي والأرجل الناتئة من تحت التراب. وحتى الآن يمكن للمرء أن يشم رائحة تعفن خفية.

كان الجو فاسد الهواء، رطباً وساكناً. لقد سخّنت الشمس الأرض، ويمكنك أن ترى فوق الحقل نوراً، كأنه بخار خفيّ. وارتعش الهواء، وبدا كأن شيئاً خفيفاً جداً ووسيعاً يطفو على أرض المدفن.

وسمعت صوتي يهتف: "يا رب، يا رب! هل هذه أرواح الراحلين، تطفو فوق مكان عذاباتهم؟" وقبض كرب فائق الايلام على قلبي ونفسي، وضغط عليهما. وشعرت بكتلة في حلقي، وغطت الدموع عينيّ، وأحسست بأن قلبي ينقبض أكثر فأكثر، وكأنه على وشك التوقف. وسيطر عليّ شعور بفقدان الأمل التام والقنوط، واليأس العميق. وشعرت بالانسحاق وبالجزع الكامل لدرجة أني شعرت في داخلي بالضياع والتشتت. وألمٌ لا يحتمل، كتمزّق النفس، انتزع مني بأنين صرخة: "يا ربي، لمَ سمحت بهذا؟"

وفجأة سمعت صرخة طويلة حادة تتقدم تدريجياً وباطراد، وتتمدد فوق الحقل. كان ذلك في البداية نواحاً خافتاً، مرتجّاً، يشبه تنهدات انسان ترتفع أحياناً

وتهدأ أحياناً أخرى. كان هذا النواح، النواح المتموج، متفجعاً وطويلاً، فغطى كامل الحقل المترامي الأطراف، وأفعم نفسي حزناً لم أعهده من قبل. ثم توقفت الصرخة لتعود فتنطلق من جديد بعد لحظات قليلة بالحدة نفسها.

شعرت بالضغط وتمددت أعصابي الى حدّها الأقصى، وكنت مفعماً بالكلية بكآبة أليمة. وأصبح الجو معتماً وثقيل الوطأة. وأحسست بأني محطم، منسحق، وصرخت:

"يا رب، يا ربي، أظهر لي رحمتك!" ورسمت علامة الصليب.

وفجأة عادت الريح التي كانت مختبئة داخل الغابة والعشب، الى الحرية. فمدّت الأعشابَ بالحياة، وهزّت الأشجارَ ونفخت في وجهي باصرار. فجأة تغيّر كل شيء، واستيقظ وعاد الى الحياة.

توقف النواح الحزين، فسمعت تغريد الطيور. واختفى ضيق الجو، وعاد الهواء خفيفاً من جديد.

وتركني الاحساس بالاضطراب وبالقنوط الثقيل الوطأة واليأس. فوقفت مستقيماً، وطردت عني كل خوف، وشعرت في هبوب الهواء بحركة الحياة. وجلبتْ لي الريحُ الهدوء ورائحة العشب والأشجار، وذكرياتٍ من الطفولة الأولى، والفرحَ الفريد الرائع.

واتضح أن صوت النواح الذي سمعته يتردد فوق الحقل لم يكن سوى صوت ارتجاج منشار دائري ضخم كان يعمل في منشرة المعسكر. وكانت الريح تنسّم، وكان الهواء طيباً ونقياً. ورفرفت قبرة في الهواء وهي تقفز، وكانت أنشودتها خافتة أحياناً وأحياناً أخرى مسموعة بوضوح في السماء. وأدركت أن

الحياة قد استمرت وسوف تستمر بالطريقة نفسها تماماً كما كانت من قبل وفاة جميع هؤلاء الناس.

سوف تستمر الحياة وسوف تستمر على الدوام. هذه سُنَّة الله، والعالمُ الذي خلقه يسير كما رسم له. ولم يتأتَّ الشعور باليأس وبالحزن الذي لا يُسبر غوره، الا بسبب ايماني الضعيف.

وفهمت بوضوح أن الكاهن أرساني قد استسلم لشعور بالجزع والقنوط. جثيت على الكومة المتبقية من قبر، واتكأت على شجرة بتولا فتية لجمع كل قواي وارادتي، وبدأت أصلي الى الله ووالدة الاله، والى القديس نيقولاوس العجائبي.

وغلَّفني سلام حقيقي تدريجياً، ولكن الصلاة جاءت في البداية بصعوبة كبيرة. يمتد أمامي، كما من قبل، حقلٌ من الموت، وكومٌ تآكلها المطر ومتاريس مليئة بالمياه القذرة، وصفائح من التنك أو الخشب تحمل أسماء، وأجزاء من عظام بشرية، ورفش مكسور استُعمل في الماضي لحفر التراب. وكما من قبل، يرقد تحت هذه التربة مئات الألوف من المسلجين الموتى، والعديد منهم قد احتبسوا في قلبي الى الأبد. وكما من قبل، كانت نفسي مفعمة بالأسى البشري من أجل الراحلين، غير أن الاحساس الهاجس بالقنوط واليأس الذي استحوذ عليّ قد اختفى بعودة الصلاة.

وطهّرتْ الفترة الطويلة من الصلاة نفسي ووعيي، وجعلتني أدرك أن الله، مبدعَ الحياة، لا يدعونا لكي نترك القنوط والأسى يسيطران علينا؛ انه يريدنا أن نصلي من أجل الراقدين، انه يريدنا أن نفعل الخير باسمه وباسم والدته وباسم جميع الناس الأحياء على هذه الأرض.

أنهيت صلاتي وغادرت المدفن ببطء. كانت شمس الشتاء تستقر ببطء على الأفق، خلف الغابة. وقد تسلقت حدودُ الغابة الروابيَ الصغيرة وانحدرتْ

فجأة مخترقة اياها بطريقة جعلت رؤوس الجبال تبدو وكأنها تقطع السماء بمنشار عملاق. ومن جديد اختبأت الريح داخل الغابة والأعشاب، والآن لا يمكنك أن تسمع سوى الصمت الكامل فوق المدفن. بين الحين والآخر يمكن للمرء أن يميّز صوت هدير جرّارة، من مسافة بعيدة جداً. كان المنشار الدائري صامتاً.

من طرف الغابة يمكن سماع التغريد الحزين لأنثى الوقواق، وهي تبكي على رحيل فراخها. ثم توقفت هذه عن الغناء فبدأت أخرى من مكان بعيد جداً. كانت تعدّ السنوات المتبقية بعمر مَن[١٠]؟ هل كان الطائر يغني من أجل هؤلاء الموجودين في حقل الموت هذا، الذين انتهوا ولم يعودوا يحسبون الزمن؟ هل كانت الأغنية لي أنا الذي ما زلت أعيش في هذا المعسكر؟ ولكن الزمن المتبقي بحياتي لا يعرفه الا الله وحده.

سرت عائداً الى المعسكر وأنا مفعم بالذكريات. وبين الفينة والأخرى كان صوت الوقواق يخترق أفكاري، فتمر تلك الذكريات النائية من عهد طفولتي أمام عينيّ: أنا أسير مع والدتي داخل غابة، وهي تخبرني عن الأشجار، والأزهار، والأعشاب والطيور. في ذلك الحين كان هناك أيضاً طائر وقواق يغني. تذكرت اعترافي الأول، وأصدقائي الذين مضى على رحيلهم زمن بعيد، وكنيستي التي خدمت فيها سنين طوالاً. هل فكرت مرة في ذلك الحين بأني سوف أسمع صوت وقواق في مدفن معسكر ذي نظام قاسٍ، حيث دُفن العديد من الناس ـ ومعظمهم أبرياء ـ وقد شهدت وفاتهم؟ هل فكرت مرة بأنه سوف تكون لي علاقة بكل ما حدث هنا، وأنني ـ مثلهم تماماً ـ سوف أسير أيضاً على الطريق الصعبة، طريق العذاب والاذلال؟

---

[١٠] في المعتقدات الشعبية الروسية أن طائر الوقواق يصيح "كوكو" بعدد السنين المتبقية في عمر المرء.

لـمَ كل هذا يا ربي؟ لماذا تعـذب ومـات جميـع هـؤلاء النـاس؟ جميعـهم: مؤمنون وغير مؤمنين، صدّيقون، ومجرمون ارتكبوا جرائم يسـتحيل أن يفكـر بـها العقل البشري؟ لماذا؟ فأتاني الجواب:

"هذا أحد أسرارك يا رب، التي لا نستطيع نحن البشر ـ عبيد الخطيئـة ـ أن نفهمها. هذا السر هو سرّك. وطرقك لا تُعرَف. أنت وحدك تعـرف درب كـل حياة بشرية. وواجبنا فقط هو أن نعمـل الخـير بـاسمك وأن نسـير بحسـب تعـاليم الانجيل، وأن نصلي لك. وعندها سوف تُهزم قوى الشر، لأنه حيثما اجتمع اثنـان أو ثلاثة باسمك فهناك تكون أنـت أيضاً. ارحمـني يـا رب بحسـب عظيـم رحمتـك، وسامحني لأجل يأسي وضعف نفسي واضطرابي".

واستدرت الى الجهات الأربع، ورسمت علامة الصليب مباركاً جميع الذيـن يرقدون هنا. وانحنيـت بشـدة مودّعـاً اياهم. أرحْ يـا رب نفـوس عبيـدك السـابق رقادهم. حتى آخر يوم من حياتي سوف أتذكر الموجودين هنا تحت التراب.

واذ استعدت في ذهني أسماء جميـع الذيـن عرفتـهم، صليـت مـن أجلـهم، صليت من أجل سلامهم. وفي أثناء صلاتي ظهر امامي وجه كلٍ منهم بوضوح.

✣

كانت تلك السنة ١٩٥٧، وكان المعسكر يفرغ يوماً بعد يوم. وفي مكان مـا بالقرب من المعسكر انبثقت قرية عند حضور أناس أحرار من جميع أنحـاء روسـيا للعمل، للحلول محل السجناء العديدين الذين كانوا قد رحلوا. فظهرت شـوارع، وساحات، وصفوف من المنـازل. وجـاء أشـخاص لا علـم لهـم بوجـود معسـكرنا "الخاص" ولا بالمدفن الضحل المستنقعي حيث دُفن العديد العديد من الناس.

لقد ضاع الماضي في ذاكرة الناس.

"فليكن ذكرهم مؤبداً".

الرحيل

كانت نهاية العام ١٩٥٧ تقترب. وقد بقيـت لـلأب أرسـاني سـت سـنين أخرى حتى انتهاء "مدته"، اذ مُددت عقوبته في العام ١٩٥٢ عشر سـنوات جديـدة. وقد استُدعي الى الادارة مرات عدة. لقد اسـتدعوه واسـتجوبوه، وكتبـوا المحـاضر، وملأوا الاستمارات، وطلبوا تعليمات من مكان ما... وأخيراً في ربيع العـام ١٩٥٨، قيل للأب أرساني بأنه قد أُطلق سراحه بسبب العفو العـام. لقـد قيـل لـه ذلـك الآن، رغم أن جميع السجناء الآخرين المعنيين قد أُطلق سراحهم منذ سـنوات عـدة من جرّاء العفو العام نفسه.

لقد أنبأوا الأب أرساني ذلك عَرَضاً، وكأنهم يخبرونه بأن قد وصلـه طـردٌ من أحدهم، وليس أنه قد أمضى في المعسكر السنوات الأخيرة العديدة جداً دونمـا سبب. شخص واحد فقط، عضو في اللجنة المسؤولة، قال: "أنظـروا الى هـذا: مـا زال العجوز حياً، فعلينا اذن أن نخلي سبيله!"

وهكذا ألبسوه، وأعطوه أوراق السفر، والمال الـذي اسـتحقه لقـاء عملـه خلال تلك السنوات الأخيرة، ووثيقة تخوّله الحصول على أوراق الهوية متى وصـل الى وجهته. وجهته؟ أين هي وجهة الأب أرساني الآن؟عندما أعطوه أوراق السـفر سألوه الى أين هو متوجّه، فأعطى الأب أرساني اسم قرية قديمة بقرب ياروسـلافل، كان يتردد اليها منذ زمن بعيد، وكـان يعيـش فيـها مـن وقـت لآخـر عندمـا درس العصور القديمة. لم يعد معتاداً علـى الحريـة، ولم يسـتطع أن يتخيّـل الحيـاة خـارج المعسكر. وفي وضعه هذا، لم تكن وجهته لتغيّر شيئاً بالنسبة اليه.

وأرهقه الانهاك والتعب الذي لا يُسبر غوره، فقـرر: "ان كـل شـيء بـين يديّ الله. وسوف يهتم الله بكل شيء".

كان محتاجاً للراحة، ولتجميع قواه، ليكون وحده حتى يجد السلام والانسجام داخل نفسه في الصلاة. وعندها فقط كان ليستطيع أن يرى أبناءه الروحيين مجدداً. في ذلك الوقت لم تعد له أية قوة، وحدها الصلاة هي التي أبقته حياً.

وحلّ الربيع الشمالي بشكلٍ فجائي، وأذابت الرياح الدافئة الثلوج عن الروابي والطرقات. كان الطقس جافاً، ولم يبدأ البعوض هجماته بعد، بينما عادت طيور مبكّرة من هجرتها، وحمل الهواء النشاط والأمل. وخرج الأب أرساني من بوابات المعسكر وهو يحمل كيساً مليئاً بأغراضه الهزيلة، وينتعل حذاءً جديداً، ويلبس بنطلوناً أسود وسترة قطنية مبطنة جديدة، ويضع قبعة نموذجية ذات حاشية على الأذنين. وهبّت ريح ربيعية دافئة وبهيجة، مبعثرة شعره، ومضيفة حياة مميزة للصباح، وحاملة غبار الطريق بخفة.

واذ تجاوز الممرات، استدار باتجاه المعسكر وانحنى بشدة وباركه برسم علامة الصليب. ونظر اليه الحراس بدهشة: رجل طاعن في السن يرحل، رجل عجوز عاش هنا لسنوات كثيرة جداً.

سار مبتعداً عن المعسكر، وصعد تلاً على الطريق، ثم استدار من جديد باتجاه المعسكر وحدّق فيه. كان المشهد مثيراً للرثاء. لم يبقَ في المعسكر سوى تلك الأبراج القليلة والأسلاك الشائكة التي تحيط بالثكنات. ما وراء الأسلاك الشائكة يمكن للمرء أن يرى كوَماً من قطع القرميد، وثكنات نصف محروقة، وأعمدة هوت الى الأرض، وبقايا نصف متعفنة من أبراج الحراسة. وتذكر الأب أرساني هذا "المعسكر الخاص" عندما كان مليئاً، عندما كان هائل الاتساع، وكان يقضي فيه العديد من البشر حياتهم الرهيبة والمؤلمة.

أسرع الأب أرساني في السير على الطريق، وصلّى متذكراً العديد العديد من البشر الذين ماتوا هنا، وكذلك الذين أوصلهم الله الى الحرية. لقد مرّت سنوات عديدة ومعذبة منذ أن حضر الأب أرساني الى هنا في البداية،

سنوات طويلة جداً. الا أن الله لم يتخلَّ عنه مرة، بل حفظ الأبَ أرساني ملحاً اياه امكانية رؤية الكثير من الجمال في بحر الحزن هذا. لقد وجد هنا أناساً أظهروا له كل ما يجب أن يبحث عنه المسيحي الحقيقيّ، وأن يعمل من أجله.

هنا، وفيما كان محاطاً بالعذاب البشري والحزن، تعلّم أن يصلّي بصمت، وهو محاط بالبشر. هنا علّمه مثال العديد جداً من الصدّيقين، أو من البشر العاديين جداً، أن عليه أن يأخذ على نفسه عذابات الآخرين ويحملها، وأن هذا هو ناموس المسيح. وفي الصلاة شكر الأب أرساني الله ووالدة الاله، وجميع الذين عاشوا هنا وساعدوه وعلّموه.

ونقلت شاحنةٌ الأبَ أرساني الى قرية على مقربة من ذلك المكان، حيث يعمل الآن المراقب الذي لقّبوه بـ"الرجل العادل"، كموظف عادي. وكان من السهل ايجاد منزله.

ورغم ذلك، فقد كان من الصعب الاعتياد على جوّ القرية بكامله. لم يكن هناك صراخ ولا مجرمون، ولا برنامج لمواعيد النهار، ولا شتائم.

ثم رافق "الرجلُ العادل" – الذي أصبح اسمه أندريه ايفانوفيتش – وزوجته الأبَ أرساني الى محطة القطار. ان اليومين اللذين أمضاهما الأب أرساني مع أندريه ايفانوفيتش قد سمحا له أن يصدق فعلاً بأنه أصبح حراً. ودفع "الرجل العادل" مبلغاً اضافياً زيادة على بطاقة الأب أرساني حتى يتسنى له أن يسافر بمزيد من الراحة. وأُعطي الأب أرساني السرير الأسفل، فوضع رأسه فوق حقيبته وتمدد وأغمض عينيه.

كان القطار يقعقع عند كل مفصل في السكة، والدواليب تقرع بانتظام، وخلف النوافذ تمر غابة الصنوبر المستنقعية والصخور، وأنهار سيبيريا وبحيراتها. وظهر أناس أمام عينيه المغمضتين، وأناس غيرهم في صف متتابع. معظمهم ماتوا، الا أن بعضهم ما زالوا على قيد الحياة، ويمكن أن يلتقيهم الأب أرساني. وظهرت

له حياته الجديدة بشكل ضبابي. لم يكن يعرف شيئاً. الا أن الله موجود، وبمعونته يجب أن تبدأ هذه الحياة الجديدة بطريقة ما. ثم توقفت أفكاره المشوَّشة، وبدأ الأب أرساني يصلي.

وفجأة سمع: "من الأفضل لنا أن نراقب هذا. هنا واحدٌ خارجٌ من معسكر. ويمكن أن يسرقنا!" ثم أجاب صوت آخر هامساً: "لا أستطيع أن أفهم لِمَ يطلقون سراحه. فعلى جميعهم أن يُقتلوا رمياً بالرصاص. ففتح الأب أرساني عينيه ورأى مقابله ثنائياً شاباً...

القطار يتقدم، وهم يتجاوزون محطاتٍ وأنهاراً ومدناً. وعلى أرصفة محطات السكة الحديدية، كان البشر يسيرون ويتحدثون بحرية. كانت الحياة تُعاش.

وصلّى الأب أرساني من أجل حياته التي تبدأ حديثاً، ومن أجل جميع الذين مكثوا في المعسكر حتى نهاية حياتهم.

كان الربيع يظهر جلياً أكثر فأكثر، كلما تقدموا جنوباً. وبالاقتراب من موسكو، أضحى كل شيء مزهراً وكثير الألوان. لقد اختفى الماضي الرهيب المرتبط بالمعسكر الخاص، ولن يُعاش مرة جديدة. وفترة العذاب المخيف التي فُرضت على روسيا قد وصلت الى نهايتها.

صلّى الأب أرساني وهو ينظر من خلال النافذة دون أن يرى شيئاً. وشكر الله ووالدته وجميع القديسين من أجل الرحمة والمعونة اللتين تلقاهما. وسأل المعونة لجميع الذين عرفهم وأحبهم. كان القطار يقترب من المدينة حيث سيبدأ الأب أرساني حياته الجديدة، ويتابع خدمة الله والجنس البشري الذي خلقه.

كان يعتمد في كل حين على معونة والدة الاله الكلية القداسة

الجزء الثاني

الطريق

اني أتذكر

توقف القطار وترجّل منه الأب أرساني. كان ذلك في ربيع العام ١٩٥٨، وهو ربيع فاتن، مبهج، زاهٍ. كان الصباح مشرقاً وصافياً. وقد بقيت على الأرض بقعٌ من الثلج الذي لم يذب، وبركٌ زرقاء برّاقة تعكس السماء الربيعية.

سار الأب أرساني على طول رصيف المحطة وخرج الى الساحة المواجهة للمحطة. أجال بصره فيما حوله، وسمح له الأثير النقي والشفاف بأن يرى بجلاء كثير أجراس الكنائس البعيدة جداً، وقبابها، وصلبانها الملتوية أو المفقودة.

وكان الأب أرساني - بسترته القطنية المبطنة وقبعته ذات الحاشية على الأذنين، وصرّة ملابسه التي يحملها على ظهره، وبنحوله ولحيته الرمادية - كان يبدو للوهلة الأولى وكأنه عامل في مزرعة قد أتى الى المدينة لابتياع الطعام. ولكنك إن تفرّست فيه بتمعّن أكثر، لاحظت تفاصيل في ملبسه ومشيته وكلامه، ما يدلّك على أنه خارج للتوّ من معسكر سجن.

كانت المدينة هي نفسها كما منذ حوالي خمس وعشرين سنة. ولكنها بدت أيضاً بحال أكثر رداءة، وقد أصبحت أكثر قذارة وحزناً. حتى الطقس الربيعي لم يبث فيها الحياة. وعلى العكس فان النور البهيج لم يفعل سوى التركيز على كآبة المنازل الغير المدهونة، والمرمّمة على نحو رديء، والحجارة المتكسّرة التي ترصف الشوارع، والقمامة في القنوات الممتدة على طول الشوارع، وشكل المحلات والأكشاك المزري، الى جانب ثقل الوطأة الناتج عن غياب أي لون في أي مكان.

أخرج الأب أرساني من جيب سترته رسالة صغيرة تحمل عنواناً، وسار بلحثاً عن منزل ناديزدا بتروفنا. بدا له كل شيء غريباً: الناس، وما يقولونه، وما

يتكلمون عنه، وتصرفاتهم؛ والمدينة الصغيرة ذاتها، المدينة الصغيرة التي عرفها جيداً فيما مضى، وكثيراً ما زارها، وحتى انه عاش فيها فترات طويلة من الزمن.

شارع الدير، شارع النهر... صارت الآن شارع انجلز، وشارع مارات، والشارع السوفياتي، شارع لينين...

سار الأب أرساني مجتازاً المدينة كلها وهو يستعلم في طريقه عن عنوان البيت. وأخيراً ظهر أمام عينيه الشارع الذي كان يبحث عنه، على قمة رابية. وجد المنزل، ووصل الى البوابة. شدّ الجرس، وانتظر.

قرع الجرس مرات عدة. ورغم أنه سمع رنينه داخل البيت، الا أن احداً لم يخرج. أجال الأب أرساني النظر فيما حوله وهو فاقد العون. لم يعرف ما العمل. بدأ الطقس يتحوّل الى البرودة. وكان متعباً من رحلته، وانفعالاته، وعدم ثقته بمستقبله. وأحس بالضياع والارتباك: لقد كان شديد الاعتياد على نظام الحياة في المعسكر، وفجأة وجد نفسه في مواجهة صخب الحرية. كل هذا جعله يفقد تركيزه وسلامه. وأحسّ الأب أرساني بالضياع وهو واقف هنا أمام البوابة المقفلة. الى أين يستطيع الذهاب؟ ماذا باستطاعته أن يفعل؟ لم يكن يعرف أحداً في هذه المدينة. كان يحمل عنواناً آخر، ولكنه عجز عن العثور عليه، حتى بعد أن قلّب جيوبه كلها. كان من الضروري جداً أن يجد كائناً بشرياً يمكن أن يساعده في العثور على شقة للايجار. كان بحاجة الى الراحة، وبحاجة لأن يعيش لوحده لفترة قصيرة من الزمن لكي يتفهم حياته الجديدة، وليدخل في هذه الحياة الحرّة التي لم يعد معتاداً عليها بعد مرور كل تلك السنوات. وعندها فقط سوف يستطيع أن يراسل أبناءه الروحيين وأصدقاءه. ماذا بامكانه أن يفعل؟ لعل نادیزدا بتروفنا لم تعد تعيش هنا! كان هناك مقعد بجانب السياج، فمسحه الأب أرساني بقفازه، وجلس عليه منهكاً.

فيما بعد أخبر الأب أرساني: "بدأت أفكر: أدركتُ أني وقعت ضحية الكبرياء. لقد ظننت بأني قادر على أن أتدبر حياتي الجديدة بمفردي، من دون

أبنائي الروحيين، ومن دون أصدقائي. ظننت بأني سوف أعتاد على هذه الحياة. الا أن الله أظهر لي شيئاً مختلفاً، لقد أبان لي خطأي. كل ما يحيط بي كان مخيفاً، مجهولاً لديّ، غريباً. ان أملي الوحيد كان في الله".

لم يكن يمرّ العديد من الناس في هذا الشارع الضيق. كان العجوز المحدودب الظهر، بسترته القطنية المبطنة وصرّة ملابسه، يجلس على مقعد صغير وظهره الى السياج، ويبدو وكأنه مستغرق في أحلام اليقظة. لقد نأت المدينة الصغيرة والطريق وغابتا عنه. ولم تبقَ غير صلاته الى الله والى والدة الاله، حاضرة معه. طلب الأب أرساني المغفرة من أجل كبريائه، ونقص ثقته بمساعدة أصدقائه المقرّبين.

ومرّ الوقت. وبعد انقضاء نحو ثلاث ساعات، خرجت امرأة من البيت المجاور وسألت: "من تنتظر أيها المواطن؟" فنظر اليها الأب أرساني بتعجب، وفجأة وجد نفسه على مقعده الصغير في شارع مجهول، في مواجهة هذه المرأة المجهولة. وعندما أدرك أين هو، انتشل الورقة الصغيرة من جيبه وأجاب: "اني بانتظار نادیزدا بتروفنا". الا أن الأسئلة بقيت تتوارد عليه بكثرة وبسرعة: "من؟ من أين؟ لماذا؟ هل أنت في هذه المدينة منذ وقت طويل؟"

فأجاب الأب أرساني متهرّباً: "أنا صديق. لقد جئت لأزورها، بما أني لم أرها منذ زمن بعيد". وبدا أنه من المستحيل وضع حد للأسئلة الفضولية. ولكن امرأة وصلت في تلك اللحظة، وأدرك الأب أرساني أنها لا بد أن تكون نادیزدا بتروفنا.

هكذا وصل الأب أرساني الى هذه المدينة الصغيرة، وهكذا تعرّف الى نادیزدا بتروفنا نفسها التي سيمضي في منزلها الخمس عشرة السنة الأخيرة من حياته.

كان الأب أرساني قد تعرّف الى زوج ناديزدا بتروفنا في المعسكر سنة ١٩٥٢، واسمه بافيل. وكان بافيل مريضاً للغاية. ولكنه عمل حتى نهاية حياته في ظروف بالغة الصعوبة. وأصبح بافيل صديقاً للأب أرساني، وطلب اليه، إن استعاد حريته يوماً، أن يجد زوجته ويخبرها عنه. كما طلب من الأب أرساني أن يساعد ناديزدا بتروفنا بأية وسيلة أمكنه ذلك.

وفي نهاية العام ١٩٥٨، كتب الأب أرساني الى بعض أصدقائه - وكان لا يزال في المعسكر - طالباً اليهم أن يجدوا ناديزدا بتروفنا. فعثروا عليها بعد جهد جهيد، وكانت تعيش في ذلك الحين في المنزل الصغير نفسه حيث وجدها الأب أرساني لاحقاً. فكتب اليها رسالة طويلة ومفصّلة يخبرها فيها كل ما عرفه عن بافيل - بخصوص حياته في المعسكر، وأيامه الأخيرة. فردّت على رسالة الأب أرساني وعرضت بأن تؤجره غرفة في منزلها عند اخلاء سراحه من المعسكر.

ورحّبت ناديزدا بتروفنا بالأب أرساني، ومكث في منزلها لبعض الأيام. ولكنه أحسّ بأن البقاء هناك قد يكون صعباً عليه، لأن كل شيء بدا له غريباً. لقد شعر بالخجل عندما كان يصلي. شعر بأنه ضيف، رغم كونه يملك غرفة خاصة.

وفي هذه الأثناء عثر على العنوان الآخر في أحد جيوبه. فشكر ناديزدا بتروفنا، وذهب الى ماريا سيرجييفنا التي كانت من معارفه منذ زمن بعيد، وابنة روحية له من موسكو.

وروت ناديزدا بتروفنا: "بعد حوالي عشرة أيام ذهبت لأقوم بزيارة قصيرة للأب أرساني. وماذا رأيت؟ البيت قديم ومتداعٍ، والأب أرساني يسكن في غرفة صغيرة بحجم الخزانة، وينام فوق سرير خفيف ومكسور، قابل للطيّ، وعليه غطاء رث. وماريا سيرجييفنا امرأة متقدمة في العمر لدرجة أنها عاجزة عن الاهتمام بالأب أرساني، كونها تحتاج الى العناية هي نفسها... بكلمات أخرى: الأعرج يقود الأعمى. فرحت أرجوه أن يعود الى بيتي.

"نظر اليّ باتضاع وقال: "هل تعتقدين فعلاً بأن هذا ممكن؟ أنت تعلمين بأني كاهن، أمضي أوقاتاً طويلة في الصلاة كل مرة، وأقوم بخدَم كنسية في البيت. بينما أنتِ لا تؤمنين بالله، أنت ملحدة. ومن جهة أخرى فاني سأتلقى زيارات من أصدقائي، ولن يأتي القليل منهم، بل سيأتي الكثيرون. لن أكون نزيلاً مناسباً بالنسبة لك"!.

وكتبت ناديزدا بتروفنا: "كان باستطاعتي أن ألاحظ بأن ماريا سيرجييفنا هي الأخرى لا توافق على انتقاله الى منزلي. ولكني - لسبب لم أدركه - شعرتُ بشفقة هائلة عليه، لذا فقد رجعت في اليوم التالي وأعدته الى بيتي. وأعطيت الأب أرساني غرفة فسيحة ذات نوافذ مطلة على الحديقة. وهي غرفة هادئة، خالية من الضجيج، وشرعت بالاهتمام به: فأنا أعيش بمفردي... لديّ الكثير من أوقات الفراغ، وأقرأ كثيراً... وهذا الأمر سوف يشغلني. كما وجدت بأنه شخص مثير للاهتمام، انسان مميز. في البداية لم استطع أن أتبيّن ما الأمر المميز فيه. كان يصلي النهار بطوله، والمساء كله، وكذلك الأمر في الليل، ومن جديد أيضاً في الصباح. لقد أحضر معه أيقونة من عند ماريا سيرجييفنا، وعلّقها في الزاوية. وأضاء سراجاً من الزيت وأبقاه مشتعلاً على الدوام. كل هذا بدا لي غريباً: لم أستطع أن أفهمه. ظننت أنه غير مثقف، أو ربما متعصب تضرّر عقلُه من مشقة العيش في المعسكر. ولكني أدركتُ بعد أن بدأت أتبادل الحديث معه، بأنه ليس متفوق الذكاء فحسب، بل ذا ثقافة عالية أيضاً. بدأت أراقبه عن قرب. وكانت لنا في بعض الأحيان أحاديث طويلة، وكنت أرى أمامي رجلاً ذا معرفة هائلة وثقافة هائلة. وفوق ذلك كله، كان فيه أمر خاص جداً: كان روحانياً الى درجة بعيدة، وذا قلب لم أجد مثله في حياتي. وقد لزمني من الوقت حوالي شهر ونصف لكي أتوصل الى هذه الاستنتاجات.

"وبمراقبتي للأب أرساني، لاحظت أنه ما زال غير معتاد على الحرية، وأن حياة المعسكر ما زالت تراوده بكل وجوهها المخيفة. أخبرني بأن هناك أشخاصاً سوف يأتون لزيارته، لكن أحداً لم يأتِ، لا أحد. كما أنه لم يتلقَّ أية رسائل، ولم

يكتب واحدة. واكتشفت فيما بعد أنه طلب من ماريا سيرجييفنا ألا تعطي عنوانه لأحد.

"في الأسابيع الثلاثة الأولى لم يتحرك من البيت. ولكنه بدأ بعد ذلك بالخروج، للجلوس على المقعد الصغير المجاور للبوابة".

وفيما بعد أخبرتْ ناديزدا بتروفنا: "بدأت أتبادل الحديث مع الأب أرساني، فسألته عن نفسه وأخبرته عن نفسي. طلبت منه الاذن للانضمام اليه عندما يصلي أو يخدم. في هذه الأوقات كان يتحوّل الى شخص مختلف كلياً، وهذا ما أثّر فيّ أني لم أرَ انساناً مثله من قبل على الاطلاق.

"أذكر أمسية كنت مصابة فيها بانهيار عصبي رهيب. فقد شعرت بضيق الصدر وبالحزن الشديد. كان ولداي الميتان، يوري وسيرجي، أمام عينيّ في كل لحظة. كما تذكرت زوجي، وانسلّ شيء قاتم الى داخل نفسي. أردت أن أرتمي على الأرض، وأن أضرب رأسي بها بعنف، لأبكي وأجهش من أجل كل ما فقدت، ما فقدت الى الأبد. وبدت لي الحياة تافهة ودون جدوى. لأي سبب أعيش؟ لماذا؟...

"كنت وحدي في البيت. بيتر أندريفيتش نفسه، المنهك والذي فقد صلته بالحياة الحقيقية، يعجز عن مساعدتي. ومع ذلك فلم يكن يوجد غيره في الجوار، فدخلت غرفته باكية. لقد سيطر عليّ احساس بالفراغ والغضب، فدخلت الغرفة حتى من دون أن أقرع الباب. كان بيتر أندريفيتش واقفاً في الزاوية، مقابل أيقونة والدة الاله، وسراج الزيت يرتعش. وكان يصلي بصوت عال. لقد دخلت غرفته بطريقة غير مهذبة، ودون أن أقرع، ورغم ذلك فانه لم يستدر. توقفت، وسمعت بجلاء كلمات صلاته، لأنها كانت ملفوظة بوضوح:

"يا ملكتي الحبيبة، ورجائي، يا والدة الاله، المحامية عن اليتامى والمحامية عن المتألّمين، مخلّصة الهالكين، وعزاء جميع الذين في الضيقات. أنت ترين شقائي، أنت ترين حزني ووحدتي. ساعديني، فاني عاجز، أعطيني القوة. أنت تعرفين بأني

أتعذب، وتعرفين حزني. أمددي لي يدك لأنه مَن سواكِ يمكن أن يكون رجائي ونصيري وشفيعي أمام الله؟ لقد خطئت أمامكِ وأمام جميع الناس. كوني أمي ومعزيتي ومعونتي. حامي عني وخلصيني، أقصي عني الحزن بعيداً، أقصي وهن قلبي وكآبتي. ساعديني يا والدة الهي!"

"أنهى الأب أرساني صلاته ورسم علامة الصليب. وانحنى وسجد مرات عدة. وتلا صلاة أخرى لم أعد أذكرها، ثم نهض. وكنت واقفة هناك، أمسك عضادة الباب، وأجهش بالبكاء بصوت عال، ودموعي تنهمر بغزارة. وكان باستطاعتي أن أسمع في ذهني كلمات صلاته الى والدة الاله. ويمكنني أن أقول اليوم بأني حفظت هذه الكلمات حتى نهاية حياتي. ويمكنني أن أسترجعها فوراً والى الأبد، وبالوضوح نفسه، كما سمعتها في ذلك اليوم. وعندما انتهى، استطعت أن أقول من خلال بكائي: "اني بحال رهيبة! ساعدني!"

"لم يسألني عن شيء البتة، بل جذبني بعيداً عن الباب وأجلسني على كرسي. فبدأت الكلام من خلال بكائي...

"تكلمت طويلاً، لساعات عدة. واستمع اليّ الأب أرساني، ويداه على مكتبه، من دون أن تبدر عنه حركة، من دون أن يقاطعني، أو يصحّح ما كنت أقول. وعندما انتهيت، كنت منذهلة لأني استطعت أن أقول كل ما فعلته. فوقف الأب أرساني وتقدم نحو الأيقونة. فحص سراج الزيت، ورسم علامة الصليب مرات عدة، ثم بدأ بالكلام. والأرجح أنه لم يتكلم كثيراً، الا أن ما قاله جعلني أفهم معاناتي تحت ضوء جديد، وبطريقة لم أنتبه لها من قبل. فهمت أني عانيت العذاب أيضاً بسبب كل الأعمال التي اقترفتها. وأدركت أن أناساً آخرين قد تعذبوا أيضاً بسبب ما فعلته، ولكني لم أفكر بهم، بل نسيت ألمهم. فلمَ عليّ أن أكون أفضل حالاً مما كانوا عليه؟

"قال الأب أرساني: "حسن أنكِ أخبرتني عن حياتك بكاملها، لأن الانفتاح الكليّ هو بداية تنقية الضمير البشري. سوف تجدين نفسك يا ناديزدا

بتروفنا"! ثم باركني ثلاث مرات. لم أصبح مؤمنة على الفور، ولكني أدركت أن ثمة أمراً هاماً، أمراً شديد الأهمية، قد أقصيته عني بعيداً ولم أتبيّنه من قبل. هذا ما اكتشفته أخيراً بمعونة الله والأب أرساني.

"هذه المحادثة قرّبتنا من بعضنا البعض. أصبح الأب أرساني أقل خجلاً مني، وتخلّى عن تحفظه. وأصبح أكثر اهتماماً بما يحدث حوله. وفي نهاية الشهر الثاني كان قد كتب بضعة رسائل، وبعد ثلاثة أيام أو أربعة على الأرجح، حضر لزيارته بضعة أشخاص...

"بعد خمسة أشهر أو ستة أصبحت ابنة الأب أرساني الروحية، واعترفت له"...

مذكرات امرأة تدعى تاتيانا

سأخبر الآن قصة الأب أرساني عندما كان في منزل ناديزدا بتروفنا.

كانت الغرفة التي أعطتها ناديزدا بتروفنا للأب أرساني فسيحة، تطل نوافذها على الحديقة حيث زُرعت أشجار التفاح والكرز، ونباتات رماد الجبل. ولم تكن حديقة الجار منظورة، الا أنه كان بامكان المرء أن يبصرها قليلاً في الشتاء، من خلال الشجيرات الكثيفة التي فقدت أوراقها.

وفي وقت مبكر من الصباح، كان ديك صدئ اللون يطير فوق السياج ويصيح بتعال. هذا هو الوقت الذي اعتاد فيه الأب أرساني أن ينهض ويبدأ صلواته الصباحية. وبعدها يعود الى السرير لينهض في الساعة السابعة ويبدأ بالخدمة حتى التاسعة. وكان جميع ابنائه الروحيين الحاضرين يصلّون معه بين الساعة السابعة والساعة التاسعة. وكانت ناديزدا بتروفنا تنضم اليهم أحياناً. وبعد الخدمة، كان من عادته أن يتحدث مع الذين أتوا، أو أن يكتب الرسائل. وفي بعض الأحيان، وعندما يشعر بالتوعك، كان يملي رسائله. كان يقرأ العديد من الكتب حول الفن، ويكتب المقالات.

العديد من الناس أتوا، أجل العديد جداً.

كانت من بينهم فيرا دانيلوفنا. وهي طويلة القامة، بيضاء الشعر، عليها سيماء الجدية. ويبدو من المستحيل مقاربتها، ولكنها كانت في الحقيقة شخصاً طيباً للغاية. وربما كانت الصديقة الأقرب للأب أرساني، وابنة روحية التجأت اليه في وقت مبكر جداً من حياتها. كانت طبيبة، وكنا جميعنا تقريباً من مرضاها. كما أتت طبيبتان أخريان: لودميلا وجوليا اللتان كانت من العمر نفسه.

وكانت ثمة امرأة جميلة تدعى ايرينا، يتراوح عمرها بين ٤٥ و٥٠ سنة. وهي الأخرى طبيبة، وقد جاءت بصحبة زوجها وأولادها. كلهنّ اهتممن بالأب أرساني، واعتنين بصحته، ونجحن أحياناً في أخذه الى موسكو للاستشفاء في عيادة. كان الأب أرساني يعترض على الدوام بالقول انه لا يريد الذهاب، ولكنه كان يتعرض لضغط كبير جداً لدرجة أنه يضطر للانصياع. في هذه الأوقات كانت نادیزدا بتروفنا تقوم بتوضيب أغراضه. و"يُطرد" الأب أرساني من المنزل. وعند رحيله، كان يقول على الدوام الكلام نفسه: "أنا بصحة ممتازة، انه خيالكم فقط ..."

كما أذكر زيارات المهندس سازيكوف، الوسيم والأنيق الملبس، وكان يعبد الأب أرساني. وجرت العادة أن يتمشى مع الأب أرساني في الحديقة ويتحدث معه. كان سازيكوف سريع الخاطر، ذكياً، ويبدو مرحاً ولكنه يحمل في عينيه البنيتين حزناً دائماً. وكثيراً ما جاء. وقد تحدث اليّ خلال احدى زياراته، وأخبرني بأنه كان في المعسكر مع الأب أرساني، وأنه كان سارقاً ولصاً مشهوراً.

وقد عجبتُ، وأجبته بأنه يمزح على الأرجح. لكن سازيكوف قال: "كلا، لست أمزح. أنا مجرم سابق انتشلني الأب أرساني من عالم الجريمة". وكان يبدو سازيكوف وكأنه انسان مستغرق تماماً في ايمانه وعمله. لم أعرف من هو، أو من أي نوع هو. لقد علّمنا الأب أرساني ألا نطرح الأسئلة على أحد اطلاقاً

وأذكر زائراً آخر، رجلاً أشيب الشعر، ذا وجه يدل على القوة. كان يمشي كالجندي، وله عينان حادتان. هذا ذهب مباشرة الى الأب أرساني وحيّا بصمت جميع الذين كانوا في منزل نادیزدا بتروفنا.

كان الأب أرساني يرحّب بفرح ومودة بكل من يأتي لزيارته، الا أنه رحّب بهذا الشخص بحرارة مميزة وبحميمية. لم نعلم من هو، ولم نكن بالطبع لنطرح أي سؤال عنه.

وفي أحد الأيام دعاني الأب أرساني الى غرفته وقال لي: "أعرّفكِ بايفان ألكسندروفيتش أبروسيموف[1]. عندما أرحل لا تتخلّي عنه". فأردت أن أعترض، الا أن الأب أرساني قال باصرار ووضوح: "لا تتخلّي عنه! لا تتخلّي عنه! وأنت يا ايفان ألكسندروفيتش، كن صديقاً لتاتيانا، صديقاً مخلصاً. وعندما أرحل جِد لنفسك كاهناً آخر".

وهكذا أصبحنا نعرف ايفان ألكسندروفيتش.

وكثيراً ما أتى أليوشا - الطالب أليوشا في المعسكر. لست بحاجة للتكلم عنه، فاننا نعرفه الآن باسم الأب ألكسي الذي يخدم ويهتم بالرعية التي كان يخدمها الأب أرساني.

عندما كان الأب أرساني على قيد الحياة، كان أليوشا المرح، المشرق، صاحب العينين الزرقاوين، سنده وأمله. كان لطيفاً وطيب القلب، وشديد التأثر تجاه معاناة الناس، ولطيفاً مع الجميع. كان يعرف الخدم الليتورجية معرفة جيدة جداً، ويصلي بعمق. من كان ليتصوّر بأن ألكسي سوف ينتهي به المطاف كأب روحي للعديد منا؟

وأذكر لقاء سازيكوف وأبروسيموف عند الأب أرساني. كما أذكر لقاءهما بألكسي. هؤلاء رحّبوا ببعضهم البعض بالطريقة المميزة التي لا نجدها الا حيث توجد الروابط العميقة الأعمق بكثير من الصداقة العادية. لا أعرف ان

[1] ايفان ألكسندروفيتش أبروسيموف هو الرائد الذي كان قائد المعسكر الخاص لفترة من الزمن، وقد أوصل رسالة الى الأب أرساني.

كان حتى الاخوة الأحباء يمكن أن يلتقوا بهذه الطريقة. وكان سازيكوف وأبروسيموف مولعان ببيتر، ابن ألكسي. فأغرقاه بالألعاب وغيرها من الهدايا.

لقد أتى العديد من الناس لدرجة أنه يستحيل عليّ أن أكتب عن كل منهم... كان الناس يأتون ويرحلون. يكتبون الرسائل ويتلقون الاجابات، ويحملونَ معهم السلام، والايمان، والأمل بشيء أفضل، وجزءاً من روح الأب أرساني نفسه. وكثيراً ما لاحظت أن الأب أرساني نفسه يتلقى شيئاً من كل شخص يأتيه، وأنه كان ينتظر عودتهم بلهفة:

– "كل شخص تلتقين به يُغْنيكِ، ويحضر اليك جزءاً من النور والفرح. حتى ولو أحضر اليك حزنه، فستجدين في كل شيء ارادة الله. وعندما تجدين أن هذا الشخص قد توصّل الى تقبّل حزنه، فستفرحين معه في الوقت نفسه. الا أن بعض أبنائي الروحيين يجدّدونني في كل مرة ألتقيهم. انهم نوري وفرحي! "

وما أكثر ما صلّيت مع الأب أرساني. كنا نقف في الغرفة الشبه المظلمة، حيث يشع سراجا الزيت نورهما على الأيقونات، بينما يقوم الأب أرساني بالخدمة. كان يقرأ بطريقة شديدة الوضوح، فيسمع المرء كل كلمة. ويكون مستغرقاً في صلاته بشكل تام.

وكان يركع الأب أرساني ويقرأ بهدوء أفاشين الكهنة، فيُدخل السلام الى داخل السامع، ويبدأ بالصلاة الى الله من أجل رحمته عليه... كان الأب أرساني يقود الى نور الصلاة المانح النور والدفء. ان امكانية الصلاة مع الأب أرساني كانت لنا جميعاً فرحةً عظيمة على الدوام.

هذه المدوّنات كتبتها ت. ب. التي تعرّفت الى الأب أرساني سنة ١٩٥٩، وهي تشعر بأنها لا تملك ما يكفي من الكلمات لتخبر كل ما يجب عن الأب أرساني.

عودة من الماضي

استعاد الأب أرساني صحته وعافيته تدريجياً وببطء شديد. وحتى بعد انقضاء ثلاث سنوات في الحرية، فانه لم يتغيّر كثيراً. واذ كان الى حدّ ما طويل القامة، نالحل الجسم، ويقف مستقيماً على الدوام، فقد كان يعطي الانطباع بتمتعه بصحة جيدة. كان انتباهه ومودته تجاه أيّ من يتكلم معه تجعل المرء ينسى بأنه شخص مريض ومتعب.

كانت عيناه تظهران حزينتين في بعض الأحيان فقط ، فيبدو أنه يلازمه أسى الكثيرين ومعاناتهم. كلنا عرفنا أنه لم ينسَ يوماً أي انسان التقاه في حياته. عندما كان في المعسكر ذي النظام الخاص، لم يهتم بمرضه، رغم أنه قد عانى على الأرجح أكثر من معظم الناس. هنا في الحرية، أصبح مرضه واضحاً أكثر: كانت الالتهابات المفصلية، ونوبات من تسارع خفقان القلب المفاجئة، تضطره أحياناً الى ملازمة الفراش لبعض الوقت. الا أن هذا لم يغيّر نمط حياته. فقد كان من عادته أن يتحدث الى زائريه حتى وهو ممدد على السرير. وحدها عينا الطبيبة ايرينا اليقظتان كانتا تستطيعان تبيّن أمراضه. فلم تكن تأبه لاعتراضاته، بل تجبره على ملازمة السرير. وكان العديد من الزوار يأتون يومياً، ويرتفع عددهم في أيام العطلات. وهكذا لم يعد للأب أرساني الوقت الكافي للصلاة. وبما أنه لم يكن يستطيع العيش بدون صلاة، فقد صار يصلي ليلاً، مختصراً بهذا ساعات نومه.

لقد أحبّه أصدقاؤه، ورغم ذلك فعندما كانوا يأتون لزيارته، أو يكتبون له الصفحات تلو الصفحات، كان كل واحد منهم يظن بأنه وحده من يفعل ذلك. فنتج عن هذا كله حِمْلٌ هائل على كاهل الأب أرساني. وهكذا ورغم محبتنا له، فمن الممكن أننا كنا ندمّره دون قصد منا.

في بعض الأحيان كان يضطر للسفر الى مدينة أخرى لزيارة أحد أبنائه الروحيين.

وفي نهاية العام ١٩٦٠ قرر الأب أرساني الذهاب الى لينينغراد للعثور على الشخصَين اللذين أعطاه الراهب المحتضر ميخائيل عنوانيهما. فذهبت معه. وقد وصلنا الى لينينغراد في وقت مبكر جداً من الصباح. وبما أن الأب أرساني لم يشأ التوقف عند بعض الأصدقاء لأخذ قسط من الراحة، فقد ذهب مباشرة من محطة القطار الى العنوان الذي يحمله. وقد رجوته ألا يفعل ذلك، اذ لم يكن يعلم حتى إن كان هذان الشخصان ما زالا يقطنان في هذا العنوان. وعندما عرضت عليه أن أذهب بنفسي للتأكد من ذلك، أجابني: "لا حاجة لذلك. هيا بنا، انهما يقطنان هناك بالفعل".

نزلنا من القطار. وظهرت لنا الأمور غير مألوفة، وبدت معقدة كما هي الحال على الدوام في مدينة جديدة. ورفض الأب أرساني أن يستقلّ تاكسي، ووجد محطة توقف باص، وجذبني الى داخله. فقطعنا مسافة الطريق بصمت. وراح الأب أرساني يراقب الشوارع والأشخاص والمنازل بانتباه شديد. ثم نزلنا في وسط بروسبكت نيفسكي، وسرنا في شارع مقاطع له. كان المبنى الذي توقفنا أمامه ضخماً، بعلو حوالي ستة طوابق، مع مدخلَين مَهيبَين. كان على جانب أحدهما لوحات برونزية ضخمة تحمل أسماء ــ دليل على أن المبنى كان يشغله في وقت ما بعض العلماء الرفيعي الشأن، أو بعض الأساتذة. ركبنا المصعد الى الطابق الرابع. واذا بالباب يحمل لوحة عليها اسم الشخص الذي نبحث عنه. فقرعتُ الجرس.

فُتح الباب، وسألت امرأة في حوالي الخامسة والأربعين من العمر: "مَن تطلبان؟" فأعطى الأب أرساني اسم عائلة صاحب الشقة واسمه واسم والده.

فمسحت المرأة يديها بمئزرها وقالت بلطف شديد: "تفضلا، أرجوكما". فدخلنا الردهة، وقالت: "أرجو أن تنتظرا برهة قصيرة، فسوف يأتي خلال دقيقة". وفتحت باباً بقي مفتوحاً جزئياً، وقالت: "سيرجي سيرجييفيتش! هنا من

يطلبك!" وحالاً تقريباً خرج رجل من الغرفة. كان طويل القامة، ذا وجه وسيم وصافٍ، ولحية سوداء. وكانت عيناه السوداوان الواسعتان مفعمتين بالحياة والانتباه بشكل لافت للنظر. فنظر الينا وسأل: "كيف أستطيع أن أخدمكما؟"

وردّ الأب أرساني: "أنا أحمل لك رسالة"

فأجاب: "أنا مسرور جداً، مسرور جداً. اخلعا معطفيكما".

فحشرنا معطفينا في خزانة ممتلئة، ودخلنا الغرفة الفسيحة التي خرج منها سيرجي سيرجييفيتش.

كان ثمة مكتب هائل الحجم بالقرب من النافذة، يشغل حوالي ربع الغرفة، وأثاث أثري على امتداد الجدران. وكانت الجدران مغطاة بلوحات رائعة جنباً الى جنب مع أيقونات أثرية. ورفوف ثقيلة تكتظ بالكتب. كانت الكتب في كل مكان: على المكتب، وحتى على بعض الكراسي. وفي وسط الغرفة طاولة عليها غطاء أبيض. فانطبعت صورة هذه الغرفة في ذاكرتي، وأوضحت لي جلياً نوع هذا الشخص، صاحب الشقة.

وسأل سيرجي سيرجييفيتش من جديد: "اذن، ماذا يمكنني أن أفعل لكما؟" وسألَنا الجلوس. وبقيت المرأة التي فتحت لنا الباب هي أيضاً في الغرفة، واقفة بجانب المكتب.

– "في العام ١٩٥٢ سمح لي الله بالتعرّف الى رجل يدعى ميخائيل تيربوغوف. التقيته في معسكر ذي نظام خاص لم يتم اخلاء سبيلي منه سوى في العام ١٩٥٨. وقد أعطاني ميخائيل، خلال اعترافه، اسمك وعنوانك. وطلب اليّ أن أراك بالتأكيد. لقد قال لي ان ذلك سيكون أساسياً لك ولي. وطلب اليّ أن أسألك ألا تنساه في صلواتك. كما أراد مني أن أخبرك عن لحظاته الأخيرة على هذه الأرض".

كاد سيرجي سيرجييفيتش يقفز عن كرسيّه، وأصبح متوتراً، وصارت عيناه حتى أكثر سواداً من قبل. وظهر عليه القلق بوضوح. نظر الى الأب أرساني لدقائق قليلة، ثم وقف فجأة وقال ببرودة شديدة: "أنا أعتذر، لقد أخطأتَ، فأنا لست الشخص الذي تبحث عنه. أنت تبتغي رؤية شخص آخر. والأرجح أنك تحمل عنواناً مغلوطاً".

فخطت المرأة الواقفة بجانب الطاولة خطوة نحو الأمام، وقالت في شبه أنين وبصوت دامع: "سيرجي".

– "دعي الأمر يا ليزا. انهما مخطئان. لقد حضرا الى عنوان مغلوط. أنا آسف! لا أستطيع أن أطلب منكما البقاء! لقد حدث خطأ ما..." كان يتكلم باضطراب. فوقفنا وشرعنا بالمغادرة بعجلة. لم يتكلم أحد. لبستُ معطفي، وأعطيت الأب أرساني معطفه. كانت المرأة قد بقيت في الغرفة، ولكنها ركضت فيما بعد الى الأب أرساني، وأمسكت بذراعه وقالت: "قل لي من أنت! وما اسمك؟"

فقال: "بيتر أندريفيتش سترلتزوف – الكاهن الراهب أرساني". كما أعطاها اسمي. "لقد أتينا من ر. خصوصاً لرؤيتكما!

– "انتظر، لا ترحل. عد أدراجك واجلس من جديد! انتظر ٢٠ دقيقة. لا تغضب يا سيرجي!" وخرجت المرأة من الغرفة مسرعة، وراحت تتصل بأحدهم بالهاتف.

كنا ما زلنا في الردهة، غير واثقين مما سنفعل. كنا نستطيع أن نسمع صوت المرأة من داخل الغرفة: "هذه أنا ليزا! أرجوكِ، دعي كل شيء وتعالي الى هنا حالاً. الأمر مستعجل. ستفهمين كل شيء. سوف تساعدينا!"

نظر سيرجي سيرجييفيتش الى البعيد وهو شارد الذهن، وجلس الى مكتبه. وركضت المرأة الى المطبخ ثم ظهرت بعد خمس دقائق حاملة أناء من الشاي

وفناجين وبعض الحلوى. ومرت فترة قصيرة كنا كلنا في خلالها صامتين، وكان الجو محرجاً وثقيلاً. فحاولت أن أكون غير متكلفة، وبدأت بالكلام على اللوحات المعلقة على الجدران. فبذل سيرجي سيرجييفيتش مجهوداً واضحاً، وأعطانا أسماء الفنانين، وأخبرنا عن لوحتين أو ثلاث. في هذه الأثناء نهض الأب أرساني وتقدم نحو أيقونة تصوِّر والدة الاله. وتأمل فيها لوقت طويل، ثم قال: "أيقونة ممتازة. فن هائل، وروحانية هائلة، واتحاد هائل بين العنصر البشري والالهي في وجه والدة الاله، نادراً ما تصادفه".

– "ان سيرجي سيرجييفيتش أيضاً يحب هذه الأيقونة، ولكنه يعجز عن أن يحدد بالضبط الزمن الذي رُسمت فيه. هل لديك معرفة ما بالأيقونات؟"

فأجاب الأب أرساني: "أعرف القليل". ثم تقدم من جديد نحو الأيقونة، ودرسها بعناية. ثم سأل سيرجي سيرجييفيتش: "هل لي بأن أرفعها عن الجدار؟ فاني أود أن أتناولها بيديّ". فبدا سيرجي سيرجييفيتش مستاءً من هذا الطلب، ورفعها بنفسه عن الجدار، وراح يريها للأب أرساني. كان الأب أرساني يريد أن يتناولها بين يديه. الا أن سيرجي سيرجييفيتش تراجع خطوة الى الخلف، ما يدل جلياً على أنه لا يرغب بأن يلمس غريب كنزه. ولكنه بعد القاء نظرة عن قرب على الأب أرساني، دفع اليه الأيقونة بعناية فائقة.

نظرنا، أنا والسيدة، الى الأب أرساني بدهشة عظيمة: كانت يداه، والحناءة رأسه، وهيئته بالكامل تنم عن ورع شديد، وكأنه يحمل الكأس المقدسة التي تحتوي على جسد المسيح ودمه. ولا شك أن سيرجي سيرجييفيتش رأى ذلك أيضاً.

حمل الأب أرساني الأيقونة بيديه وتقدم الى النافذة... ولم يرجعها الى سيرجي سيرجييفيتش، بل وضعها على الطاولة بعناية.

فنزل النور الداخل من النافذة على غطاء الطاولة الأبيض، وعلى الأيقونة. وكدت أصرخ: لقد ظهر وجه والدة الاله في نور الشمس مدهشاً في

روعته. أما حيث كانت الأيقونة معلقة على الجدار، فلم يكن بالامكان رؤية هذا... وبدا وجهها مفعماً بفرح أمومي وبالحزن في آن.

وبقي الأب أرساني صامتاً حين نظر سيرجي سيرجييفيتش الى الأيقونة وهو في حال من النشوة. لم يكن قد رآها بهذه الطريقة من قبل... ثم رفع رأسه ببطء لينظر الى الأب أرساني. وعندها أدركتُ أنه وثق به، وأراد بأن يكون هو الرجل الذي عرف ميخائيل.

انتصب الأب أرساني وقال وهو ينظر الى الأيقونة: "هل من أهمية كبيرة بالحقيقة في معرفة متى رُسمت هذه الأيقونة، وبيد من؟ هذا النوع من الأمور لا يهمّ سوى مؤرخي الفن. أنظر فقط الى وجهَي الطفل وأم الاله، واذا كنت مؤمناً، فسوف تفهم أنه لا يمكن لانسان أن يرسم مثل هذه الأيقونة من دون معونة الله. أنظر فقط!

- "متى رُسمت؟ في بداية القرن السابع عشر. أين؟ ومن كان الفنان الذي رسمها؟ وحده الله يعلم، الله الذي ألهم الفنان. لوح الخشب قديم جداً، وقد رُسم عليه مرات عدة، أيقونة فوق أخرى. وهذه الأيقونة الأخيرة قد خضعت للترميم، ولكن منذ عهد بعيد جداً. وكل هذا لا أهمية له على الاطلاق، لأن روح الله ساكن في هذه الأيقونة. أنظر! أيّ سلام يشعّ من وجهَي الأم والطفل معاً. كان راسم الأيقونة مفعماً بمحبة المسيح والايمان به، فنمّى موهبته بالايمان والمحبة. لذا نجد أن وجه الأم روحاني وصادق بدرجة كبيرة، حتى انه يعزي كل الذين هم تحت وطأة الكآبة والحزن، والمحرومين، والعراة، واليتامى والمسجونين، والذين أوشكوا أن يفقدوا ثقتهم بالعدالة الانسانية، والضعفاء. انه يحيي مثل هؤلاء الناس، ويعيد اليهم الأمل، ويذكّرهم بوجود حياة أخرى، خالية من الرعب والخوف، من الدم ومن شرّ هذا العالم. ان وجه الأم يدعونا ويعطينا الأمل بالخلاص."

رنّ جرس الباب في الردهة. وركضت اليزافيتا أندرييفنا (كما عرّفنا بها فيما بعد سيرجي سيرجييفيتش) لتفتح الباب. وكان باستطاعتنا أن نسمع همساً

في الرواق: امرأتان تتحدثان، واحداهما تخلع معطفها. كان سيرجي سيرجييفيتش متوتراً، وبدا أنها ستكون مأساة بالنسبة اليه: اذا اكتشف بأن الأب أرساني ليس الرجل الذي قال عن نفسه ما قال.

فُتح الباب، ودخلت اليزافيتا أندرييفنا تتبعها امرأة أخرى ركضت الى الأب أرساني قائلة: "أيها الأب أرساني! أيها الأب أرساني! ما أروع مجيئك. يا الهي، لماذا لم تعلمني بقدومك؟ قالت لي ليزا ان سيرجي سيرجييفيتش يعتقد بأنك عميل. كنت أخبر ليزا عنك. وأشكر الله على أنها فكرت بالاتصال بي. لقد أردت أن آخذهما معي للتعرف اليك منذ وقت طويل! هذا رائع. أرجوك أن تباركني!"

وفي الحال تغيّر كل شيء. ومكث الأب أرساني في منزل سيرجي سيرجييفيتش مدة أربعة أيام. ووجدتُ صديق ميخائيل الثاني، وقد حضر هو الآخر للقاء الأب أرساني.

وفي طريق العودة الى البيت قال لي الأب أرساني: "ان طرق الرب خفيّة! كم من الروعة منحني هذا اللقاء، لقد منحني بوفرة ما كنت بحاجة اليه".

بعد ذلك صار من عادتي أن أرى سيرجي سيرجييفيتش وليزا وصديق ميخائيل الآخر يزورون الأب أرساني لسنوات عديدة.

١٩٦٧

اني أتذكر

أجل اني أتذكر! لن أنسى في حياتي "المعسكر الخاص". وحتى اليوم، وبعد انقضاء سنوات عديدة، ما زالت الحياة في المعسكر حاضرة بصورة حيّة في ذاكرتي. اني أتذكر كل تفصيل دقيق، كما تعاودني الكوابيس عينها في الليالي.

كان الحراس يصرخون بوجوه سلخطة: "أيها النتن، النكرة، سوف أرسلك الى زنزانة العقاب! سوف أرميك بالرصاص!" وكان المجرمون يصرخون: "سوف أقتلك! سوف أخنقك!" وكنا كلنا نعلم بأن هذه ليست مجرد تهديدات، بل أفعال أكيدة حصلت باستمرار أمام أعيننا. فأنت لا ترتاح فعلاً في الليل، لأن الليل في الحقيقة منهِك ويوقع الكآبة في النفس، ويسبب لك العذاب حتى أكثر من النهار الذي انقضى لتوّه. ولم تكن لتعلم البتة متى تنتهي اقامتك في هذا المعسكر، اذ ما أن تبدو قريباً من الحرية حتى يضيفون الى عقوبتك بضعة سنوات جديدة دون أي سبب على الاطلاق.

تمّ نقلي مرة الى ثكنة أخرى. وفي اليوم الرابع لاقامتي هناك، وفيما كنت ذاهباً الى المراحيض، لاحظت رجلاً يقف على الدوام أمام سريره. ماذا كان يفعل واقفاً طوال الليل؟ قال لي الرجال انه يصلي. وكان بعض السجناء المارّين بالقرب منه يهزأون به.

سوف نموت هنا في جميع الأحوال، فلمَ يصلي؟ لأي سبب؟ عندما كنت ما زلت حراً سمعت بأن بعض الناس يؤمنون بالله، وأنهم تعرّضوا للنفي لمقاومتهم السلطات. في عائلتي، كان الدين والتطيّر يعتبران دليلين على نقص الثقافة والذكاء. ماذا يقدّم الايمان للناس؟ وبماذا نؤمن هنا، في معسكر حيث على الجميع أن يموتوا؟ واذ سيطر عليّ اليأس، قررت أن أنتحر. كنت ميتاً في نظر عائلتي:

عندما استعلموا عني في موسكو، عرفت أن الجواب كان بالتأكيد: "ليس موجوداً على لوائحنا". لقد اتخذت قراري. لا أريد أن أموت عندما يقرر الحراس أو المجرمون، ولا عندما يصبح الجوع أو البرد فوق طاقتي على الاحتمال. أريد أن أموت الآن. لقد تعذبت بما فيه الكفاية. سوف أضع حداً لكل شيء. هل هذا جبن؟ لا بل ضرورة. حيث يوجد الأمل يمكن النضال من أجل الحياة. وليس من أمل هنا في هذا المعسكر: بل يقين بالموت الاستشهادي وحسب. وذهبت في احدى الليالي الى المراحيض، فرأيت بالقرب منها عارضة خشبية استعملها العديد من الآخرين للغرض نفسه. وسرقت قطعة من حبلٍ حملتها على جسدي. يجب أن أنهي الأمور بسرعة. لن أعيش أكثر: هذا ما أريده.

وفيما كنت أمرّ بين الأسرّة، تجاوزت الرجل العجوز. ها هو يقف ويصلي كالمعتاد، وكل الآخرين نائمون. لا يبدو أن الرجل العجوز ينتبه اليّ، فهو مستغرق كثيراً في الصلاة. أريد أن أتجاوزه بسرعة وأن أضع حداً لكل شيء. وفيما أنا سائر، فجأة استدار الرجل العجوز وسار معي في موازاة الأسرّة. ثم أمسكني بذراعي وقال: "اجلس! أنت لست وحيداً هنا. فثمة العديد منا يراودهم الشعور نفسه، ولكن الله معنا!"

فجلست، وتكلم معي هامساً، بهدوء وبصوت خفيض، ومحبة. وأصغيت الى الرجل العجوز، ومن حيث لا أتوقع، وجدت نفسي أردّ عليه. آنئذٍ كرهته لأنه يعترض طريقي، ولا يعنيه ما قررت أن أفعله بخصوص حياتي. فبدأ يتكلم عن حياتي، وهو يعرفها بالتفصيل لدرجة زرعت فيّ الرعب. كيف يعرف حياتي كلها؟

انه هادئ، نعم. انه يفهم بأن الأمر شاق عليّ. أنا مريض، ومنهك ومتألم ومحتقَر وجائع. ولكن كل هذا يمكن التغلب عليه - ويجب التغلب عليه - واذا أردتُ، فستكون الغلبة لي.

أنا غاضب جداً، وأريد أن أؤذيه. فقلت له أشياء غير مستحبة عنه، وحاولت أن أمشي. فتمسّك بذراعي وتابع كلامه. فقاطعته، ولكنه تابع الكلام

بهدوء وسلام. قال لي انه ليس للانسان الحق بأن يدمّر حياته، بل عليه أن يناضل للمحافظة عليها. بدأت أصغي للرجل العجوز، وفهمت أيضاً أنه بدأ يساعدني سرّاً منذ الآن. لم يتغيّر شيء في الحقيقة بالنسبة اليّ، ولكني لم أعد وحيداً.

انه لا يفرض الهه عليّ، بل يذكره فقط. الرجل العجوز في هذه المرحلة يساعدني وحسب. شعرت بأنه يتمتع بقوة داخلية خاصة، أنا لا أملكها. شعرت بأن هذا الرجل يأخذ على عاتقه كل حزني اليائس، وكل ثقل حياتي في هذا المعسكر. سوف يحمل كل شيء معي، الى جانبي. ولن أذهب الى العارضة كما كنت قد قررت، بل أبقى معه الى الأبد. ولم أعلم سوى في وقت لاحق أنه في الواقع ليس عجوزاً البتة، الا أنه عاش في هذا المعسكر سنوات عدة. كان بعض الناس ينادونه "بيتر أندريفيتش"، بينما يناديه آخرون "الأب أرساني". لن أنسى أبداً هذا الاسم أو هذه الصورة له، أو حياته.

لقد افتتح لي الأب أرساني حياة جديدة، قادني الى الله، وأعاد خلق ذاتي الداخلية. لهذا أريد أن أخبر الآن حوله ما هو أساسي. اذ يستطيع المرء أن يتكلم عنه دون نهاية اذ لم تكن لأعماله حدود. وتختصر هذه الأعمال بـ"الله" و"المحبة": المحبة التي كان يشعر بها للناس باسم الرب. اني أتذكر كلماته: "يجب على كل انسان، قبل أن يموت، أن يخلّف شيئاً وراءه، عليه أن يترك أثراً من أي نوع كان. قد يكون ذلك بيتاً بناه بيديه، أو شجرة زرعها، أو كتاباً ألّفه. ولكن مهما كان ذلك، يجب أن يكون قد قام به ليس لنفسه بل من أجل الآخرين. ومهما صنعت يداك، سيكون ذلك العلامة التي تتركها بعد وفاتك. سوف ينظر الناس الى ما صنعتَ، أو زرعتَ، وسوف تعيش من جديد عبر جلبك الفرح لهم، وسوف يتذكرونك ويسألون الرب أن يباركك. ليس المهم ما تصنعه، بل المهم أن ما كوّنته يصبح أفضل مما كان قبلاً. سوف يحتوي على قبس منك، اذا كنت قد عملته باسم الله ومحبة الآخرين". قال الأب أرساني: "الشيء الأهم هو مساعدة الآخرين، والتخفيف من عذاباتهم، والصلاة من أجلهم".

هكذا عاش الأب أرساني، وهذا ما علّمه لكل الذين أتوا اليه. كان يمنح أثمن شيء عنده: حرارة روحه، وايمانه، وخبرته في عيش ايمانه. لقد علّمنا كيف نصلّي، وحوّل قبس الله الموجود في كلٍ منا الى نار. كيف يمكن لأي شخص عرفه أن ينسى أعماله؟ الكثيرون أتوا اليه وعادوا يحملون معهم كل هذا، لقد أخذنا الكثير من الفرح والسلام من الأب أرساني.

لقد اختبرت كل هذا بنفسي. رأيته، ورأيت كيف كان الناس يتحوّلون، يتجددون ويتقوّون... والكثير من الناس الذي عاشوا الى جانبه توفوا، الا أنهم لم يتركوا هذا العالم غاضبين أو يائسين، بل كانوا عوض ذلك مستنيرين ومشرقين بالايمان بالله. ولم تبدُ لهم حياتهم الرهيبة في المعسكر كعذاب لا يستحقونه، بل كنوع من امتحان لا بد منه، وطريق نحو الله.

عندما كان يكلمك، كنت تدرك أنه يعرف عنك أكثر مما تعرف عن نفسك. كان يعرف ما ينتظرك. كانت عيناه يقظتين ووديعتين. وعندما تنظر الى عينيه، كنت تكتسب القوة والسلام. وعندما يتكلم، كان صوته مقنعاً لدرجة أنك تثق به وتعرف تماماً بأنه على حق.

كان شجاعاً وقوياً في كل شيء. لم يكن يخاف شيئاً. كان الله، الله، والله وحده هو قوته وملجأه ورجاؤه. واذ تقوّى بهذا، فقد كان يقف قوياً في وسط كل الصعوبات وكل العذابات.

عندما أصبح راهباً أُعطي اسم "أرساني"، و"أرساني" يعني "شجاع"، فيا له من اسم ملائم.

لقد أُخلي سبيلي من المعسكر قبله بسنوات عدة، فصرت أراسله باستمرار. وعندما أُطلق سراحه بحثت عنه في كل مكان، وأخيراً التقيت به من جديد في المدينة الصغيرة التي قطن فيها.

عندما تدخل الى غرفة الأب أرساني، تلاحظ أولاً أيقونة والدة الاله، سيدة فلاديمير[٢]، وأيقونة سيدة قازان، وأيقونة يسوع المسيح التي لم ترسمها يد[٣]، وأيقونتَي القديس نيقولاوس والقديس يوحنا اللاهوتي. كانت الايقونات قديمة ومرسومة بطريقة ممتازة. وسراجان من الزيت يضيئان على الدوام أمام الأيقونات، أحدهما أحمر اللون، والآخر أخضر. وبجوار الأيقونات كوب من البلور يحتوي على بعض الأزهار النضرة. وفوق الطاولة الصغيرة نفسها التي عليها غطاء أبيض، وُضع الانجيل، وكتاب المزامير، وكتاب خدمة، وكذلك كتاب الميناون المختص بأيام السنة. وعلى مكتبه، بالقرب من النافذة، كانت هناك كتب كثيرة: حول اللاهوت، وتاريخ الفن، وفن العمارة القديم، ومؤلفات شعرية لشعراء معاصرين وكلاسيكيين، وكذلك مؤلفات تقنية حول الالحاد.

كانت هناك خزانة مليئة بالكتب بموازاة أحد الجدران، وبموازاة جدار آخر أريكة طويلة قديمة كان باستطاعة الأب أرساني أن يرتاح عليها في النهار، وينام عليها في الليل. وتكمِّل أثاث غرفته ثلاثُ كراسٍ قديمة مريحة ذات ذراعين. كما عُلِّقت على الجدار لوحات لفنانين معاصرين مشهورين قدّموها للأب أرساني، ومعظم هذه اللوحات تقريباً تمثِّل الطبيعة.

عندما عاد الأب أرساني من المعسكر لم يعد يخدم في كنيسة. وقد عاش الأشهر الأولى بعد خروجه من المعسكر في عزلة. بعد ذلك أحاطت به عائلة روحية كبيرة جداً، عائلة كانت منتشرة في كل أنحاء الاتحاد السوفياتي.

---

[٢] سيدة فلاديمير هي رسم مميز في الحنان لمريم العذراء وابنها يسوع المسيح.

[٣] يقول التقليد ان وجه المسيح كان مطبوعاً على المنديل الذي أعطته اياه مريم المجدلية ليمسح به وجهه من العرق، عندما كان معلقاً على الصليب. والايقونة رسم لهذا المنديل.

جاء أناس، وكتب أناس (والحقيقة أنهم لم يكتبوا له على عنوانه، بما أن هذا قد يعرِّضه واياهم للخطر: بل كتبوا الى أبناء روحيين آخرين قد أحضروا بدورهم الرسائل الى الأب أرساني. كان يتلقى ما يتراوح بين ١٨ و٢٠ رسالة في اليوم). وكان يأتيه شخصان أو ثلاثة يومياً. أما في السبوت والآحاد، فقد كان يزوره عدد غير معقول من الناس: حتى عشرة أشخاص في يوم واحد! هذه الأيام كانت تُقلق ناديزدا بتروفنا عليه.

كان أبناء الأب أرساني الروحيين عديدين، وكلٌ منهم يزوره مرتين في السنة على الأقل. وقد وضعت ناديزدا بتروفنا في احدى غرف بيتها الصغير سريرَين حتى يستطيع الزوار أن يمضوا الليل عليهما. وعندما كان عددهم يزيد على اثنين، كان بعضهم يضطر للنوم على الأرض.

ولم ينسَ الأب أرساني اهتمامه بالفن، بل كرّس له أوقات فراغه. ولكن الواقع أنه لم تكن له أية أوقات فراغ. ورغم ذلك، فقد تدبر أمره لكتابة بضعة مقالات قليلة، ولكن لم يشأ أي ناشر أن يطبع أعماله لأنه من الاكليروس. وقد حاول أحد أصدقائه أن يقنع بعض معارفه بنشر أعماله، حتى لا يُنسى اسم بيتر أندريفيتش سترلتزوف.

كان الأب أرساني ينهض كل صباح في الساعة السادسة، ويذهب الى النوم عند منتصف الليل. كان يصلي دون انقطاع، ويقيم القداس الالهي يومياً، ويستمع الى الاعترافات، ويتحدث الى زواره.

كان سراجا الزيت يشتعلان، وبالامكان سماع صوته الهادئ وهو يصلي. كانت الصلاة معه خبرة مبهجة – اذ ان نعمة الله تنير المصلي معه. كان يصلي بحرارة شديدة، وبروحانية عميقة، وباجلال كبير لسيدتنا والدة الاله.

كان يتلو خدمة مديح والدة الاله، سيدة فلاديمير، بطريقة تجعلك تنسى أين أنت، ومن يوجد معك. وعندما يقول الكلمات الأخيرة في الخدمة: "افرحي يا فائقة القداسة والدة الاله التي أظهرتِ لنا رحمتكِ من خلال أيقونتك" كان يشيد بكمال والدة الاله الذي لا حدّ له، ويتضرع اليها أن تساعد أبناءه الروحيين الذين يذكر أسماءهم واحداً فواحداً.

ومرة في الأسبوع كان يقيم خدمة تذكار الراقدين، وفيها يصلي من أجل آلاف الأشخاص. كانت هذه الخدم تؤثر فينا، نحن الحاضرين، أيّما تأثير. فبينما هو يصلي من أجل الموتى، كان بامكانك أن ترى بأنه يحمل كل واحد منهم في ذاكرته، وأنه يشعر بحضور كلٍ منهم. وفي بعض الأحيان كان الأب أرساني يبكي، فنشعر، نحن المصلّين معه، كم كان الراحلون أحباء على قلبه، وحاضرين بالنسبة اليه.

وكان الناس الذين يأتون لزيارته يرحلون حاملين معهم على الدوام مخزوناً من القوة والايمان، والرغبة في مساعدة الآخرين، وتحسين تصرفاتهم هم أنفسهم.

أذكر زيارة الأسقف ن. في سنة ١٩٦٢: كان لاهوتياً رزيناً وفيلسوفاً. وكما يقول الكثيرون أيضاً، معرِّفاً عظيماً. لقد جاء للاعتراف الى الأب أرساني، وكان العديد من أبناء الأب أرساني الروحيين يرتادون الكنيسة التي يخدم فيها الأسقف ن.

وقد مكث عنده مدة يومين اعترف خلالهما الى الأب أرساني، كما استمع الى اعترافه. وقد تكلما عن الموت، وعن مستقبل الكنيسة في الاتحاد السوفياتي، وعما هو مهم في نظر المؤمنين. واذ تفحص مكتبة الأب أرساني بعناية قال: "ان الانسان المؤمن لا يحتاج سوى الى الانجيل والكتاب المقدس، ومؤلفات الآباء القديسين. كل ما تبقى لا يستحق أن يوليه الاهتمام".

فبقي الأب أرساني صامتاً للحظات ثم أجاب: "أنت على حق يا صاحب السيادة، فان أكثر الأمور أهمية تحويه هذه الكتب، ولكن علينا أن نتذكر بأن الانسان، بحسب تطوره في أيامنا هذه، هو شديد الاختلاف عن الانسان الذي عاش في القرن الرابع. لقد اتسع أفق المعرفة، ويستطيع العلم الآن أن يفسر ما كان مغلقاً على الفهم في ذلك الزمن. ويجب على الكهنة اليوم أن يعرفوا الكثير لكي يتمكنوا من مساعدة المؤمنين على فهم المتناقضات التي يعاينونها. على الكاهن أن يفهم نظرية النسبية، والالحاد المتحمّس، وأحدث اكتشافات علم الأحياء، والطب، ومعظم الفلسفة المعاصرة. فهو يتلقى زيارات تلاميذ في الطب والكيمياء والفيزياء، تماماً كما يتلقى زيارات عمال من الطبقة الكادحة. ولكل واحد منهم يجب اعطاء جواب عن أسئلته، حتى لا يبدو أن الديانة قد تخطاها الزمن، أو أنها لا تعطي سوى نصف اجابة".

كان الأب أرساني يصلي دون انقطاع: سواء كان يفكر بشيء ما، أو يتمشّى، أو يذهب الى مكان ما، كان بامكانك أن تلاحظ حركة شفتيه الخفيفة، وهما يتمتمان صلاة يسوع: "ربي يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ".

لقد عاش لمساعدة الناس بأي طريقة ممكنة. وحتى في المعسكر، حيث كان هو نفسه يعاني من سوء التغذية ومن الانهاك، فقد ساعد الآخرين، وقام بعملهم مكانهم، واهتم بالمرضى، مشاطراً اياهم حصته الغذائية الهزيلة...

وأعرف أنه بطريقة صلاته، وبطريقة حياته، قد أنار وما زال ينير الطريق للعديد، العديد جداً من الناس.

من مذكرات أ. ر. ش. ١٩٦٧-١٩٦٩

ايرينا

كان ذلك في العام ١٩٣٩. منذ سنوات قليلة كان الأب أرساني قد أنهى أول اقامة له في معسكر، ولكن ليُحكم عليه بالنفي الى كوستروما، وأرخانجلسك، وبيرم، وفولوغدا، وهي مناطق نائية. وكانت تلك السنة هي وحدها التي عاشها بالقرب من محطة قطار. كانت القرية صغيرة، ولكن اتفق أن السيدة العجوز التي قطن الأب أرساني في بيتها كانت مؤمنة، وطيبة وشفوقة. وقد أصبحت في وقت قصير ابنته الروحية.

ويوم عيد زياح الصليب المحيي، في الرابع عشر من آب (بحسب التقويم القديم)[٤] ترك الأب أرساني مكان نفيه سراً وذهب الى هذه المدينة الصغيرة للاقامة فيها لوقت قصير عند احدى بناته الروحيات الأكثر قرابة له: ناتاليا بتروفنا أستاهوفا.

لم يكن يعرف بقدومه سوى سبعة أشخاص، اصدقائه الأكثر اخلاصاً. كانت شقة عائلة أستاهوفا في الطابق الثالث، في مبنى شقُقه ذات حجارة ضخمة. وتمّ الاتفاق على ألا يخرج الأب أرساني الى الشارع. وكانت ناتاليا بتروفنا تذهب مع زوجها الى العمل كل صباح، فيبقى الأب أرساني في الشقة. وتقرر أنه لن يفتح الباب لأحد. فاذا جاء أحد "السبعة"، فسيقرع الجرس بطريقة مميزة، وعندها يفتح الأب أرساني الباب دون أن يسأل عمن يكون الزائر.

وأُبقيت اقامته سراً للجميع. كان رسمياً في المنفى، في الشمال. وقد أتى للاجتماع بأسقفَين، للتشاور في مستقبل الكنيسة في ظل هذه الأزمة الصعبة.

[٤] تتبع الكنيسة الروسية الأرثوذكسية التقويم اليولياني أو "القديم"، وهو متأخر ١٣ يوماً عن التقويم المدني، أو "الجديد".

وكان من المقرر أن يتمّ الاجتماع في منزل رسام مشهور في قرية أبرامزيفو. وجاء يوم التاسع عشر من آب، يوم عيد التجلي (بحسب التقويم القديم). لقد أمضى الأب أرساني وقته كله في شقة أستاهوفا، في كتابة الرسائل الى أصدقائه وأبنائه الروحيين. وكان يعطي الرسائل الى أحد أصدقائه السبعة، وهم بدورهم يسلمونها الى بعض من أصدقائهم الذين سوف يوصلونها حتماً وبأمان، الى المرسَلة اليهم. والذين استلموا الرسائل افترضوا بأنها كُتبت في المنفى ووصلتهم على يد أصدقاء من هناك.

كانت الأيام الستة الأولى هادئة. وقام الأب أرساني بخدمتَي الغروب والسحر اللتين تسبقان العيد. واستمع الى الاعترافات، وأقام خدمة القداس الالهي نهار العيد بصحبة أصدقائه الذين تناولوا الأسرار المقدسة من يده.

بعد ذلك ذهبوا جميعاً الى العمل، وبقي الأب أرساني بمفرده. كان سعيداً وهادئاً بعد خدمة العيد. ولم يكن هناك من سبب لانشغال البال. لم يستلم برقية من مارفا أندرييفنا (لقد اتفقا على أنها ستخطره بهذه الطريقة اذا جاء من يسأل عنه). هذا يعني بأن أحداً لم يلاحظ غيابه. ولا تبيّن وجود أي سبب يستدعي القلق هنا. بدا وكأن أحداً لا يراقبه.

جثا الأب أرساني وصلى، شاكراً الله على رحمته، لأنه سمح له باقامة القداس الالهي في هذا العيد العظيم، والاشتراك فيه مع أصدقائه. كانت الشقة هادئة وفي سلام. جلس الأب أرساني الى طاولته ليكتب الرسائل. كتب على قصاصات رفيعة من الورق، فهي أسهل للاخفاء... وكان ينهض من حين الى آخر، فيتقدم نحو النافذة وينظر ــ عبر الستارة ــ الى المتجر الواقع على جهة الشارع المقابلة. وقد ظن بأنه ميّز قامة امرأة تسير ذهاباً واياباً في هذا المكان منذ أيام. وكانت تنظر بانتباه شديد الى نوافذ الشقة التي يقيم فيها الأب أرساني.

وتساءل الأب أرساني: "هل هم يراقبونني، أم أني أتخيل أموراً؟". لم يخرج من البيت، ولم يلاحظ أن أحداً يراقبه عندما وصل، ولا يعرف بوجوده سوى

أصدقائه المقربين. فقال في نفسه: "أنا أتصرف كشخص مصاب بجنون الارتياب". وصلى الأب أرساني وعاد يجلس الى طاولته للكتابة. قاربت الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً. فحص الأب أرساني سراج الزيت وبدأ يصلي...

وفجأة قطع صلاته رنينُ الجرس العنيف. وكانت هذه هي العلامة المتفق عليها: رنّة طويلة، وثلاث رنّات قصيرة، ثم واحدة طويلة، ومن جديد واحدة قصيرة. وتساءل الأب أرساني: "من عساه يكون القادم؟ اني لا أنتظر أحداً اليوم. ماذا حدث؟"

رنّ الجرس من جديد، باصرار وبصوت عالٍ.

فذهب الأب أرساني ليفتح الباب، وهو منشغل البال لأن أصدقاءه وحدهم يمكن أن يقرعوا بهذه الطريقة. لا بد أن أمراً ما قد حصل.

وفكر: "ربما وصلت برقية من مارفا أندرييفنا".

دخل الأب أرساني الردهة، ورسم علامة الصليب، ووضع رجاءه على والدة الاله، ثم فتح الباب. وفي الحال دفعت امرأة مجهولة الباب بقدمها، ودخلت عنوة. كانت في حوالي الثانية والعشرين من عمرها. وقد دفعت الأب أرساني جانباً وهي تدخل الى غرفة الجلوس.

- "أنا من "الادارة السوفياتية". هذه أوراقي، أنظر بنفسك. أنت - سترلتزوف بيتر أندريفيتش - تعيش هنا منذ ستة أيام. لقد أُرسلتُ لكي أراقبك خلال النهار، وفي الليل يأتي غيري ليحلّ محلي في المراقبة".

وأحس الأب أرساني بالضياع. علم بوجود رسائل من أبنائه الروحيين على مكتبه، وأنه في هذه المدينة بدون اذن السلطات. شعر بالخوف من أجل سلامة أصدقائه الذين قد يتأذوا بسبب هذا كله.

فصلى بصمت: "يا الله، يا والدة الاله، أعينيني!" كان أمر واحد واضحاً بالنسبة اليه: أن العديد من الناس قد يتم اعتقالهم بسببه...

كانت المرأة جميلة، شابة، ومن الواضح أنها ذكية. كانت ترتدي ملابس غير لافتة للنظر، والأرجح حتى لا يلاحظها أحد عندما تتواجد بين الناس.

- "أنت تفهم، أنا من "الادارة"، وكنت أراقبك من الخارج. ولكن أمراً مريعاً حصل لي شخصياً: لقد أصيبت ابنتي بمرض حاد. اتصلتُ بالمنزل، فأخبروني بالأمر. ان درجة حرارتها تفوق ٤٠ مئوية، وحلقها متورّم، ووجهها أزرق اللون. وهي تعاني من صعوبة في التنفس. وكل هذا مفاجئ جداً. عندما غادرت المنزل هذا الصباح، كانت بصحة جيدة. والآن تقول لي والدتي: "تانيا تحتضر". فاتصلت برؤسائي وطلبت منهم أن يرسلوا شخصاً ليحلّ محلي، ولكنهم رفضوا. وحظّروا عليّ أن أترك موقعي. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ ابنتي تحتضر وعليّ أن أنقذها. يجب أن أذهب لايجاد طبيب، فوالدتي لا تعرف كيفية التصرف. تاتيانا تحتضر، وعليّ أن أذهب الى البيت. لن يحضر الذي سيحلّ محلي الا في الساعة الخامسة بعد الظهر. عندي مطلب كبير أسألك اياه: أرجوك ألا تذهب الى أي مكان. عِدني بأنك لن ترحل. أتوسل اليك ألا تغادر الشقة: فسوف تقضي عليّ. ومطلب آخر: ان أتى أحد لرؤيتك، فقد يأتي أحدهم معه، وعليّ أن أعرف بالأمر، وأن أبلّغ السلطات عنه. أصدقاؤك الذين يعملون لحسابنا يقولون انك انسان طيب، وتساعد الآخرين. أرجوك ألا تخرج من هنا. عِدني بذلك. تاتيانا مريضة جداً، ولم يُسمح لي بأن أكون الى جانبها".

وفهم الأب أرساني كل شيء. لم تعد بحاجة لاضافة شيء آخر. لقد قرأ في عينيها أكثر بكثير مما استطاعت قوله عن نفسها.

- "اذهبي الى ابنتك، لن أذهب الى أي مكان. وان أتى أحد فسأعلمك بالأمر! اذهبي".

- "أشكرك أيها المواطن سترلتزوف! أشكرك. سوف أعود في الساعة الثالثة، وأشغل موقعي من جديد". ثم أضافت، لسبب مجهول: "اسمي آنّا".

وأُغلق الباب بعنف، وبقي الأب أرساني وحيداً. كان سراج الزيت يشتعل، وكتاب الصلاة مفتوحاً، وعلى الطاولة العديد من الرسائل.

لقد عرفت الـ .N.K.V.D[٥] كل شيء. لقد علموا بوجوده هنا. كان تحت المراقبة، والآخرون تحت المراقبة أيضا. أرادوا أن يعرفوا هوية كل الذين يزورونه، لتوقيفهم لاحقاً. ان آنّا هذه التي جاءت الى البيت، التي عرفت العلامة، والتي اضطرت للذهاب لرؤية ابنتها المريضة، رغم عدم سماح السلطات لها بذلك، وجُملتها الرهيبة: "اصدقاؤك الذين يعملون لحسابنا"، والاجتماع المقرر مع الأسقفين، ومرض ابنة آنّا المفاجئ، كل هذا قرأه الأب أرساني كسلسلة من الأحداث أرسلتها حكمة الله العظيمة.

وقعت وطأة ما جرى على الأب أرساني وكادت تسحقه تحت أفكاره ومشاعره. كان خائفاً. وقد أحس بمسؤوليته تجاه مصير الآخرين، وامكانية معاناتهم العذاب والخوف. أجل، كان مجيئه الى هنا غلطة.

تناول الأب أرساني كتاب الصلاة وسقط على ركبتيه وبدأ يقرأ مديح والدة الاله، سيدة فلاديمير، بدءاً من المكان الذي توقف عنده بسبب قرع جرس آنّا. الا أن الجمل كانت تقفز هنا وهناك أمامه، فلم يستطع أن يفهم الكلمات المألوفة والمحبوبة التي يقرأها. ثم استعاد سيطرته على نفسه تدريجياً، ونسي كل

[٥] بالروسية، اختصار لعبارة "مفوضية الشعب للشؤون الداخلية". وهي شرطة سياسية سوفياتية رأت النور سنة ١٩٣٤، وتمتعت بسلطات بوليسية وقضائية، وصارت في وقت قصير وسيلة رهيبة للتطهير (كان بيريا أحد رؤسائها، وقد اغتيل سنة ١٩٥٣). وفي العام ١٩٤١ انتقلت صلاحياتها الرئيسية الى الـ .N.K. G. B، أي "هيئة الشعب لسلامة الدولة".

همومه الأرضية، ودخل في الصلاة بالعمق. لقد صلى حوالي ثلاث ساعات. قرأ مديح العذراء وصلوات أخرى، وقام بخدمة صلاة الشكر.

كان ما حصل دليلاً على رحمة الله العظيمة ، وعنايته بالأب أرساني وبأصدقائه وأبنائه الروحيين. وغادرته المخاوف والهموم.

وفي الساعة الثالثة قُرع الجرس من جديد، ففتح الأب أرساني الباب ودخلت آنّا راكضة. وقالت بعفوية:

- "أشكر الله أنك ما زلت هنا.

- "ما زلتُ هنا، ولم أذهب الى أي مكان. ولم ياتِ أحد لزيارتي. عودي الى موقعك يا ايرينا".

كانت المرأة منهكة، ولكن ما أن دعاها الأب أرساني باسم ايرينا حتى ارتجفت وسألت بخوف: "لِمَ دعوتني ايرينا؟"

فأجاب الأب أرساني: اذهبي يا ايرينا، اذهبي!"

فبدت الدموع في عينيها وهمست: "اني أشكرك".

- " يا رب! أنت قلت لي أن أناديها ايرينا. أنت وحدك تعرف كل شيء، أيها الرب الكلي القدرة".

صار باستطاعته أن يرى ايرينا تمشي ذهاباً واياباً على الجهة المقابلة من الشارع. وعند الساعة الخامسة جاء رجل وحلّ محلها.

قرر الأب أرساني ألا يقول شيئاً لناتاليا بتروفنا ولا لزوجها، ولا لأصدقائهم الذين قد يأتون هذا المساء. فان اطلاعهم على الأمر لن يغيّر شيئاً

سوى أنه سيقلقهم أشد القلق. وألحّ عليه صوت داخلي بأن عليه أن ينتظر حتى الغد، وأن كل شيء بين يديّ الله.

وقام الأب أرساني بتحضيراته توقعاً للأسوأ: أحرق كل الرسائل التي كتبها واستلمها، وطلب من ناتاليا بتروفنا أن تحرق كل ما يمكن أن يعرّض للخطر.

وفي العشرين من شهر آب أقام خدمة القداس الالهي في وقت مبكر. وبعد أن ذهبت ناتاليا بتروفنا وزوجها الى العمل، بدأ يصلي. لكن صلاته لم تتدفق بسهولة. لم يكن في سلام، بل كان مضطرباً. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، سمع الجرس وفتح الباب، فرأى ايرينا.

أدخلها الأب أرساني وجلس الى طاولته وانتظر.

- "لقد جئت لأراك. استطعت أن أُدخل تانيا الى مستشفى بصعوبة بالغة. أنا شديدة القلق بخصوص ما سيحصل لها. أشكرك على ما فعلته البارحة. لقد اتصلت بالسلطات ليلة أمس، فقالوا بأن أحداً لم "يرافق" زوّار شقتك. لم يأتِ أحد.

- "اجلسي يا ايرينا! كنتُ في أشد الدهشة كونك تجرأتِ على المجيء لرؤيتي، أنا الشخص الذي تراقبينه. أنت ربما تعتبرينني عدواً؟"

- "لقد جئت لأتكلم معك، فليس عليك أن تخافني. ثق بي، لقد جئت بمفردي، ومن أجلي أنا شخصياً. وليس مرض ابنتي مجرد اختراع. قل لي من أنت، ومن هم أصدقاؤك، ولمَ تحاربون السلطات بهذا الحماس؟ الذين من جماعتك يزودوننا بالمعلومات، يخبروننا عن الأعمال الحسنة التي تقومون بها، وعن تقديمكم المساعدة، والاهتمام الذي تبدونه تجاه بعضكم البعض. انهم يخبروننا الكثير من الأمور الجيدة عنك. ولكننا علمنا أيضاً بأنك متعصب، عدو للشعب،

وأنك تؤلف مجموعة من الناس الذين يرتادون الكنيسة. ويقولون ان صلاحك يعرّض حكومتنا للخطر.

- "عندي الآن ثلاث ساعات من الوقت الحرّ لن يأتي أحد للتحقق من الأمور حتى الساعة الثانية بعد الظهر. أخبرني عن نفسك. سوف ألقي نظرة على الشارع، واذا رأيتُ أمراً خطراً فسأخرج بسرعة".

نظر الأب أرساني الى وجه ايرينا، وبدأ يخبرها عن الايمان والمؤمنين. شرح لها السبب الذي يجعل الشيوعيين يحاربون الدين، وأن المؤمنين لا يحاولون أن يحاربوا السلطات.

وبينما كان الأب أرساني يتكلم، لم يكن يهاب شيئاً. وماذا يخشى وهو يرى جلياً أن هذه المرأة ايرينا تعرف عنه وعن أصدقائه أكثر بكثير مما قد يخبرها يوماً. وفيما كان الأب أرساني يتكلم، اندمج كثيراً في ما يقول حتى انه نسي هوية المرأة الموجودة أمامه. تكلم اليها فقط كما من مخلوق بشري الى آخر، ولعلمه بأنه على حق، فقد دافع عن الايمان.

وأصغت اليه ايرينا بانتباه، رغم أن ذلك كان صعباً عليها. عرفت أن جماعة المؤمنين خطرة، وأنهم هم العدو، وهنا تجد أمامها هذا الرجل الذي يقول لها العكس. ما هي الحقيقة؟

هناك في الـ.N.K.V.D حيث يعلمون الشيء الكثير، كانوا بانتظار القاء القبض على جميع أعضاء المجموعة واعتقالهم، وارسالهم الى المعسكرات أو الى المنافي. يجب أن يتم اعتقالهم، ليس من أجل ايمانهم، بل لنشاطاتهم المعادية للشيوعية. ولكن بدا أن لا وجود لمثل هذا النشاط، ليس هنا فقط سوى هذا الايمان الذي وحّد الناس...

في الحادي والعشرين من شهر آب عادت ايرينا، وقد أصبحت حالة ابنتها أسوأ بكثير من ذي قبل. كانت تعاني من خرّاج في حلقها، أما الآن فهي مصابة

بذات الرئة. وحركة تنفسها غير منتظمة. وقد قال الأطباء انهم يشعرون بأن لا أمل من حالتها. والسلطات لم تسمح لايرينا بأن تترك موقعها. كانت الجدة تلازم الفتاة خلال النهار، وأما في الليل، فكانت ايرينا تبقى بجانبها. ما أن دخلت ايرينا غرفة الأب أرساني حتى بدأت بالبكاء.

فقال لها: "اهدأي! اهدأي، فالله رحوم، وسوف تكون ابنتك تانيا على ما يرام". واذ نظر الى ايرينا رأى امرأة ضائعة، حزينة، يائسة، فارغة، لا أمل لها.

– "الوضع ميئوس منه. ستموت تاتيانا. انها مصابة بمرضَين خطيرَين في الآن. لقد قال الأطباء انها ستموت. وأنا عاجزة عن البقاء الى جانبها خلال النهار". وراحت تجهش بالبكاء، وقد ألقت رأسها على الطاولة.

تقدم الأب أرساني نحو أيقوناته، وأشعل سراج زيت ثانٍ، وقال: "سوف أصلّي من أجل تانيا، سأتوسل الى الله من أجلها".

– "وأنا أيضاً سأتوسل الى الهك، بما أني مستعدة للقيام بأي شيء. أريد فقط أن أنقذ ابنتي تانيا، ولكني لست أعلم كيف أصلي. وأنا حتى لا أعرف الله".

ارتعش نور سراج الزيت وأضاء الأيقونات. ولكنه أرسل ضوءه بشكل رئيسي على أيقونة والدة الاله، سيدة فلاديمير. "ايرينا، سوف نقدم التماسنا معاً. سوف نصلي الى والدة الاله. انها حاميتنا، وسوف نسألها أن تشفي ابنتك تانيا". ثم بدأ بالصلاة بطريقة واضحة وبصوت عال. وبينما كان الأب أرساني يصلي، لم يرَ ايرينا، بل نسي أمرها، ولم يتذكر سوى حزن بشري لا عزاء له. صلى الأب أرساني من أجل الطفلة تاتيانا بكل نفسه وبكل سلطته الكهنوتية.

(بعد نحو خمس وعشرين سنة، أخبرني الأب أرساني عن هذه الصلاة فقال: "أنت تعلم أني نادراً ما أبكي. أما في ذلك الحين، فقد بكيت وتوسلت الى الله ووالدته من أجل المعونة. لقد صليت بطريقة عدوانية. وأكاد أخاف حتى من التلفظ بالكلمات التي صليتها. نعم، لقد طلبت اجابة مناسبة، لأن حزن ايرينا كان عظيماً. لم تكن تملك الأمل ولا الايمان. ولكني كنت استطيع أن أرى الصلاح والمحبة في عينيها. لقد تضرعتُ بصدق لكي يسمعني الله، وطلبت من أجل شفاء الطفلة، ولكي تستقبل ايرينا نورَ الايمان بالمسيح، والرجاء. فيما بعد اعترفت بعدوانيتي الى الأسقف يونان").

بعد مضي ساعتين، واذ أنهى الأب أرساني صلاته، استدار والتفت الى ايرينا. وكانت هناك، جاثية على ركبتيها ووجهها مبلل بالدموع، وعيناها تنظران الى الأيقونة، وشفتاها تتمتمان. فامتلأ قلب الأب أرساني شفقة عليها.

اقترب منها ووضع يده على رأسها المنحني، وقال: "يمكنك أن تذهبي يا ايرينا! والله سوف يعين. لقد توسلنا اليه أنا وأنتِ معاً. ووالدة الاله، شفيعتنا، لن تتخلى عنا. سوف تقدم المعونة".

وقفت ايرينا وتقدمت خطوة نحو الأب أرساني، وأمسكت بيده وقالت باكية: "بيتر أندريفيتش! سوف أومن من الآن والى الأبد. أنا أومن بك وبها. لقد كانت أُمّاً، وان كان ما تقولُه صحيحاً، فهي سوف تقدم المعونة. يا والدة الاله أنقذي ابنتي تانيا. سأفعل أي شيء ان كنتِ ستنقذينها فقط".

وتابع الأب أرساني صلاته حتى عادت ناتاليا بتروفنا وزوجها من العمل. وعند المساء، وبينما كان معهم صديقان آخران، رنّ الهاتف. فانتصب الأب أرساني ورفع السماعة قائلاً: "نعم آنّا"

وهذا ما سمعه: "أشكرك! أشكرك، فكل شيء على ما يرام. لقد ساعدَتنا[٦]، وأنا الآن مؤمنة حتى آخر يوم من حياتي. أشكرك. انـي أتصـل بـك مـن حجـرة هاتف عمومية".

رسم الأب أرساني علامة الصليب وقال: "أجل كان هذا ضرورياً، لقد أظهر الله ووالدته رحمة عظيمة، وليس من أجلي فقـط، بـل مـن أجـل شـخص مولود حديثاً. لا يمكن لأحد أن يعلـم مَـن هـي المـرأة الـتي كنـتُ أتكلـم معـها، فالمدعوّات آنّا كثيرات". ثم رجع الى الأيقونات، وعاد يصلي من جديد.

(والجدير ذكره هنا أن بعد تلـك الحادثـة، كثـيراً مـا سـئل الأب أرسـاني، خلال الاستجوابات التي أُخضع لها، عمن تكون آنّا).

لقد غيّر ظهور آنّا المفاجئ مخططاته كلها. وبعد تفكير كثير وصلاة كثيرة، قرر الأب أرساني ألا يجتمع بالأسقفَين، وأن يرحل يوم الخامس والعشـرين مـن آب. وحتى ذلك الحين، لن يخرج مطلقاً من الشقة.

كان عليه أن يحمي المؤمنين من الاعتقـال، وأن يعـزل بطريقـة أو بـأخرى، أولئك الذين يشون بهم الى السلطات.

وحتى يوم رحيل الأب أرساني، بقيت ايرينـا تـأتي كـل يـوم في السـاعة الحادية عشرة لتمضية الوقت معـه حتـى السـاعة الثانيـة. كـانت تـأتي، وتطـرح الأسئلة، وتخبره عن نفسها. ولكنها بالأساس تصغـي الى حديـث الأب أرسـاني. ولأول مرة في حياتها اعترفت وتناولت من الأسرار المقدسـة. وأصبحـت احـدى بنات الأب أرساني الروحيات. واتفقا على أن تراسـله ايرينـا تحـت اسـم آنّـا. فأعطته عنوان ابن عمها (الذي حفظـه غيبـاً)، حيـث يمكنـه أن يكتـب الـردود. وحتى يصبح بامكان ايرينا أن تزداد معرفة حول الايمان والكنيسـة، أعطاهـا الأب

[٦] أي والدة الاله.

أرساني عنوان بابوشكا ليوبا، التي كانت ذات ايمان راسخ، ولكنها ليست عضواً في "المجموعة". وأرسل الى بابوشكا ليوبا رسـالة موجـزة جـاء فيـها: "سـاعديها، أرشديها، لا تتخلّي عنها أبداً. صلّيا معاً". واستطاع الأب أرسـاني أن يراسـل ايرينا مرات عدة في السنة، قبل أن يتم ارساله الى المعسكر الخاص، حيث لم يكن يسمح له بالكتابة.

بعد لقاء ايرينا بالأب أرساني، تركت عملها لحسـاب الحـزب الشـيوعي، وبدأت الدراسة لتصبح طبيبة (كما نصحها). وعندما أنهت اختصاصها، بـدأت بالعمل في مستشفى كبير في موسكو.

وأصبح لزاماً على الأب أرساني أن يرحل. تكلم طويلاً مع ناتاليا بتروفنا وفيرا دانيلوفنا. أخبرهما عن سبب مجيئه، ولكنه لم يقل لهما شيئاً عن ايرينـا، ولا كيف علم بأنه قد تم التبليغ عنه.

وأدرك الأب أرسـاني أن اعتقالـه قـد سـبق وتقـرر، ولكنـه كـان مـن الضروري – من أجل سلامة الآخرين – ألا يجري اعتقالـه هنـا، بـل في المكـان الذي كان قد نُـفي اليه، وحيث يفترض به أن يكـون. ليسـتجوبوه، ليضعـوه في زنزانة منعزلة، ليضربوه، ليعرضوا عليه افـادات عمـلاء موقـّعة، ولكنـه سـوف يقول انه لم يغادر مكان نفيه علـى الاطـلاق، وانـه لم يـأتِ قـط الى هـذه المدينـة. ابتاعت له ايرينا بطاقة سفر لليلـة ٢٥ آب. ومسـاء ٢٤ آب، كتـب الأب أرسـاني رسائل، احداها الى كاتيا كرافتزوفا (التي بلـّغت عن المجموعة)... وهنا مقطع مـن هذه الرسالة:

اني أصلي الى الله من أجلكِ. تقـوَّي في الصـلاة، واسـألي والدة الاله المعونة. لقد سقطتِ. والآن جِدي القوة للنـهوض مـن جديد. اني أفهم خطأكِ ولا ألومك. أنت قوية، حازمة، شديدة العزم. وعندما اتصل بك أولئك الناس، كنت على ثقـة بـأنك سـتكونين قوية كفاية لكي تصمـدي في وجهـهم. كـان خطـأك أنـك وضعـتِ ثقتك بنفسك وليس بالله. ولو أنـك وثقـت بـالله لكـان حزمُـك وقوتك ساعداك على مقاومة الشـر. وانتـهت بطولتـك أولاً علـى شكل خطأ، ثم شرّ.

ابتعدي عن نشـاطاتك. قـاومي ضغـط الشـرّ، وسـتكونين ظافرة. أعرف أن هذا صعب. حاربي الشرّ.

استمدي التعزية من الصلاة. ان والـدة الالـه هـي حاميتنـا وشفيعتنا. ليحفظكِ الله.

أبوك الروحي،

الكاهن الراهب أرساني

سوف نلتقي من جديد في أحد الأيام. اني أصلي من أجلك باستمرار. ليباركِ الله .

ويوم الخامس والعشرين من شهر آب، في السـاعة الحاديـة عشـرة صباحـاً، وبينما كانت ايرينا تشغل موقعها، ذهب الأب أرساني الى محطـة القطـار، وبقـي هناك حتى المساء. ثم جاءت والدة ايرينا لرؤيته، وجلبت له بعض الطعام. كـانت حنونة، لطيفة وعطوفة.

كانت ايرينا قد ودّعت الأب أرساني في الصباح، وطلبت اليه أن يصلـي من أجلها ومن أجل عائلتها. لقد انضـم شـخص جديـد الى الايمـان، الى ينبـوع الرجاء والحياة، وكانت هذه فرحة عظيمة للأب أرساني.

وأذكر أن أحداً سأل الأب أرساني: "كيف حصل أنك صدّقـت ايرينـا في الحال؟"

فأجاب: "لأن طرق الرب لا تـُدرك ورحمته لا تـنفد".

كتب هذا الفصل استناداً الى أقوال الأب أرساني وايرينا وفيرا دانيلوفنا وناتاليا بتروفنا. وقـد حرّره شـخص شـارك في جميع هذه الأحداث، بين عامَي ١٩٦٨ و١٩٧٥.

الموسيقي

ظهر في أحد الأيام في ثكنتنا: طويل القامة، نلحل الجسم، يلبس ثياباً رديئة مثل الجميع، وعليه سيماء من عانى عذاباً كثيراً. كان وجهه هزيلاً، والجلد ملتصقاً بالعظم. ولا يبدو حياً الا من خلال عينيه الواسعتين السوداوين اللتين كانتا عميقتين وحزينتين. كانتا تنظران الى مكان ما في البعيد، وتبدوان غير مهتمتين بما يحدث حوله. واذ كان عاجزاً عن اتمام العمل اليومي الموكول اليه، فلم يكن يحصل على حصة طعام كاملة، وصار يزداد نحولاً يوماً بعد يوم. كان يعود من العمل، يأكل ببطء ما يحصل عليه، يجلس على سريره، ولا يتكلم مع أحد. بل ينظر من النافذة المعتمة الى منظر المعسكر الحزين. في بعض الأيام كانت الحياة تدب في وجهه، فيصبح بالامكان رؤية أصابعه تتحرك برشاقة في حضنه، فيبدو وكأنه يعزف على البيانو.

قال الشيء القليل عن نفسه ــ في الحقيقة لا شيء. ولكن كل شيء أصبح واضحاً في احدى الليالي. حدث ذلك بعد أن صار له في ثكنتنا ما يزيد على ستة أشهر، وبعدما أصبح الجميع معتادين على صمته، وعلى قلة اهتمامه بالآخرين.

اجتمع بعض الأشخاص للتحدث، وكان الأب أرساني من بينهم. تكلموا في البداية عن الحياة في المعسكر. وبعد برهة بدأوا يتذكرون الماضي. استعادوا بالذكريات المسرح والموسيقى. وكانت هذه هي اللحظة التي فيها قرر حتى السجناء الذين لم يكونوا يتكلمون على الاطلاق، أن ينضموا الى المجموعة.

وأصبح الحديث عن الموسيقى أكثر جدية. وتجادل الرجال حول تأثير الموسيقى في النفس. وقال البعض انهم يشعرون بوجود دعاية للشيوعية في

الموسيقى. ولم يكن الأب أرساني بالعادة يشارك في مثل هذه النقاشات، وأما هنا فقد عبّر فجأة عن رأي بأن الموسيقى، الموسيقى التي تحمل معنى عميقاً، يمكن أن تؤدي تأثيراً ايجابياً في النفس. وانها تستطيع أن تسمو بالمستمع بحملها عناصر تأثير ديني الى نفسه.

وفجأة دبّت الحياة في السجين الصامت بالعادة، والمنغلق على نفسه. وشعّت عيناه، وأصبح صوته أقوى، وكلامه جازماً. فتكلم بطريقة مفصّلة جداً، محترفة ومقنعة، موسّعاً فكرة الأب أرساني حول تأثير الموسيقى في النفس.

وعندها تفرّس أحد السجناء بالرجل، وكان واقفاً بالقرب من المكان، وصرخ: "لحظة: اني أعرفك. أنت عازف بيانو". وأعطى اسم موسيقيّ ذائع الشهرة.

فارتجف "الموسيقيّ" وهو خجِل قليلاً وقال: "ليتك تعرف كم أنا مشتاق الى الموسيقى! أجل، ليتك تعرف! فمع الموسيقى أستطيع البقاء على قيد الحياة، حتى في هذا المكان".

وطرح أحدهم هذا السؤال السخيف: "لمَ أنت هنا؟"

فأجاب "الموسيقي": "صديق لي شهد كذباً ضدي. ولكني هنا بالحقيقة للسبب نفسه الذي يجعلنا كلنا هنا". قال هذا ثم سار مبتعداً عائداً الى سريره.

بعد هذه المحادثة أصبح حزنه وقلة اهتمامه بأي شيء أكثر حدة أيضاً. كانت عيناه فارغتين، ولا يجيب الا بعد أن ينادوه مرات عدة. وكان باستطاعتنا أن نرى بأن الرجل فقد اهتمامه بالعالم الخارجي، وأن هذا يعادل الموت الأكيد.

ومرّ شهر، وأصبح "الموسيقيّ" يزداد وهناً يوماً بعد يوم. يذهب الى العمل بصعوبة بالغة، ويعجز عن اتمام العمل الموكول اليه، فينال في كل مرة حصة غذائية أقل من السابقة.

وحاول الأب أرساني التكلم معه، حاول أن يساعده، ولكن جميع جهوده ذهبت هباءً. كان "الموسيقي" يجيب كيفما اتفق، سواء كان ذلك متعلقاً بالموضوع أم لا، ثم يسير مبتعداً. "الرجل يموت بدون موسيقى. ماذا يمكننا أن نُحضر له حتى يعزف؟"

فقال أحد المجرمين الذين يحبون الأب أرساني: "لقد رأيت غيتاراً مكسوراً في "الزاوية الحمراء"[٧]، سوف نحاول أن نسرقه".

كان في المعسكر "زاوية حمراء" لم يوجد فيها يوماً شيء تثقيفي أو ترفيهي، بل كانت تحتوي على عشرات الكتب المحظّر لمسها، وخزانة كتبٍ فيها غيتار مكسور. وكانت الزاوية الحمراء تبقى مقفلة على الدوام، ولكن الراجح أنها صُنِّفت، في تقارير المعسكر الى السلطات، كأداة أساسية في "النمو السياسي" للمساجين. ولن يعرف أحد يوماً كيف تمكن المجرمون من السطو على الغيتار واحضاره الى الثكنة. لقد سُحقت لوحته المصوِّتة[٨]، ولم يكن له سوى خمسة أوتار من أصل سبعة، وكان طلاؤه في وضع رديء: بدا الغيتار في حالة مزرية. وعلم الجميع بأنه لن يبقى طويلاً في الثكنة. سوف يتم اكتشافه من التفتيش الأول ويُصادَر. ورغم ذلك فقد كان يمثل تسلية سارة جداً، وحدثاً.

ألصق أحدهم اللوحة المصوِّتة ونظّف الطلاء. وأخفى المجرمون الغيتار لمدة يومين ريثما يجفّ اللصاق. وفي اليوم الثالث، وبعد انتهاء كلٍ من تلاوة الأسماء والتفتيش، وضعوه على سرير "الموسيقي"، بينما كان منشغلاً في طرف الثكنة الآخر.

[٧] في المؤسسات السوفياتية، كانت "الزاوية الحمراء" قاعة للترفيه والقراءة، مخصصة لاغراض سياسية.

[٨] هي اللوحة الخشبية الرقيقة التي تزوَّد بها الآلات الموسيقية الوترية لزيادة الصوت المنبعث منها وضوحاً وجهارة.

عاد "الموسيقي" الى سريره دون أن يلاحظ شيئاً الى أن لامست يده الأوتار. ففقز، وقبض على الغيتار، وتلفّت حوله دون ان يعرف بما يفكر. ثم بدأ يدوزن الأوتار. ولم تعطِ الأوتار في البداية صوتاً مقبولاً، تاركة الانطباع بأنها ميتة. ولكنها أصبحت في وقت قصير مشدودة، وبدأ "الموسيقي" بالعزف.

كان المجرمون متفرقين في خمس مجموعات أو ستة وهم يلعبون الورق (مستعملين أوراقاً صنعوها بأنفسهم)، بينما كان غيرهم يلعبون الدومينو وغيرهم يرمون الزهر. وكانوا يشتمون مغتاظين. وفجأة امتلأت الثكنة بالصوت. وفوجئ الرجال بهذا الصوت. توقفت الشتائم، ووُضعت الأوراق جانباً. لقد دخل الى الثكنة شيء لا قياس لعظم حجمه، شيء محبوب، حزين قليلاً، ولكنه قريب، بشكل فريد، الى قلب كل انسان.

لقد رأوا في هذه الموسيقى أماكن مألوفة، حقولاً مكسوة بالعشب، وزوجاتهم وأمهاتهم وأولادهم، وأصدقاءهم الذين فقدوهم بالكلية الى الأبد...

رحنا نستمع والموسيقى تفيض خفيفة ونقية. وكان بمقدورك أن تسمع صوت تجمّد قطرات الماء، وصوت المياه تغني في الجدول: تارة تتدفق بهدوء، وتارة أخرى بصخب، مرتطمة بحجر في طريقها. كان قلب الموسيقى يطرق في قلوبنا ويعطينا النور، رغم الظلام المحيط بنا. لقد أعطانا الحياة والفرح...

كان "الموسيقي" يخبر حياته في هذه النغمات، ولكن كل واحد سمع فيها حياته الخاصة. وفجأة توقفت الموسيقى. ولبرهة بقي "الموسيقي" صامتاً ودون حراك. فقال أحدهم: "غنِ لنا!"

فرفع "الموسيقي" رأسه وغنّى بصوت خفيض وأبحّ بعض الشيء، ولكنه بالغ التعبير. أنشد أغنية روسية قديمة. فدبّت الحياة في الجميع وابتسموا. لم يكن صوت "الموسيقي" صوت مغنٍّ، لكنه كان حاراً لدرجة، ومعبّراً لدرجة، حتى انه سحر جميع مستمعيه. فأنهى الأغنية وعزف مقطوعة فالس، مقطوعة يعرفها

الجميع. عزفها بايقاع بطيء. وقد وحّدتهم بطريقة ما ألفة المعزوفة، وجعلتهم يشعرون بالقربى الشديدة بعضهم من بعض.

ثم ذهبوا جميعهم الى أسرَّتهم بصمت. وجلس "الموسيقي" على سريره مستقيماً، هادئاً، مشرقاً، وهو يمسك الغيتار بأكثر ما يكون من العناية.

ونظرت عيناه الواسعتان داخل العتمة، وأظهرتا عرفان الجميل للجميع من أجل هذا الغيتار.

كان الأب أرساني يجلس على سريره، بالقرب مني، مستغرقاً في التفكير وجدّياً. "انه مؤمن، رجل ذو إيمان عميق. لقد أخبرنا بكل ذلك في موسيقاه".

وعاش الغيتار في الثكنة مدة يومين كان "الموسيقي" في خلالهما متحوّلاً كلياً. لقد غدا مرحاً، ودبّت فيه الحياة، وأصبح كثير الكلام. وقد سمّاه المجرمون "العازف" وقرروا أن يقدموا له الحماية.

ثم صودر منه الغيتار خلال تفتيش صباحيّ. لقد بلّغ عنه أحدهم. ووُضع "الموسيقي" في زنزانة العقاب لثلاثة أيام. ولفترة قصيرة استمر "الموسيقي" هادئاً، وحتى مرحاً، ثم عاد وذوى من جديد.

وبعد حوالي ثلاثة أسابيع استفاق الأب أرساني من نومه لأن أحدهم كان يهزّه من كمّه. "أرجوك أن تسامحني لأني أيقظتك! أعرف أن الوقت ليل، ولكني مضطر للتحدث اليك. أعرف أنك كاهن، وكنت أعتزم التحدث اليك منذ وقت طويل، ولكني لم أجد الجرأة لذلك. أشكرك على الغيتار. أعلم أنك أنت الذي أوعزت بلحضاره. اسمعني. سأتكلم بايجاز. سامحني لأني أيقظتك!"

كان رأسه منحنياً فوق الأب أرساني، ولهاثه حارّاً ومتوتراً. تكلم بعجلة كبيرة، وأراد أن يكشف كل أفكاره. وكان يردد من وقت لآخر: "الهي، يا الهي، اني

خاطئ أثيم!" كان من الواضح أنه قد فكر منذ وقت بعيد بكل ما يقوله، وأنه عانى العذاب طوال هذا الوقت.

صارت دموعه تنهمر فوق يد الأب أرساني. "يا الهي أعلم بأني خاطئ، ولكن لِمَ أخذوا مني موسيقاي؟"

وصلى الأب أرساني طويلاً برفقة "الموسيقي"، وصلى "الموسيقي" معه.

وبعد مضي ثلاثة أسابيع سُحقت يد "الموسيقي" اليسرى في العمل. وبعد أسبوعين آخرَين بعث رسالة قصيرة الى الأب أرساني من المستشفى، حملها صديق له. كان في الرسالة: "لا تنسَني في صلواتك. الموت قريب. صلِّ الى الله من أجلي!"

أخبر هذه القصة السجناء الذين كانوا في الثكنة في تلك الفترة، وكذلك الأب أرساني نفسه عام ١٩٥٩.

انـي أتجمّد

بيتر أندريفيتش؟ بالطبع أذكره. وسأبقى أذكره طوال حياتي. لقـد التقينـا بشكل عابر، اذا جاز القول. تركنا المعسكر في الصبـاح، وكـانت الحـرارة تبلـغ ٣٠ درجة تحت الصفر، والرياح تعصف، ولم نكن نلبس سوى ستراتنا القطنية المبطنة. لم يكن علينا أن نسير مسافة بعيـدة: حـوالي عشـرة كيلومـترات فقـط. وكـان مـن المفترض أن نصل في غضون أربع ساعات أو خمس اذ كان على كل واحـد منـا أن يحمل كيساً يحتوي على أغراضنا. لم يمضِ وقت طويل حتى نفذ البرد الى عظـامي، وفي غضون ساعتين تقريباً بدأت أتجمّد بالفعل. تلفـّت حواليّ ورأيـت أن الجميـع أيضاً يتجمّدون، بما فيهم الحرّاس، رغم أنهم كانوا يرتدون معاطف صوفية سميكـة. والكلاب التي تراقبنا كانت مكسوّة بالجليد. فشرعنا نسرع الخطى لتـدبّ الحـرارة فينا. ولكني كنت أستطيع أن أشعر بأن قدمـيّ ويـديّ متجمّـدة علـى نحـو خطـير. أحسست بها كالأخشاب. كلنا أبطأنا المسير، وصرخ الحرّاس: "امشوا بسرعة، والا فسوف تموتون من الصقيع!" بدأت أتعـثر لأن قدمـيّ لم تعـودا تطيعـانني. وفجـأة شعرت بأن أحداً يسندني بالمرفق. نظرت، فرأيت رجلاً عجوزاً يسير بالقرب مـني، ففوجئت: لـمَ يهتم بي؟ وأصبحت على وشك السـقوط لأن جميـع قـواي تخلـت عني. فتمسّك الرجل العجوز بساعدي وأمسكني بقوة لدرجة لا يمكن فيها أن أقع. وقال لي: "لا تيأس . تحرّك بسرعة أكبر، فهذا سيدفئك. بهذه الطريقة سوف تصبح قادراً على بلوغ الغاية التي نقصدهـا بمعونـة الله". فتـابعت السـير لمـدة كيلومـتر ونصف أيضاً. وكنت شبه فاقد الوعي، لا أرى الطريق، فزلقت وسقطت. حـاولت النهوض، الا أن يديّ وقدميّ لا تطيعني. ثم عاد اليّ وعيي بسبب سقطتي، وأدركت تماماً بأن هذه ستكون نهايتي. اذا تجمدّت فسأموت. رأيت أقدام المسـاجين الآخريـن تتجاوزني، أما الرجل العجوز فبقي معي. أعرف النظام: بعـد أن يتجـاوزني آخـر السجناء، عندها سوف يتقدم مني الحرّاس، واذا لم أنهض فسيطلقون النار عليّ ثم يبلغون السلطات بأنهم اضطروا لقتلي لأني حاولت الهرب.

ما زال الرجل العجوز بقربي، ولا أعرف السبب. رأيـت الحـارس يتقـدم مني ويرفسني صارخاً: " انهض!" فهمت كل شيء ولكني أعجز كـل العجـز عـن الاتيان بحركة. سمعت الرجل العجوز يقول للملازم الأول: "أيـها المواطـن، أنجـده! سوف يموت من الصقيع!"

ثم تقدم منا حارس آخر، وقال موجهاً كلامه الى الملازم الأول، وفي صوتـه سؤال: "يا رفيق! ربما أستطيع أن أعطيه قليلاً من الكحـول، فـان معـي القليـل في قنينتي".

أعطى الملازم الأول الأمر للآخرين بمتابعة المسير، وبقي معـي والحـارس. وسألهما الرجل العجـوز مجـدداً أن ينجدانـي. لـماذا؟ انـي متجمّـد تمامـاً. لا يجـدي الاهتمام بي نفعاً ، سوى انه يسبب المشاكل، ومـن الأسـهل بكثـير اطـلاق النـار عليّ وحسب. سجين واحد أكثر أو أقل، من يهتم لهذا الأمر؟ بدا الرجل العجـوز غير خائف. أنا سقطت فقط، ولكن هـو الـذي ارتكـب مخالفـة: لقـد خـرج مـن الطابور. أنا على يقين مـن أنـهما سـيطلقان النـار عليـه. نظـر المـلازم الأول الى الحارس الذي نزع سلاحه عن كتفه. حسناً، أظـن بـأن هـذه هـي النهايـة. سـوف نموت كلانـا. تقـدم منـا الحـارس وأعطـى سـلاحه للمـلازم الأول وقـال للرجـل العجوز: "هيا يا جدّي، تعال نرفعه!" فرفعاني. وأخذ الحارس قنينته ووضعها على شفتيّ. وبـدأ الكحـول يتدفـق داخـل حلقـي. فشـعرت بالنـار تـدبّ في جسـدي، وابتلعت بشراهة، وشربت كمية كبيرة. وبدأ الحارس والرجـل العجـوز يقذفـاني الواحد للآخر لتدفئتي. لقد حرّكاني فيما كان الكحول يدفئني من الداخل. رميـاني أرضاً - عن عمد - وجعـلانـي أنهـض مـن جديـد. بـدأت يـداي تلـتهبـان، وقدمـاي تخِـزان وتؤلمـانني، ثـم عادتـا الى الحيـاة. ابتـهجت، وقلـت للحـارس: "أشكرك!"

- "لا تشكرني، بل أشـكر الرجـل العجـوز الحـاضر هنـا. لقـد أذهلنـا بتجاسره على البقاء الى جانبك". ثم استدار نحو الرجل العجوز وقال له: "كيـف

تجاسرت على البقاء الى جانبه؟ أنت تعرف الأوامر: خطوتان الى الجانب، وأطلق النار بدون انذار!"

فانحنى لهما الرجل العجوز وقال: "ولمَ أخاف؟ كل الناس عندهم روح. وقد رأيت بأنك سوف تقدم المساعدة. ان الله لا يترك أنساناً في مأزق!"

لحقنا بالآخرين ودهش الرجال من أنهما لم يقتلانا. لم أخبرهم قط كيف بقيت على قيد الحياة. هكذا التقيت ببيتر أندريفيتش. كان هو الرجل العجوز. عرفته في البداية على أنه بيتر أندريفيتش وحسب، وبعد ذلك: الأب أرساني. لقد دخل بيتر أندريفيتش ــ الأب أرساني ــ حياتي كأمر هائل، أمر مشعّ، معطاء، أمر مبهج جداً لدرجة أني لا أذكره وحسب، بل أعيش على الدوام من خلاله. واذ أتذكر أشياء عديدة، كثيراً ما أفكر: "كان الأب أرساني على حق: العديد من الناس يملكون صلاحاً في داخلهم. انه مخفيّ أحياناً، ومن واجبنا أن نجده، بالطريقة نفسها التي بها رأى الأب أرساني الصلاح في الملازم الأول والحارس".

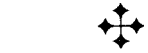

في العام ١٩٦٣ التقيت صدفة في كالوغا بالملازم الأول الذي أنقذ حياتي. لقد أصبح مدنياً، واكتشفت فيما بعد أنه يعمل كميكانيكي في مصنع. تقدمت منه وقلت: "صباح الخير أيها الرفيق الملازم الأول". ولكنه لم يعرفني. ذكّرته بالحادثة، فبدا سعيداً. تكلمنا عن الماضي وقال: "كانت تلك الأيام رهيبة، انه لمن المؤلم حتى التفكير بها!" وسألته: "كيف حدث أنك لم تقتلنا في ذلك الحين؟ وأن الحارس أعطاني بعض الكحول؟"

فأجاب: "لقد كنا بشراً نحن أيضاً. كما أن الرجل العجوز أدهشنا. لقد علم بأنه معرّض للموت، ولكنه لم يخفْ من مساعدتك. سأقول لك الحقيقة: كان من عادة الكثيرين منا، نحن الحراس، أن نتحدث عن هذا الرجل العجوز. كان مميزاً، كان طيب القلب. يقولون انه كاهن." ثم سأل: "أين هو الآن؟"

فأجبته بأن الأب أرساني ما زال على قيد الحياة. وتابعنا الحديث أنا والملازم الأول. ذهبنا الى مقهى لتناول قدح صغير من الفودكا، وتكلمنا عن حياتنا في المعسكر. هكذا جرى الأمر كله. وبقيت أراسل الأب أرساني حتى وفاته. واحتفظت بجميع رسائله. عليّ أن أخبركم فقط أنه كان رجلاً عظيماً!

كتب هذا الفصل بحسب أقوال رئيس مزرعة جماعية، مهندس زراعي في مكان ليس ببعيد عن كالوغا.

الجزمة

تسألني ان كنت أذكر؟ بالطبع، اني أذكر كل شيء. لقد أخبرت كل ذلك آلاف المرات: الاستجوابات والحكم والمعسكر والجوع والضرب والمجرمين، والموت الذي يقف أمام بابك على الدوام، والحنين الدائم الى أحبائك.

هل تذكر هذه الأغنية:

"أنتِ الآن بعيدة جداً

تمتد بيننا ثلوج واسعة

لا أستطيع الوصول اليكِ

والموت على بُعد خطوات قليلة جداً".

هكذا كانت الأمور بالفعل: كان الموت قريباً جداً، حتى انك تستطيع أن تلمسه بيدك.

التقيت بالأب أرساني في شتاء بسبب... بسبب جزمة من اللبّاد. قبل ذلك لم تسنح لي فرصة لقائه. ان أهم شيء في الشتاء هو أن تحافظ على جفاف قدميك. ورغم ذلك، فان جزمتك تبقى رطبة على الدوام في المعسكر، وتتجمّد قدماك، فتؤلمانك وتغطيهما القروح. ولا تستطيع أن تجفف جزمتك خلال الليل، لأنك ان تركتها على أحد المواقد، فيمكنك أن تتيقّن من أنها ستُسرق. ولا تستطيع أن تجففها خلال المساء، لأنه الوقت الذي فيه يجفف المجرمون جزماتهم! وخلال ذلك الشتاء، كانت قدماي متجمّدتين وشديدتيّ الألم. ولم يعد بوسعي الذهاب الى العمل.

عدت من العمل الى الثكنة في الليلة السابقة، وكان عقب قدمي ملتصقاً بالجزمة بالثلج، لأني سقطت في جدول صغير. فتعثرت داخل الثكنة، لعجزي عن نزع جزمتي. وسقطت على سريري، وفكرت: هذه هي النهاية، غداً أموت. ها انني ممدد، عاجز عن الحراك. وفجأة شعرت بأن أحدهم ينزع جزمتي. وفكرت أنهم قرروا على الأرجح أني أحتضر، وأرادوا أن يأخذوا جزمتي. ولكني، في هذه المرحلة، لا أبالي. نزع هذا الشخص فردة الجزمة الأولى، ثم الثانية. ونزع الأقمشة التي كانت ملفوفة حول قدميّ[٩]، وبدأ يدلّكهما. كنت عاجزاً عن ابداء أية ردة فعل، ولكني فهمت ما يحصل. لقد أعاد دورة الدم في قدميّ، وغطاني ثم رحل. وخطرت في بالي فكرة رهيبة: لقد سرق جزمتي ورباطات قدميّ، ويريد الاحتفاظ بها. ولكن لِمَ دلّك قدميّ اذن، ووضع على قروحي نوعاً من المرهم؟ ما زالت قدماي تؤلمانني، ولكن بدرجة أقل الآن. ثم غططت في النوم.

في الصباح لكمني على أذني السجين المسؤول وسألني: "لِمَ لا تنهض؟" لقد استغرقتُ في النوم أكثر من اللازم. فقفزت، وكانت قدماي عاريتين. أجلت النظر فيما حولي، ورأيت أن الرجل العجوز يعيد اليّ جزمتي ورباطاتي، وكانت كلها جافة. فارتبكت، ولكني ارتديت ملابسي وذهبت الى العمل. وفي المساء أخذ الرجل العجوز أغراضي من جديد، وجففها من جديد. وقد قام بهذا العمل مرات عدة. وهذا ما أنقذ حياتي. راقبته، وفي النهاية بدأت أتبادل الحديث معه، ثم اعتدت عليه تماماً. هل تريدون أن تعرفوا كيف جفف جزمتي؟ لقد وضعها على الموقد ولبث طوال الليل يراقبها. وقد عمل بالطبع كالجميع خلال النهار. هذا ما أسمّيه عملاً بطولياً حقاً.

لقد شعرت بكآبة شديدة حينما فكرت بأني سوف أموت هنا من دون أن أرى عائلتي من جديد على الاطلاق. وأعرف أن العديد غيري قد راودهم الشعور نفسه. والرجل العجوز ــ الذي عرفت بعد ذلك أن اسمه بيتر أندريفتيتش، أو

[٩] كان المزارعون والمساجين يضعونها عوض الجوارب.

الأب أرساني ــ قال لي ببساطة في أحد الأيام: "كل الأمور ستكون على ما يرام بالنسبة لك ولعائلتك. سوف تخرج عاجلاً من هذا المعسكر، وسترى أقاربك". ولست أدري السبب، ولكني حين قال لي ذلك، صدّقت ما يقول من غير ريب.

والآن فاني أذهب لزيارة الأب أرساني كل ستة أشهر تقريباً: أصل بنفس فارغة وأنا متعب في العمق. فيلاقيني ويتحدث اليّ، ويستمع الى اعترافي، وينزع التفاهة عن نفسي. فأحيا، وأنتظر زيارتي القادمة له بفارغ الصبر. أعود الى نوفوسيبيرسك حاملاً معي طرد الحرارة والايمان الذي أحصل عليه من الأب أرساني، وأنفق هذه الثروة تدريجياً.

هكذا تعرفت الى الأب أرساني. ان العالم يستمر بفضل أشخاص مثله. راقبته في المعسكر: لقد ساعد العديد جداً من الناس. وكنا نحن، اذ ننظر اليه، نساعد الآخرين. اما كيف استطعت أن أصبح مؤمناً: لقد اكتفيت بالنظر الى طريقة حياته وتصرفه، وما العمل؟ أصبحت مؤمناً. وقد ساعدني أناس آخرون في وقت لاحق. أخبروني عن الايمان وشرحوا موضحين لي الأمور: ووجدت كل ما احتجت أن أجده.

أود أن أعود الآن الى موضوع العمل البطولي: الكثيرون من الناس يحبون أن يستعملوا هذه العبارة في أيامنا الحالية. ما هو العمل البطولي في الحقيقة؟ لقد عشت حتى نهاية الحرب وانخرطت في معارك عديدة. كنت متطوعاً. بدأت كجندي عادي وانتهى بي المطاف كرائد. حصلت على وسام الشرف، ووسامَي لينين، وميدالية الحرب الوطنية، وميدالية الراية الحمراء، وحتى اني أعجز عن تعداد التكريمات التي حصلت عليها. قُدت زمرة من الأنصار[10]، وأُرسلت للعمل مع الألمان للتجسس عليهم، وجُرحت أربع مرات: وكل ذلك كان سهلاً. كنت أعرف الهدف الذي لأجله أعمل كل ذلك، وعرفت بأني سأكون محاطاً بالأصدقاء على

[10] مجموعة غير نظامية مهمتها ازعاج العدو بشنّ هجمات متكررة عليه (المترجم).

الدوام. كما عرفت أني لو مُت، فسيكون ذلك من أجل بلادي. ثم وجدت نفسي في معسكر، وفهمت ما يعني "أعماق المحنة". فهمت أن الموت لأجل قضية ليس هو الأمر الأكثر رعباً. في المعسكر أنت وحيد مع نفسك، مع الموت، الموت اليائس الذي يحيط بك طوال الوقت. موت مؤلم يزحف عليك ببطء. ولا يحيط بك سوى أشخاص على أبواب الموت أيضاً، أشخاص غاضبين، يائسين، مفرَغين، لا نهاية لعذابهم. وأنت تموت دون سبب، وباسم لا شيء.

وحتى لو حاولت الهرب، فأين تذهب؟ لم يعد لك أصدقاء، لأنهم يخافون منك كل الخوف. أنت وحيد. صدقني ان العمل الأكثر بطولية على الاطلاق هو أن تقدم المساعدة للآخرين في ظل مثل هذه الظروف غير الانسانية، وعندما تكون أنت نفسك متعباً ومصاباً بالبرد، وتموت من الجوع. انه لعمل بطولي أن تعطي جزءاً من حصة طعامك في ظل هذه الظروف، أن تقوم بعمل صعب من أجل شخص آخر عندما تكون أنت نفسك نصف ميت. صدقوني، لقد قُدت جنوداً الى الهجوم، وخلّصت أصدقاء من النار، وأنقذني آخرون، ولكني عرفت باسم ماذا كنت أفعل كل ذلك. في المعسكر باسم ماذا قد تفعل كل ذلك؟ كنا كلنا محكوماً علينا بالموت في جميع الأحوال.

لقد خلّص الأب أرساني العديد منا. فعل ذلك باسم الله وشعبه. ولم يشفق مرة على نفسه. انه عمل بطولي باسم محبة الآخرين. لم ينتظر أية مكافأة من أجل كل ذلك. يا رب، لو كان كل الناس مثل الأب أرساني!

كُتب هذا الفصل بحسب أقوال أندريينكوف عام ١٩٦٦.

الجزء الثالث

الأبناء الروحيون

اعتراف

ان الكتابة عن الأب أرساني تعني دائماً الكلام عن الذات، عن حياتك وأعمالك، وعن أفعالك المرتبطة به، بطريقة أو بأخرى، كأب روحي لك. ان ذهنه الصافي بشكل غير معتاد، وتفهّمه للناس وللحياة بصورة عامة، ومعرفته العميقة لنفوس البشر - التي يمكن أن تسمّيها أيضاً معرفة غريزية - وورعه الدائم، وانكاره لذاته بالكامل، لمصلحة العديد العديد من الناس، كل هذه السمات تضعه في منزلة فريدة بين الكثيرين من الكهنة الذين عرفتهم خلال حياتي. كان من المستحيل اخفاء شيء عنه، أو حذف شيء خلال الاعتراف. لم يكن باستطاعتك تجنب قول الحقيقة كلها عن نفسك. تقف أمامه وتشعر بأنه يراك بكليتك، وأنه على علم مسبق بما سوف تقول له.

كثيراً ما زرته بصحبة والدتي قبل اندلاع الحرب، حين كان في المنفى وبقي رغم ذلك حراً في مقابلة الناس، وأصبحت ابنته الروحية. في ذلك الحين كنت أبلغ الثامنة عشرة من العمر. وفيما بعد أُلقي الأب أرساني في معسكرات السجناء لسنوات عديدة، ونادراً جداً ما وصلتنا منه رسائل موجزة تحتوي على ارشاده الروحي لنا. وبدءاً من سنة ١٩٤٩ فقدنا - نحن أبناءه الروحيين - كل صلة به، حتى اننا لم نعرف ان كان ما زال على قيد الحياة، أو أين هو. سوف أكتب هنا بعض الذكريات، ولكني لا أريد أن أذكر اسمي لأن هذه المذكرات شخصية جداً.

تزوجت في الأربعينات من رجل مؤمن. كان هادئاً، طيب القلب، ومنطوٍ على ذاته. لم يكن يتكلم كثيراً، ولا حتى معي. وكان يكبرني بعشر سنوات.

انتهت "الحرب الوطنية"، ولم ينلنا أذى شخصي من سنوات القمع التي امتدت بين عامي ١٩٤٦ و١٩٥٢. رُزقنا بابنتين، وعاشت والدتي معنا. وقد أحبني

زوجي بطريقة ثابتة وهادئة. وأمضى وقتاً طويلاً مع الفتاتين، وربّاهما على الايمان. عشنا عيشة رغيدة، وكثيراً ما كنا نصلي في البيت. وفي أيام السبوت والآحاد كنا نذهب الى كنيستنا، حيث حظينا بكاهن كثير الصلاح: الأب جاورجيوس. وبدا أن في عائلتنا اتحاداً كاملاً وسلاماً.

ثم حلّ ربيع العام ١٩٥٢، وحصل لي ما ترك أثراً في نفسي حتى آخر يوم من حياتي. كان للأثر وجهان: أنني ارتكبت خطيئة خطيرة كنتُ مدركة اياها تماماً، وقد اعترفت بها بكل صدق. ولكني شعرت في الوقت نفسه بأني بدّدت سعادة هائلة، وذلك النوع من الفرح الكامل الذي لا يحصل الا نتيجة الحب الحقيقي. هذه الطبقة الأخرى راسبة في أعماق نفسي، تغطيها ندامتي؛ ولكنها ما زالت حية، وأنا مدركة اياها. لقد اعترفت بخطيئتي الى الأب جاورجيوس، وظننت أن اعترافي قد طهّرني، بطريقة ما، من ماضيّ الأثيم.

في العام ١٩٥٨ أطلق سراح الأب أرساني من المعسكر، وانه لمن المستحيل أن أنقل السعادة التي شعرنا بها ــ نحن أبناءه الروحيين ــ عندما رأيناه من جديد. لقد شعرت وكأننا أصبحنا كلنا أقرب الى الله، بطريقة جديدة. أخبرت الأب أرساني بكل شيء، واعترفت له بكل شيء، ولكني عجزت عن اطلاعه على ما حدث سنة ١٩٥٢. كنت خجلة جداً، وشعرت في بعض الأحيان بالخوف من أنه سوف ينبذني اذا سمع بما جرى.

ماذا جرى؟ كما سبق وقلت: كنا نعيش، عائلياً، في انسجام. ولكن فجأة في العام ١٩٥٢، سيطر عليّ حب، وغمرني. وقعت في حب رجل غريب بالكلية عن طريقة تفكيري. لم يكن يؤمن بالله. ولكنه كان طيب القلب، حساساً، متوقد الذكاء وصاحب ارادة قوية. لقد انفجر هذا الحب بشكل مفاجئ...

كل شيء اختفى: عائلتي، وزوجي، وايماني، وكلمات أبي الروحي، وحتى خفري الأنثوي. كل ذلك انجرف بعيداً في زوبعة حب لم أختبر مثله من قبل. كان

حباً بشرياً، أرضياً، جعلني أصدق بأنه نوع الحب الذي لا يعرفه المرء الا مرة واحدة في حياته.

وقد تجدون صعوبة في تصديق أن طوال الأشهر السبعة التي استمرت خلالها علاقتنا، لم يراودني مرة شعور بالندم أو الأسف بسبب كل هذا الذي يحصل لي...

لقد سرقنا الحب من عائلتَينا ومن ضميرَينا. سرقناه من وجه البشرية. وأنا سرقته من أمام وجه الله.

كذبت على زوجي، كذبت على والدتي، وتخلّيت عن طفلتيّ. تهرّبت من كل واجباتي، ولكني التقيت بفيودور. ولم أستطع أن أمنع نفسي عن ذلك. ظننت أن زوجي لم يلاحظ شيئاً. وما زلت حتى اليوم غير واثقة من هذا. لقد كان دائماً صامتاً جداً. لم تبدر عنه مرة ردة فعل عندما أخبرته بأني تأخرت في العمل، أو عندما كنت متوترة. بل بدأ فقط يُظهر عناية أكبر بالطفلتين، ويمضي معهما وقتاً طويلاً، ويصلي كثيراً.

لست أدري كم كان يمكن أن تدوم مثل هذه العلاقة، ولكن ابنتي الكبرى أصيبت بمرض خطير في بداية الشهر السابع. وقد حاولنا في بادئ الأمر أن نعالجها في البيت: فوقع الاهتمام بها على عاتق والدتي وزوجي: الليالي بلا نوم، والاتصال بالأطباء. ثم ساءت حالتها الصحية، وأصبح من الواجب ادخالها الى المستشفى. وهنا أيضاً احتمل زوجي وطأة الرعاية. وحتى خلال هذه الأيام الخطيرة، فقد تدبرت أمري لأجد فترات قصيرة من الوقت أمضيها مع فيودور. وأحسست في ذلك الحين بأن لي الحق أن أنسى جميع صعوبات حياتي عندما أكون معه.

وفي أحد الأيام اتصلت بي والدتي الى العمل لتخبرني بأن حالة ابنتي قد أخذت منعطفاً جديداً نحو الأسوأ. في ذلك الوقت كان من المفترض أن ألتقي

بفيودور. ورغم كل شيء فقد ذهبت الى هـذا اللقـاء. وفي حـوالي السـاعة الثالثـة مررت الى البيت لأحمل الى المستشفى الطعام الذي حضّـرته والدتـي مـن أجـل ابنتي. ووجدت زوجي جاثياً يصلي أمام أيقوناتنا.

- "يا رب! لا تنسنا نحن الخاطئين. اشفنا وخلّصنا. افتقد أمتَـيك (وقـال اسمي واسم ابنتي)، افتقدهما بنعمتك!"

فخرجت من الغرفة بحرص، والتقطت الصرّة الـتي حضّـرتها والدتـي، وهرعت الى المستشفى. وحدث في هذه اللحظة أن فكرة مرض ابنتي، وخوفي على حياتها، ومعاينة تقهقري الروحي معاينة جلية، قلبَ نفسي رأساً على عقب. وبـدا وكأن ستارة سقطت عن عينيّ. أنا المؤمنـة، الابنـة الروحيـة لـلأب أرسـاني الـذي يتعذب الآن في معسكر، والذي كان يقودني على درب الايمان: لقد أصبحت أسوأ بكثير من غير المؤمنين الذين اعتدت أن أقارن نفسـي بـهم معتـبرة بـأني أفضـل منهم لأني أومن بالله!

ركضت داخل المستشفى ووجدت زوجي منحنياً فوق ابنتنا. فظننت بأنـها ماتت. وهرعت اليها، الا أن زوجي أوقفني قائلاً: "لا توقظيها: لقد نامت بعـد أن أعطوها حقنة". وأخذني جانباً، بالقرب من النافذة.

وقال: "اني بانتظارك هنا منـذ الصبـاح. الآن زالـت النوبـة، وقـد عدتمـا كلاكما!"

أربكتني هذه الجملة: ماذا قصد بـ "لقد عدتما كلاكما!"؟

وفكرت أن ابنتي قد تكون ماتت وزوجي لا يعلم ما يقـول. نظـرت اليـه ورحت أجهش بالبكاء. فاحتضنني بلطف ولمس كتفيّ وردّد: "لا بأس، الآن انتـهى كل شيء، الأمر كله!"

أدركت أن ابنتي ما زالت علـى قيـد الحيـاة، الا أن كلماتـه عـَنـَت أمـراً يرجح أنه يتعلق بي. وما بلبلني أنه كان في المستشفى منذ الصباح. ولكني رأيتـه في هذه الأثناء يصلي في المنزل. ما هذا؟ جلسنا معاً بجانب سرير ابنتنـا طـوال الليـل. وبقينا كلانا صامتَين، ولكن كان عند كلينا أمور كثيرة نفكـر بـها... حيـاتي كلـها مرت أمام عينيّ. ورأيت نفسي كما أنا بالحقيقة. خفت من النظر الى زوجـي: لقـد أثـّر فيّ تواضعه وصبره أكثر مما كان سيؤثـّر فيّ أي قدر من الاتهام.

ومنذ ذلك اليوم انقطعت علاقتي بفيودور. وعلمت بـأني كنـت ألعوبـة واهية بين يديّ الخطيئة. وكنت خجلة كوني ابتعدت عن الله، وكوني نسـيت كـل ما قاله لي الأب أرساني، واخترت درب الخيانة والرذيلة.

وعادت حياتي مع زوجي الى مجاريها، ولكـني أصبحـت الآن مختلفـة: لقـد فصلني عنه خط خفيّ من السرّية. ولكن بدا لي أنه لم يشعر به. كان هادئـاً كعادتـه على الدوام، رجلاً قليل الكلام. أعرف أنه أحبني، ولكـن بطريقـة عقلانيـة جـداً وهادئة جداً.

ومرت خمس سنوات بعد خروج الأب أرساني مـن المعسـكر عـام ١٩٥٨. وصرت أزوره مرة في الشهر. أعترفت له، سألته النصح، وغادرتـه هادئـة، متجـدّدة وفي سلام. الا أن ماضيَّ بقي يثقل عليّ كثيراً.

وفي تشـرين الأول ١٩٦٣ ذهبـت لرؤيتـه. وكـان الأب أرسـاني مبتـهجاً ونشيطاً بشكل خاص. صليت معه في غرفته صلاة الغروب، واعترفت لـه بصـدق وبالعمق. كان الأب أرساني صامتاً بصورة غير مألوفة خلال هذا الاعـتراف. وقـد تكلمت عن نفسي بالتفصيل. وعندما انتهيت سألني: "هل هذا كل شيء؟"

فأجبت: "نعم، هذا كل شيء".

فتنفس بعمق وسأل مجدداً: "هل هذا كل شيء؟" واذ لم يسمع مني اجابة، غطى رأسي ببطرشيله وقرأ عليّ صلوات الحلّ.

وفي صباح اليوم التالي تناولت من الأسرار المقدسة الى جانب أشخاص قلة آخرين جاءوا لزيارة الأب أرساني. كان الطقس مشرقاً، ولكن عاصفاً. خرجت وجلست على مقعد في الحديقة. كنت مبتهجة وفي سلام، بسبب اعترافي البارحة ومناولتي اليوم، وبسبب هذا النهار المُشمس.

وبعد برهة قدمت لي ناديزدا بتروفنا الشاي مع بعض الحلوى والبطاطا المقلية (وهي ماهرة جداً في تحضيرها). وتحدثنا فيما كنا نأكل، واستعدنا الذكريات، وأخبرنا القصص. وذهب الأب أرساني ليرتاح بعد الطعام. وبعد ذلك عبّر عن رغبته في الذهاب بنزهة الى الغابة التي تبعد حوالي كيلومتر. فاعترضت الدكتورة ايرينا على خروجه بسبب الرياح والغيوم القاتمة التي تتجمّع في السماء. ولكن الأب أرساني لبس معطفه ووضع قبعته. وأصرّت عليه ناديزدا بتروفنا أن يرتدي ملابس سميكة. ورغبت ايرينا بمرافقة الأب أرساني. وكنا كلنا بالطبع نرغب بمرافقته، ولكن بما أن هذه عبّرت عن رغبتها أولاً، فقد أحجم الآخرون عن الكلام. وذهبت ايرينا لجلب معطفها، وكان الأب أرساني ما زال في غرفته. وعندما خرج ورآها تلبس معطفها، نظر اليّ وقال: "سأذهب برفقة ل. انها بحاجة للذهاب معي في نزهة".

خرجنا وسرنا في الطرقات، وتجاوزنا حدائق مزروعة بالخضار، وأهراءات قديمة حيث كان الناس يجففون قطع القرميد. ووجدنا أننا وصلنا الى الحقل. كانت الريح تمزق العشب، وغيوم رمادية قاتمة تعطي الانطباع بأنها عالقة على الأرض، وأغصان الأشجار الملتوية تصارع الرياح العنيفة. كانت الرياح ترفع الأوراق المتساقطة وتدفعها الى الأمام، وترميها عند أقدامنا. كانت الرياح تصفّر والأوراق الميتة تصدر حفيفاً. وبدا وكأننا نمشي على شيء حيّ يئن ويتوسّل.

أحسست بالانزعاج، والتفتّ الى الأب أرساني: كان يمشي الى جانبي بهدوء، مركّزاً على أفكاره. وفي بعض الأحيان كانت تنير وجهه ابتسامة ضعيفة.

هناك ممر ضيق يقود الى داخل الغابة. وفي الغابة يمكنك أن تشعر بالرياح بدرجة أقوى أيضاً. انحنت الأشجار تحت ضغط الرياح وهي تئن بحزن. وفجأة ترتفع الأوراق التي غطّت الأرض، وتتحرك ببطء في اتجاه الرياح، مصطدمة بجذور الأشجار، ومتساقطة الواحدة فوق الأخرى، لكي تعود وتتفرق من جديد مع هبة الريح التالية. كل هذا أوقع الكآبة في نفسي وأفسد مزاجي، وأقلقني وأصابني بالاضطراب. وتساءلت: "ما السبب في أن الأب أرساني أراد اصطحابي في نزهة؟ لماذا؟" لم يكن يفعل شيئاً بدون سبب. لقد فكر دائماً بأساليب تجعله يخدم الآخرين، أساليب يستطيع بواسطتها أن يوجّهنا ــ نحن أبناءه الروحيين ــ نحو الله. والأرجح أنه لم يدعُني للخروج دون سبب هام. لقد اعترفت البارحة، واليوم تناولت من الأسرار المقدسة و... فجأة وخزتني ذكرى سنة ١٩٥٢.

فصرخت وأوقفته قائلة: "أيها الأب أرساني! عليّ أن أخبرك..." وبدأت بالكلام وأنا بالكاد أتنفس لفرط تأثري.

وقف الأب أرساني بقربي تماماً، ونظر اليّ بتمعّن ووداعة. وبعد أن سمع كلمات اعترافي الأولى، حنى رأسه ورسم علامة الصليب وقال لي: "لا تخبريني! ليس هذا ضرورياً! ان خطيئتك عظيمة، لكن الله قد سبق وغفرها لك، فقد اعترفتِ بها للأب جاورجيوس. لا تكرري روايتك!"

بكيت، وراحت الدموع تنهمر على وجهي. وحاولت متابعة الكلام وأنا مرتجفة بسبب خوفي الداخلي، وحرجي، وعاري.

– "لا تبكي. لقد فهمتُ كل شيء. ان عدم اطلاعك زوجك على ذلك هو أمر سيئ وجيد في آن. انه يحبك. ولو أنك أخبرته لكنت جرحته في العمق، ولكان ذلك خلق مشكلات خطيرة لعائلتك. انه يعرف على أية حال. نحن كلنا

خطأة. تذكري خطيئتك أمام الله وأمام عائلتك. عليكِ أن تصلّي دون انقطاع، وأن تطلبي الصفح. سوف أصلي معكِ. أهم ما في الأمر أنك استطعت أن تتكلمي عن ذلك لأبيكِ الروحي. الحقيقة تطهّر الشخص، وخصوصاً الحقيقة المعلَنة في الاعتراف. هيا بنا نذهب".

لم نكن قد ابتعدنا في الغابة، فعدنا أدراجنا الى البيت. ما زالت الرياح عنيفة وباردة، وما زالت الأغصان تكنس الأرض، وما زالت الأوراق تصدر حفيفاً على الأرض، والغيوم القاتمة تتسارع في السماء، ولكني استعدت السلام والهدوء اللذين لم أعرفهما منذ سنة ١٩٥٢. والآن هذا الطقس المروّع لا يخيفني، لا يمزق نفسي أشلاء. وفي طريقنا الى البيت، كان الأب أرساني حيوياً ومرحاً. وفيما كنا نمشي، روى لي سيرة حياة القديسة مريم المصرية بالتفصيل. وكل كلمة قالها حملت اليّ معنى مميزاً وعميقاً.

وفي المنزل كان الأب أرساني مرحاً ومصلياً طوال النهار. أخبرنا الكثير حول الأشخاص المختلفين الذين التقاهم خلال حياته في المعسكرات، واستشهد بآيات من الانجيل ومن أقوال آباء الكنيسة في القرن الرابع. تكلم عن الخطايا غير المعترف بها، وعن الصلاة. تكلم مطولاً جداً عن الصلاة. وتحدث بشكل أساسي عن قوة الصلاة عندما يتفق اثنان أو أكثر على الصلاة من أجل أمر واحد. وتذكر كيف كان يصلي مرات كثيرة في المعسكر طالباً خلاص أصدقائه. فقال أليوشا (الطالب، وهو الآن الأب ألكسي)، وكان جالساً معنا الى الطاولة: "أجل أيها الأب أرساني، هل تذكر كيف أُنقذنا في زنزانة السجن؟ ان صلاتنا المشتركة قد صنعت معجزة".

وسأذكر دائماً الأب أرساني وهو يقول انه عندما يتفق اثنان أو ثلاثة على الصلاة من أجل الأمر نفسه، واذا كانت الصلاة صادقة وصادرة عن ايمان عميق وقلب طاهر، فهي مقتدرة على الدوام أمام الله ووالدة الاله.

قال الأب أرساني: "ان الخطيئة لا يمكن تحاشيها عند الغالبية العظمى من الناس، لأننا نعيش على الأرض. ولكن الأمر الأساسي هو علاقة الشخص مع الله. علينا أن نتوجه اليه في الصلاة، في صلاة صادقة وعفوية - في توبة واعتراف ووعي لحالتنا الأثيمة، وقيامنا بالأعمال الصالحة، ومحبتنا للآخرين، وللحيوانات والطبيعة!"

وقال الأب أرساني: "علينا أن نتذكر على الدوام كلمات الكتاب المقدس: "لي الانتقام، أنا أجازي يقول الرب" (رو١٢: ١٩). يجب ألا تراودنا مطلقاً فكرة الانتقام. واذا راودتنا فعلينا أن نحاربها بالصلاة متذكرين حياة الآباء، وكيف حاربوا هذا الهوى وتغلبوا عليه".

وعندما تراودنا فكرة الانتقام، نصحنا الأب أرساني، بأن نضع أنفسنا في مكان الانسان الذي نريد الانتقام منه، لكي نعاين لا منطقية رغباتنا.

كما تكلم في الامسية عينها عن الاهتمام الذي يجب أن نبديه للآخرين، وكيف يجب أن نصغي عندما يخبرنا أحدهم عن حزنه، حتى ولو لم نكن موافقين على تصرفه حيال هذا الأمر. علينا أن نرى حياته من خلال عينيه، بشكل عميق، ومن دون ادانة. فالحياة معقدة لدرجة أن الشخص، في أغلب الأحيان، لا يعرف مسبقاً ما سوف يقدم عليه.

وفيما كان الأب أرساني يتكلم، راح ينظر اليّ مطولاً. وعندها شعرت أن باستطاعته أن يرى كامل نفسي عندما ينظر اليّ.

وعندما ودّعني الأب أرساني، قال لي: "تذكري خطيئتكِ على الدوام. وصلّي، واطلبي المغفرة دون انقطاع. لا تنسي خطيئتك أمام زوجك، واصفحي له كثيراً".

وغادرته وأنا أهدأ حالاً. وخلال الطريق الى البيت لم أنفكّ عن التساؤل، وحاولت أن أفهم كيف اتفق أن عرف الأب أرساني بأمر اعترافي للأب

جاورجيوس، وأنا لم أخبر أحداً بذلك؟ كان الأب أرساني بالفعل قارئاً للنفس البشرية. لقد رأت عيناه الروحيتان وقرأتا ما كان أكثر سرية فينا.

وتوفي الأب أرساني تاركاً ايانا يتامى. وزوجي الذي أذنبت اليه كثيراً، مات هو الآخر. ورحلت الفتاتان. والآن عندي وقت طويل للتذكر والتفكر ملياً. وقد قررت أن أتكلم هنا عن المساعدة الهائلة والقوة الروحية اللتين وهبنا اياهما الأب أرساني، لنا جميعنا.

رسالة صغيرة

أُعطيتُ رسالة صغيرة لكي أوصلها الى الأب أرساني. وفي طريقي أضعتها. متى؟ أين؟ لم أستطع أن أفهم. ولم أكتشف هذه الاضاعة الا عندما وصلت.

كنت شديد الاضطراب، وفي حالة مزرية. وحال وصولي أخبرت الأب أرساني بالأمر. علمت أن هذه الرسالة الصغيرة شديدة الأهمية. والشخص الذي كتبها ينتظر جواباً في أسرع وقت ممكن. ولكني لم أعرف موضوعها، وما كانت عندي حتى فكرة تقريبية عما تحتويه!

وبعد أن سمع الأب أرساني بما حدث قال: "هذه أيضاً مشيئة الله!"

وفي اليوم التالي، وفيما كنت أودّعه باركني، وأعطاني رسالة صغيرة وهو يقول باسماً: "أرجوك ألا تضيع هذه!"

وخرجت، وما أن وصلت حتى هرعت الى م.، وحتى قبل أن أسلّمها الرسالة قلت لها بأني فقدت رسالتها. فحزنت م. حزناً شديداً وحتى انها بدأت بالبكاء. ولكن ما أن قرأت رسالة الأب أرساني حتى فرحت فرحاً عظيماً، وبكت هذه المرة من السعادة. وراحت تردد دون توقف: "يا رب! ما هذا الفرح! لقد كتب لي الأب أرساني جواباً كاملاً عن رسالتي. أتفهم؟ لقد كتب لي كل شيء. اذن كنت تمزح قائلاً بأنك أضعت رسالتي؟ كيف استطاع اذن أن يكتشف كل مشكلاتي؟"

وأنا أيضاً تساءلت: "كيف؟".

خدمة من أجل الراقدين

صباح ٢١ آذار أقام الأب أرساني قداساً الهياً. يوم السبت حضر ثلاثة أشخاص، ثم وصل أربعة غيرهم في قطار المساء.

أعطى المناولة المقدسة لجميع الذين اعترفوا منا. وأنهى القداس الالهي وقال لنا بأننا نستطيع الخروج، اذا أردنا، وأن نتناول الشاي في غرفة ناديزدا بتروفنا. وأوضح لنا بأنه سوف يأتي في خلال ساعة: أراد أن يقيم خدمة من أجل الراقدين.

لم نخرج. وباشر الأب أرساني الخدمة من أجل الراقد حديثاً، عبدِ الله كيريل. وبكى في أثناء الخدمة. كانت الخدمة كلها "أنيناً للروح"، مرثاة حقيقية من القلب لصديق عزيز راحل. لم ينتبه الى أيّ منا، وبدا وكأنه وحيد تماماً في الغرفة. لم يكن هناك سوى الصلاة اللامحدودة من أجل الرحمة والغفران لنفس الراقد، عبدِ الله كيريل. ولم يكن أحد من الموجودين هناك يعرف المدعو كيريل هذا، ولكننا أدركنا أنه صديق للأب أرساني، صديق محبوب جداً.

أنهى الأب أرساني الخدمة، وخلع حلّته الكهنوتية، ثم انضم الينا جميعاً لتناول الشاي وهو حزين جداً. لم يشعر أحد بالرغبة في الكلام. كلنا احتسينا الشاي بهدوء، وكان الأب أرساني صامتاً أيضاً. ثم تركَنا ودخل الى غرفته، ونحن جلسنا الى الطاولة.

وفي حوالي الساعة الثالثة وصلت برقية موجهة الى الأب أرساني: "في ٢١ آذار، عند السابعة صباحاً، مات كيريل بنوبة قلبية. التوقيع: الابن ايغور".

لقد وصلت البرقية من ياروسلافل.

وعندما سمعنا ما جاء في البرقية تذكر العديد منا العزيز كيريل سيرجيفيتش، وهو رجل لطيف وطيب عاش فترة من الزمن في معسكر مع الأب أرساني.

نظرنا بعضنا الى بعض، وكلنا فكرنا كم يجب أن يكون المرء رائياً حتى يعرف بموت ابنه الروحي قبل وصول الخبر.

ما أعظم قدرتك يا رب، في أولادك المختارين!

اني أُسلّم الرسائل

أمضت ناتاشا أسبوعين عند الأب أرساني، ثم عادت ومعها رزمة كاملة من الرسائل التي يجب أن تُسلّم في أسرع وقت ممكن.

وقد طُلب اليّ أن أسلّم نصفها.

كانت الأحوال مضطربة. العديد منا قد تمّ اعتقالهم، والباقون شعروا بأنهم ملاحقون. وهكذا فقد كانت مهمة تسليم الرسائل مهمة خطرة.

قالت ناتاشا انها حين كانت مقيمة عند الأب أرساني، كان من الواضح أن المنزل تحت المراقبة. وبالاضافة الى ذلك فان ناديزدا بتروفنا وبعض الجيران قد استُدعوا للتحقيق، وسُئلوا: من يأتي لزيارته، ومن يراسله، ومن يمكث عنده، وان كان الأب أرساني يقوم بخِدم كنسية في المنزل.

قالت لي ناتاشا: "بينما كنت مسافرة في القطار الى البيت، كان عندي شعور دائم بأن أحدهم خلفي. كنت أسافر في قطار مكتظ، والعديد من الناس يركبون القطار معي في المحطة. ومع ذلك فقد استرعت انتباهي بشكل قاطع امرأة "اتفق" لها أن تكون بالقرب مني حيثما كنت جالسة أو واقفة.

"وطوال الطريق الى المنزل كنت أفكر: "ماذا يجب أن أفعل بالرسائل اذا ما ألقوا القبض عليّ؟" ولكني لم أستطع التفكير بحلّ. وتذكرت كلمات الأب أرساني عندما باركني مودّعاً اياي: "سوف يحميكِ، سوف يرافقكِ. لا تخافي من شيء. كل الأمور ستكون على ما يرام"

"نزلت من القطار في موسكو، وأحسست بأن أحداً لا يراقبني. شعرت بالهدوء، وذهبت الى البيت في سلام. انتهى الضغط النفسي، وحتى اني فكرت باحتمال تخيّلي كل شيء".

هذا ما قالته لي ناتاشا وهي تعطيني الرسائل. وضعنا الرسائل على الطاولة، وفرزناها بحسب الأشخاص الذين تعرفهم كلّ منا. وأمضيت الليلة عند ناتاشا، وقضينا نصفها في الحديث عن الأب أرساني، وعن تعاليمه، وعن طريقة حياته.

وفي السابعة صباحاً ارتديت معطفي، ووضعت منديلاً على رأسي، وغادرت المنزل حاملة الرسائل. كان ذلك يوم أحد، وفي الشوارع عدد قليل من الناس. سرت بفرح وحماس. الرسالة التي وصلتني من الأب أرساني أفادتني كثيراً. لقد طمأنتني، ولطّفت حالتي غير المستقرة.

كنت قد قطعت حوالي ٥٠ متراً عندما أحسست بأن أحدهم يمشي ورائي. فاستدرت الى الخلف ورأيت امرأة. وخطرت لي فكرة: "انهم يراقبونني". وقررت أن أختبر صحة هذا الانطباع، فزدت سرعتي وانعطفت داخل الشارع التالي الصغير، فبقيت الخطوات خلفي مباشرة. فاستدرت من جديد ووجدت أن المرأة ما زالت خلفي. توقف قلبي عن الخفقان للحظة، ولم تعد ساقاي تطيعانني: لم أعرف ما العمل. كنت أحمل الرسائل التي، اذا صودرت مني، قد تتسبب بمشكلات خطيرة للعديد من الناس. سرت قليلاً بعد، وعبرت الشارع، ففعلت المرأة كذلك. وقد تركت بيننا مسافة ٥٠ أو ٧٠ متراً خلفي. لم يعد من شك الآن في أنني ملاحَقة. واخترقت ذهني فكرة: ربما يجدر بي أن أرمي الرسائل بعيداً وأبدأ بالجري. ولكن من الواضح أنها سوف تُسترجع. وهم يعرفون هويتي، وأنني خرجت من منزل ناتاشا.

بعد أن تمالكت مشاعري وسيطرت على نفسي، بدأت أصلي. في البداية لم تتدفق الصلاة بسهولة. ثم ركّزت عليها، ومشيت ببطء.

ربما كنت متهوّرة، ولكني صليت الى والدة الاله بهذه الكلمات: "يا والدة الاله! اني أتكل عليكِ وأعتمد على مساعدتك وحدها. خذيني تحت حمايتكِ. انـي أضع نفسي بين يديك! أنقذيني!"

وهكذا سرت وأنا أصلي، معتمدة على حماية والدة الاله. ففارقني الخـوف وكذلك اضطرابي: كنت واثقة من أني لست وحدي. ان والدة الاله تحميـني. وان حدث أمر ما، فهذا يعني أنها مشيئة الله، مهما حدث. "كل شيء يتوقف عليـكِ يـا والدة الاله، ومهما تريدين فسيكون!" ومشيت بهدوء. لم أكـن خائفـة مـن شـيء، وبقيت أسمـع طقطقـة الأسـفلت تحـت كعبَـي المـرأة الـتي تسـير ورائـي. لم أعـد مستعجلة: بدأت أبطىء السير لأنـني أدركـت مقـدار اسـتحالة الهـرب في حـالتي. وضعت رجائي كله على والدة الاله، لذا فقد كنت ساكنة وهادئة. تـابعت السـير والصلاة، وحتى اني لم أنتبه الى أين أذهب. لم يكن في ذهني غير أمر واحد: والـدة الاله. سمعت خطوات تقترب مني أكثر فأكثر. ووصلت الى مفترق طرق، فـانعطفت عند زاوية شارع، ورأيت امرأة تلبس ثياباً مشابهة تماماً لثيابي، ولها العمـر نفسـه، وعلى رأسها المنديل نفسه، وترتدي المعطف نفسه، وتحمـل الحقيبـة نفسـها علـى كتفها. راحت تسير بمحاذاتي، واستدارت قليلاً باتجـاهي. وبـدا وجهـها مألوفـاً لي. كان مشرقاً، وبدا مستنيراً بضوء فريد.

نظرت اليها من جديد، ولم أعد أستطيع النظر اليها: كـان وجهـها صافيـاً جداً ورائعاً جداً. وهكذا سرنا سوية، وفرحت لأني لم أعد وحدي. تـابعت المسـير والصلاة. لم أعرف من تكون مرافِقتي، ولكني بقيت أسمع وقـع كعبَـي المـرأة الـتي تسير خلفي. مشينا الى زاوية شارع، فاستدارت مرافِقتي نحوي وقالت: "توقفي هنا وقفي في مكانكِ. وأنا سأتابع السير". قالت ذلك بحزم، ولكن وجهها كان مفعمـاً بالطيبة وبالنور. توقفتُ، وأما هي – مرافِقتي – فقـد تـابعت السـير الى الأمـام. كانت مماثلة لي بمظهرها وبلباسها. وبدا لي ذلك غريباً، ولكني توقفـتُ. وأمـا المـرأة التي كانت تتبعني، فقد توقفتْ بالقرب مني، وتفرّست فيّ من الرأس الى القدمـين.

وبدت مندهشة. واستدارتْ حولي وركضتْ لتلحـق بمرافـِقتي الـتي كـانت تسـير بسرعة كبيرة.

كان وجه المرأة التي تلاحقني غاضباً جداً، وبدت وكأنها تكره كـل مـا هـو حيّ.

وهكذا فقد بقيتُ واقفة. لم تكن لي القوة للمشـي. رحـت فقـط أراقـب المرأة الأخرى التي بدت مشابهة لي، وهي تتابع السير، تلاحقها العميلة التي كانت تلاحقني طوال هذا الوقت. ثم وصلتا الى نقطة تقاطع أخرى، وانعطفتا عند زاويـة شارع، واختفتا من أمام ناظري. فاستعدت رشدي ومشـيت بالاتجـاه الآخـر. وعنـد الساعة الثانية كنت قد أوصلت الرسائل كلها.

وكثيراً ما تساءلت عمن تكون تلك المرأة التي أرسـلتها لي والـدة الالـه، وعلمت بأن تلك كانت معونتها الرائعة والثمينة.

بعد مرور سنة على الحادثة تعرضتُ للاعتقال. ولم ينفك مستجوِبي عـن سؤالي عمن تكون المرأة التي سارت معي، وأين اختفينا نحن الاثنتين؟ وحتى انـهم واجهوني مع المرأة التي كانت تلاحقني، فقالت: "ها أنا أسير، أيها الرفيـق المـلازم الأول، وألاحقها. انعطفتْ عند زوايا الشوارع لتجعلني أفقدها، ولكـني مـا زلـت أتبعها... وعندما وصلتُ الى زاوية شارع كازاكوف، كانت هناك امرأة واقفة، وامرأة أخرى مشابهة تماماً لـلأولى تسـير مبتعـدة. كانتـا متطابقتَـين: تلبسـان الملابـس نفسها، والمنديل نفسه، والحذاء نفسه، والمعطف نفسـه، والحقيبـة نفسـها، والمشية نفسها، وانحناءة الرأس نفسها. لحقتُ بهما، ولكني لم أستطع أن أتبيّن أيهما كنـت ألاحق منذ البدء، وأيهما ظهرت عند زاوية الشارع. لحقت بتلك التي كانت تبتعد. سرت خلفها لمدة عشر دقـائق تقريبـاً عندمـا اختفـت فجـأة، وبالكليـة، في الهـواء الرقيق. اقسم بأني أقول لك الحقيقة: لقد اختفت تماماً. اسأل هـذه المـرأة. لتـقـلْ لك ما فعلت. كان ذلك مشابهاً لعمل اخفاء في السيرك".

بعض الأفكار الحزينة

خلال العشرينات والثلاثينات والأربعينات كنا يافعين، نشيطين، ونتكلم بدون خوف. وكنا نتوقد برغبة مساعدة بعضنا بعضاً. في البداية كان الأب أرساني معنا، ويقودنا. وحتى انه أرشدنا كلنا عندما كان منفياً. ثم أُقفلت كنيستنا، واضطررنا لاقامة الخِدم في المنازل، اذ أصبحت جماعتنا تعمل الآن في السرّ.

اعتُقل الكثير منا، وأُرسل البعض الى المعسكرات أو الى المنافي. وخاف غيرهم فتركوا الجماعة.

وفرّقت الحرب العديد منا: جوع الحرب، والاخلاء، والتعبئة، نثرتنا في كل أنحاء البلاد. لم نتلقَّ أية أخبار من الأب أرساني. قال بعضهم انه قُتل أو هلك جوعاً في أحد المعسكرات. وحتى خلال هذه الأوقات الحالكة، فقد بقينا — نحن أبناءه الروحيين — متماسكين بعضنا مع بعض.

وانتهت الحرب، واجتمع معظمنا تقريباً في موسكو. فالتقينا، وصلينا معاً، وحاولنا أن نهتم ببعضنا البعض كما فعلنا في السابق. حاولنا أن نقرأ وأن ندرس. وحاولنا أن نهتم بهؤلاء الذين كانوا منا مرضى، ولكننا فشلنا لسبب أو لآخر.

والذين كانوا من أبناء الأب أرساني الروحيين وأصبحوا بعد الحرب كهنة، غادروا موسكو. وأصبحت زيارتهم مستحيلة في كثير من الأحيان.

وفي نهاية الأربعينات أدركنا فجأة بأننا كبرنا، وفقدنا طاقتنا الروحية. لقد أصبحنا عديمي الشعور، قساة القلوب وفاقدي الصبر تجاه بعضنا البعض. ما زلنا

ما كان باستطاعتي أن أجيب؟ كان المستجوب يصرخ، وحتى انه ضربني، فبقيت صامتة. لم أجب سوى بهذا القول: "حسناً، اني لا أعرف!" وتابعت الصلاة. وفجأة لم أعد أستطيع المقاومة، فقلت ببساطة: "لم أختبئ في أي مكان، ولم أختفِ. لقد أنقذتني والدة الاله. كنت أسير وأصلي اليها طوال الوقت". فبدأ المستجوب بالضحك، ولكنه كفّ عن ضربي.

كانت العقوبات صارمة في تلك الفترة، ولكن والدة الاله أعانتني من جديد. تم نفيي لمدة ثلاث سنوات الى مكان يبعد عن موسكو ما لا يقل من ١٠٠ كيلومتر. وكانت تلك أخف عقوبة ممكنة.

مَن أرسلت لي والدة الاله؟ أم أنها حضرت بنفسها؟ هل أرسلت لي قديسة، أو ملاكي الحارس، لابعاد المرأة التي كانت تلاحقني؟ ولكني رأيتها، وسمعت صوتها: كل هذا مدوّن في تقرير استجوابي.

بعد ذلك لم أذهب لزيارة الأب أرساني الا في سنة ١٩٥٨، وأخبرته بكل ما جرى. وسألته عن رأيه بما حصل.

فقال: "استجابة لصلواتك أرسلت لكِ والدة الاله، حاميتنا، نعمة عظيمة وحفظتكِ. كانت النعمة هامة لي ولكِ في آن. فلو أنهم احتجزوا رسائلي لكان العديد من الناس تعرضوا للاعتقال وأُرسلوا الى المعسكرات.

"المجد لك يا الله، المجد لك! يا والدة الاله الكلية القداسة خلصينا.احتفظي دائماً بأيقونة القديسة عذراء قازان. وصلّي أمامها كثيراً".

من مذكرات أ. ف. ر.

نتكلم عن المحبة، وعن مساعدة بعضنا البعض، ولكننا أردنا بالحقيقة أن يساعدنا الآخرون. لقد تغيّرنا.

أصبح لكلٍ منا عائلة، ولنا مشكلاتنا الخاصة، وأمراضنا، وعملنا، وأولادنا. وقد ذاب ايماننا ونوايانا الصالحة في وسط كل هذه الاهتمامات. لم يكن ثمة من يستطيع أن يرشدنا ويقوّمنا.

والتأمت مجموعة صغيرة منا حول بعض أبناء الأب أرساني الروحيين الأكثر ثباتاً. الا أن الآخرين تركونا مفضّلين ارتياد الكنائس المفتوحة "الآمنة". ولم نعد نلتقي سوى بالنادر، بالصدفة، وأكثر الأحيان في المآتم والأعياد الكنسية الكبرى.

ودارت أحاديثنا حول الصحة، ومَن تزوج، ومَن مات، ومن رُزق بأطفال أو بأحفاد، ومن حصل على شقة، أو أنهى دراسته. وأضحت المناقشات المعتادة والأحاديث الهامة حول المواضيع الدينية الجدية أو الكتابات الدينية، جزءاً من الماضي.

لقد خبا النور، وحياتنا الروحية اندثرت تقريباً: "أضرب الراعي فتتبدد الخراف" (زك ١٣: ٧).

وفجأة علمنا في سنة ١٩٥٨ أن الأب أرساني حيّ وحرّ. وكانت لقاءاتنا الأولى، وأحاديثنا، واعترافاتنا، بهجة عظيمة لنا جميعنا، بهجة لا تُضاهى. جميعنا انجذبنا الى منزله الصغير، تحت حمايته، جميعنا تقريباً. كان هناك الذين فقدناهم بسبب الخوف والاهمال. كنا نغتاظ بسبب نقص اقرار الناس بالفضل، وقساوة قلوبهم، ونسيانهم. وقد تألم الأب أرساني من أجلنا جميعاً.

ومرت سنة. وارتفع عدد الناس الذين يظهرون في ذلك المنزل الصغير، في تلك المدينة الصغيرة البعيدة عن موسكو: لم يكن يشملنا نحن فقط، بل العديد من أولئك الذين التقاهم الأب أرساني خلال اقامته في المعسكرات. ان عودة

الأب أرساني، ولقاءاتنا به قد أدت بالعديد منا الى عيش حياة جديدة، والى نفض غبار الحياة الدنيوية، وانجذاب أقوى الى الكنيسة. وكما في السابق، بقينا نشارك في الخدم في كنائس مختلفة بموسكو، ولكننا حملنا نفوسنا الى الأب أرساني وتركنا عنده مرارتنا وآلامنا وأثقالنا وشكوكنا. أحضرنا اليه خطايانا، وحصلنا بالمقابل على ارشاده الروحي وتعليمه وتعزيته. وكل هذا قدم لنا امكانية الحياة في الايمان.

لن أنسى أبداً كلمات الأب أرساني: "في هذا العالم، عليكم أن تسيروا في دروب وصايا الله، وأن تكونوا رحماء بعضكم مع بعض. في تصرفكم وفي أعمالكم، حاولوا أن تكونوا كالرهبان، حتى ولو عشتم في بحر الحياة الهائج هذا. وعندها لن تتخلى عنكم رحمةُ الله". وقال أيضاً: "ان الصلاة الى والدة الاله هي احدى أهم وأقوى صلوات المؤمن. افحصوا كل يوم جميع أعمالكم وأجيبوا عنها أمام أنفسكم وأمام الله".

وعلى الرغم من أن الأب أرساني أصبح معنا، وأعطى الكثير منا حياة جديدة، فقد تغيرنا. لم نعد يافعين، لقد أرهقتنا الحياة وسحقتنا. وشعرت أننا، في صلواتنا، أصبحنا الآن نطلب المعونة أكثر، ونمجّد الله أقل من السابق. ولا يُجدي أن يكون المرء على هذه الحال.

وسألت مرة الأب أرساني: "لِمَ الأمر على هذه الصورة؟" فأجابني بطريقة حزينة بعض الشيء: "هذا أمر طبيعي من ناحية ما، فالناس قد اجتازوا في حياتهم أموراً كثيرة، لقد اجتازوا الكثير من الصعوبات. لقد رُتِّب كل شيء بهدف استئصال الايمان من نفوس الشعب. وحدثت ظروف معينة جعلت من الضروري التفكير فقط بكيفية البقاء على قيد الحياة، والتغلب على العقبات التي وُضعت. أنظر فقط الى ما آلت الحياة الآن: ان الراديو والمجلات والتلفزيون، والصحف والسينما والمسرح تنشئ طريقة تفكير موحّدة النمط هي نفسها للجميع. وقد أدى هذا الى كائن بشري يعجز عن البقاء بمفرده مع أفكاره، للشعور بحضرة الله.

"ان جري الحياة المعاصرة السريع جداً، والمضغوط باستمرار، يجعل البشر لا يفكرون الا وفقاً لما يريد شخص ما أن يفكروا. الشخص ليس بمفرده على الاطلاق، وحتى عندما يرسلونه الى مكان للنقاهة، أو يبقى في المنزل ليرتاح، هناك على الدوام ايقاع محدد ومبرمج ليتبعه. كل شيء مقرَّر لك. الناس يتلقون الغذاء والمعلومات ويتلقّنون ما قرر شخص آخر أنهم بحاجة اليه. أعداد ضخمة من الناس تلتئم معاً، ولكنها تتفرّق في المعركة اليومية من أجل الحياة.

"كل هذا قد أثّر حتى في المؤمنين، وقرّبهم من "المقياس"، وجعلهم غير مبالين. وثمة طريقة تفكير مفروضة تجعل من الصعب على الشخص أن يصبح مؤمناً، وتجعل من الصعب على المؤمن أن يحافظ على ايمانه. ولكن تذكّر أن كنيسة المسيح سوف تحيا الى الأبد، وحتى في ظل هذه الظروف. حافظ على ايمانك، وناضل من أجل ذاتية التفكير. صلِّ أكثر، طالِع الكتاب المقدس، والله سيحفظك. ولن يدعك تفقد وضوح أفكارك. انه لن يدعك تفكر على غرار الجماهير التي لا وجه لها، جماهير الناس اللامبالين، والعديمي الاحساس".

بافيل سيميونوفيتش

لقد حفظنا الله برحمته. في سنة ١٩٥٨ قرر الأب أرساني الانتقال الى منزلي نهائياً. في البداية لم يقابل أحداً، ثم كتب بضعة رسائل وبدأ الناس يتوافدون، عدد قليل منهم في وسط الاسبوع، ثم حوالي عشرة أشخاص في السبوت والآحاد.

واعتدت أن أذكّر الأب أرساني بأن هذا الأمر خطر، ولكنه ترك كل شيء بين يديّ الله. كنت قلقة وحاولت أن أتدبر الأمر حتى يأتي الناس بالدور، وخصوصاً في ايام الآحاد والأعياد، بحيث لا يُسترعى انتباه السلطات. كان بعض الأشخاص الطيبين يعيشون في شارعنا، ولكن أيضاً بعض الأشخاص الغير الطيبين، وأنا آسفة لقولي ان هؤلاء كانوا أكثر عدداً من الآخرين.

ولا شك أن الأحوال قد تغيّرت قليلاً نحو الأفضل منذ وفاة ستالين. ومع ذلك فاننا كلينا، أنا والأب أرساني، قد تعرضنا للاعتقال، وأمضينا فترة من الزمن في المعسكرات. والأب أرساني كاهن، وهو لا يخدم في أية كنيسة مفتوحة. فكل شيء ممكن الحصول.

وبعد مرور سنة على انتقال الأب أرساني الى منزلي، تلقيت زيارة من مفتش الشرطة المحلية. كان اسمه بافيل سيميونوفيتش، ولكن الناس يلقبونه بـ "القابض". وكان يبلغ حوالي الخامسة والثلاثين من العمر. كان غير طويل القامة، أحمر الشعر، أزرق العينين، ذا وجه منفتح وابتسامة عريضة. ويجب أن أقرّ بأننا كنا كلنا نخافه بسبب هذه الابتسامة. فقد كان من عادته أن يغرِّم الناس أو يوجِّه اليهم انذاراً، من دون أن يتوقف عن الابتسام على الاطلاق.

وصل الى البيت وقال: مرحباً. وسألني عن صحتي، وسأل ان كان كل شيء بحسب القانون. ثم بدأ يسألني عن النزيل عندي. من هو؟ من أين أتى؟ فأجبت

ضاحكة: "يا بافيل سيميونوفيتش، ان نزيلي مصرَّح به رسمياً للشرطة. انهم يعرفون كل شيء عنه. قل لي ماذا تريد فعلياً؟"

– "في الواقع لا أريد شيئاً. ان جيرانكِ يثرثرون. انهم يرون العديد من الناس يزورونكِ. ونحن نعرف بأن المستأجر عندك هو كاهن، وربما يقيم الخِدم الكنسية في البيت؟ وأنت تعرفين بأن هذا أمر يحظّره القانون بشدة. فهناك بعض الكنائس المفتوحة لمثل هذه النشاطات".

وبينما كنا نتكلم خرج الأب أرساني من غرفته، ورحّب بالزائر وجلس.

– "هل تسأل عني؟"

وأُخذ بافيل سيميونوفيتش على حين غرّة، ولكنه أجاب بالقول: "أجل عنك يا سيد سترلتزوف. كنتُ أسأل ان كنت تقوم بخِدم كنسية في البيت. لقد سمعت بأنك أتيت من معسكر؟"

وبدآ بالكلام. قال بافيل سيميونوفيتش شيئاً ودّياً. ثم ذكر شيئاً حول مذهب غريب غزا هذه المدينة. تكلم عن شهود يهوه، وقال شيئاً عن الله. وأجاب الأب أرساني. وبدا، لدهشتي، فرحاً بالمحادثة. ومكث الرجل عندنا حوالي الساعة، احتسى فنجاناً من الشاي وتناول شيئاً من الطعام. ثم أعطيته بعض المال: حوالي ١٠٠ روبل، فأخذها كالعادة. لم يكن يرفض المال على الاطلاق. لم يكن يلمس المال على الاطلاق، بل ينتظر منك أن تضعه في جيبه مباشرة، ويتصرف وكأنه لم يلاحظ شيئاً.

وفيما كان يغادر البيت قال: "احترسي من زوّاركِ". ومنذ ذلك اليوم أصبح يزورنا بانتظام، مرة في الشهر. مرة راح يدقق في رقم منزلنا، ومرة أخرى راح يفحص ان كان سياجنا في حالة جيدة، او ان كنا نملك كلباً. وشعرت بأنه لا يريد سوى التحدث مع الأب أرساني.

وهكذا جرى الأمر: التقاه الأب أرساني في كل مرة. خرج من غرفته وجلس معنا، فتكلمنا سوية.

كانت لهما أحاديث غريبة. كان الأب أرساني يخبر بافيل، دون سبب على ما يبدو، عن حياته، وعن موسكو، وعن المدينة التي نعيش فيها وتاريخها. وكان من عادة بافيل سيميونوفيتش أن يبدأ أحياناً بالكلام عن نفسه وعائلته، أو يدخل في نقاش حول ما قاله الأب أرساني.

لم أحبّ هذه الزيارات. ولم أحبّ هذه الأحاديث. وقلت للأب أرساني: "لِمَ تواصل التحدث اليه؟ انه يأتي، ويجيل النظر في كل الأنحاء، ويدقق في كل شيء، ويأخذ المال في كل مرة!"

فنظر اليّ الأب أرساني بجدية وأجاب: "يا ناتاليا بتروفنا، أنت لا تنظرين اليه بعناية كافية. عندها سوف ترين فيه قبساً عظيماً من الله". ولكني لم أستطع أن أتخيّل أين يمكن أن يختبئ هذا القبس من الله في هذا الانسان.

وهكذا استمرت هذه الزيارات لمدة عامين. وفي كل مرة كان بافيل سيميونوفيتش يتدبر أمره لرؤية الأب أرساني الذي كان يأتي ويتناول الشاي ويشاركنا في وجبة الطعام. في البداية كان زائرنا يأخذ المال في كل مرة، ثم لم يعد يريد قبوله. بقيتُ أبغض هذه الزيارات وأخافها. لم أستطع أن أحمل نفسي على الوثوق به. ومن ناحية أخرى، بدا أن هذه الزيارات تنشّط الأب أرساني، وبدا لي أنه ربما استمتع بها أيضاً.

وبعد ثلاث سنين ما عاد يقبل المال وحسب، بل صار يحضر لنا أطعمة خاصة لم تكن متوفرة على الاطلاق للناس العاديين. ولم يُرد قبض ثمنها، بل قال في كل مرة: "هذه هديتي اليكما!" ومرّ الزمن أيضاً، ثم بدأ الأب أرساني يدعوه الى غرفته. جميع أصدقائه، بمن فيهم أنا، قلنا له انه ما من شك في أن عليه ألا يفعل ذلك، ولكن الأب أرساني ابتسم لنا وحسب.

وقد حذرني بافيل سيميونوفيتش مرات عدة من أيام يجب ألا يأتي فيها أي زائر. في هذه الأيام كان من عادتي أن أركض الى المحطة وأقول للذين حضروا بأن عليهم الرحيل. كما حصل أنني لاحظت بأن منزلنا موضع مراقبة خلال هذه الأيام. وكان "سكّير" ما يتسلق سياجنا العالي "بالخطأ"، وينظر في كل الأنحاء...

لا أعرف عما كان الأب أرساني يتكلم مع بافيل سيميونوفيتش، ولكني أستطيع القول بأن بافيل كان يزداد تعلقاً بالأب أرساني.

وفي تشرين الثاني من العام ١٩٦٣ حضر بافيل الى بيتنا وهو في أشد الاضطراب: كانت والدته تحتضر. جلس الى الطاولة وبدأ يبكي. وحاول الأب أرساني تعزيته.

– "لقد آمنت والدتي بالله طوال حياتها، ولكنها لم تكن تستطيع الذهاب الى الكنيسة بسبب طبيعة عملي، لذا فقد كانت تصلّي في البيت. كانت منزعجة لأني أعمل لحساب السلطات. ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ أرجوك أن تأتي لزيارتها، وأن تستمع الى اعترافها وتحمل لها المناولة المقدسة. تعال بصحبة ناديزدا بتروفنا. لقد طلبت مني والدتي أن أسألكَ هذا. تعاليا في المساء. سوف أنتظركما عند البوابة، لن يراكما أحد".

خرجنا في حوالي الساعة الثامنة، بحسب الاتفاق. وكان الأب أرساني مبتهجاً لسبب لا أعلمه. كان قد حلّ الظلام والمطر يهطل. وصلنا الى البوابة، وكان بافيل بانتظارنا هناك، بحسب الاتفاق. وأدخلنا الى بيته. كانت والدته ــ ماريا كاربوفنا ــ في حال سيئة جداً. كانت تتكلم بشقّ النفس، شاحبة الوجه، ناحلة وذابلة. وحدهما عيناها كانتا تلتمعان.

خرجنا من الغرفة، وبقي الأب أرساني مع ماريا كاربوفنا. كانت زوجة بافيل تجهش بالبكاء ولا تنفك تردد: "لم تري في حياتكِ امرأة مثلها. لقد ساعدتنا.

ربّت أولادنا، ولم تكن تستطيع ارتياد الكنيسة بسببنا، ولكنها لم تلمنا مرة على ذلك. كانت تملك أيقونات مخبأة، وتصلي في البيت".

وبعد حوالي ساعتين خرج الأب أرساني من الغرفة ودعانا للدخول. بعد الاعتراف بدت ماريا كاربوفنا أكثر حياة. وطلبت المساعدة في الارتفاع فوق مخدتها، وقالت: "أيها الأب أرساني لا تنسَ ولديّ بافيل وزينا. اني أسألك هذا باسم الرب. انهما شخصان طيبان. ان بافيل يحاول، حتى خلال عمله في الشرطة، أن يساعد كل الذين يستطيع مساعدتهم".

ثم نظرت اليّ وقالت: "ناتاليا بتروفنا، يا يمامتي، ابقي معي واقرأي صلاة المحتضر. سوف أموت اليوم، لذا أرجوك أن تفعلي ما أطلب منك".

لم يسبق لي قط أن قرأت الصلاة من أجل المحتضر. نظرت الى الأب أرساني، فقال: "ابقي، لقد أحضرت معي كتاب المزامير". كنت قد تعلمت قراءة اللغة السلافية الكنسية، وقرأت كتاب المزامير مرات عدة: لقد علمني الأب أرساني قراءة الخدم عندما أصبحت مؤمنة.

وبقيت بالطبع، رغم أني كنت خائفة بشكل واضح. وذهبت زينا لتوديع الأب أرساني، وبقي بافيل معي في الغرفة. أضأنا الشموع وشرعت بالقراءة. في البداية ارتكبت بعض الأخطاء، وتعثرت ببعض الكلمات الصعبة، ثم استطعت أن أضبط نفسي.

تمددت ماريا كاربوفنا بسلام، وعيناها الواسعتان مفتوحتان. راحت ترسم علامة الصليب من وقت لآخر بصعوبة كبيرة. ووقف بافيل بالقرب مني. ثم عادت زينا، وضعت الأولاد في أسرّتهم وانضمت الينا للصلاة.

كان الوقت ليلاً، والساعة متأخرة. وكنت متعبة، ولكني تابعت القراءة، مرتشفة القليل من الماء من وقت لآخر. ثم رفعت نظري الى ماريا كاربوفنا ورأيت بأنها تريد أن تقول شيئاً، فاقتربت منها.

– "أرجوكِ أن تتوقفي عن القراءة لدقيقة واحدة. أودّ أن أودّع بافيل وزينا، وأنتِ أيضاً".

كان في هذا الوداع شيء لا مفرّ منه، وحزين في العمق. كانت ماريا كاربوفنا جدية، شديدة التركيز ولطيفة. ولم يكن على وجهها أي أثر للخوف. قبّل بافيل وزينا يديها وبكيا بصمت. الا أن عيونهما كانت تحمل الكثير من الحب العميق، والوعي، والادراك بأن الموت ليس أمراً مروّعاً، بل واقعاً لا مناص منه علينا أن نضيئه بمحبتنا وحناننا. لقد وثقنا بأن المحتضرة على وشك القيام برحلة طويلة، وأن صلتنا بها لن تنقطع بموتها.

اقتربت منها، فهمست لي: "لا تتركيهما. صلي من أجلي، سامحيني".

تابعتُ قراءة المزامير. ونحو الساعة السادسة صباحاً، توقفت ماريا كاربوفنا بهدوء عن التنفس.

عدت الى البيت في الصباح، وأقام الأب أرساني مساءً خدمة الراقدين. وصارت زينا تأتي كثيراً لزيارتنا بعد وفاة حماتها، وتصلي مع الأب أرساني ومن اتفق وجوده في المنزل. وبقي بافيل يأتي بمفرده، ويعلمنا على الدوام بحضوره.

وفي سنة ١٩٦٤ بدأ بافيل بدراسة الحقوق. ثم ترك مدينتنا في سنة ١٩٦٩، وبدأ العمل كقاضٍ في مدينة أخرى.

وحتى وفاة الأب أرساني في العام ١٩٧٣، بقي بافيل يزوره. وبعد وفاته أصبح بافيل الابن الروحي للأب ف. الذي أرشده اليه الأب أرساني.

كثيراً ما أخبرني الأب أرساني أن لبافيل روحاً طاهرة بشكل استثنائي. لقد تدبّر أمره للقيام بأعمال صالحة حتى عندما كان يعمل لحساب الشرطة.

وفي احدى الليالي، وبينما كنا نتحدث عن قوة الايمان، قال: "لكل شخص قوة ايمان خاصة. هذا الايمان قد أعطاه اياه الله بحسب طبعه، وقوته، ومساره

الروحي. اذ يُعطى الكثير لراهب أو كاهن تعلّم بارشاد ستاريتز، ولكن سيُطلب منه الكثير أيضاً.

"والآن انظري الى بافيل وزينا: ماذا أُعطي لهما؟ لا شيء تقريباً. ولكن كان في نفسَيهما قبس من الله. هذا القبس قد وضعته في داخلهما والدة بافيل، وقد حافظت عليه متوقداً فيهما.

"وحتى قبل أن يعرفا بأنهما آمنا، كانا قد عملا خيراً كثيراً فيما حولهما، كما سمعنا بعد مغادرتهما المدينة. وما أن اشتعل لهب الايمان في نفسيهما حتى التمعا باشراق قد يفوق الذين "عملوا من الساعة الأولى" (متى٢٠: ١-١٦)".

وأنهى الأب أرساني حديثه بالقول: "لقد التقيت في حياتي من قبل بأناس مثلهما، ذوي نفوس طاهرة".

هذه القصة روتها ناديزدا بتروفنا.

بعض الكلمات على سبيل الخاتمة

من خلال الأحداث المروية في هذا الكتاب، تنكشف لنا أجزاء من حياة الأب أرساني البعيدة عن المتناول. نجد فيها رجلاً لطيفاً وبسيطاً، ذا وجه صادق ومنفتح، رجلاً لم يتأثر بمعتقدات العالم المحيط به ولا بعاداته - العالم المشبع بالأكاذيب والمصلحة الشخصية، والعُجب والقسوة - عالم صاغ العديد جداً منا على صورته ومثاله، وشوّهنا. لم يكن الأب أرساني يساوم. كان شجاعاً، ومتعلقاً تعلقاً لا ينفصم بما آمن أنه حق وعدل. لم يسقط ضحية القوى العنيفة الغاضبة التي أسلمته الى العذاب الأليم والاضطهاد. وبدلاً من ذلك، فقد كان رجلاً اختار بملء حريته طريقه الى الله، وباسم الله. ومشى في طريقه حتى النهاية بنبل نادر، وانكار للذات وبساطة.

لاحظوا بأية حكمة وحزن، وبأي اهتمام روحي عميق نظر الى وجوه حتى الأشخاص الأكثر رعباً وقسوة الذين أحاطوا به. لقد حاول دائماً أن يجد طريقاً الى قلوبهم، وأن يشعل في نفوسهم قبس الله، وأن يصحح مسارهم، ويوجّههم الى فعل الخير. يكفي أن تنظروا الى العدد الكبير من الناس الذين خلصهم وساندهم خلال أصعب أوقات حياتهم، وأحياناً في ساعاتهم الأخيرة على هذه الأرض.

بقراءة هذه المذكرات، لا يمكن للمرء الا أن يتذكر العديد من الناس الذي تعذبوا وقضوا من أجل الايمان، ومن أجلنا جميعنا.

فهرس

	الصفحة
مقدمة	٥
الجزء الأول: المعسكر.	
معسكر السجناء.	٨
الثكنات.	١٠
المرضى.	١٦
الكاهن الغبي.	٢٤
توقفوا عن هذا!	٣٢
استدعاء للمثول أمام الرائد.	٣٥
الحياة تستمر.	٤٣
"حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي".	٤٥
الرجل العادل.	٥٦
يا والدة الاله لا تتخلّي عنهم!	٥٨
ميخائيل.	٧٢
أيّ طرف تؤيّد أيها الكاهن؟	٧٩
سازيكوف.	٨٨
الاعتراف.	٩١
لن أتركك.	٩٥
رحلة متعبة.	١٠٠
"أني آمرك بالتوقف!"	١٠٤
بهجة!	١٠٦
وتستمر الحياة.	١١٢
الاستجواب.	١١٧
تغييرات رئيسية.	١٢٣
الوداع.	١٢٧
الرحيل.	١٣٥

	الصفحة
الجزء الثاني: الطريق.	
اني أتذكر.	١٤١
مذكرات امرأة تدعى تاتيانا.	١٤٩
عودة من الماضي.	١٥٣
اني أتذكر.	١٦٠
ايرينا.	١٦٨
الموسيقيّ.	١٨٢
اني أتجمد.	١٨٨
الجزمة.	١٩٢
الجزء الثالث: الأبناء الروحيّون.	
اعتراف.	١٩٧
رسالة صغيرة.	٢٠٧
خدمة من أجل الراقدين.	٢٠٨
اني أسلّم الرسائل.	٢١٠
بعض الأفكار الحزينة.	٢١٥
بافيل سيميونوفيتش.	٢١٩
بعض الكلمات على سبيل الخاتمة.	٢٢٦

طبعة أولى

٢٠٠٠

جميع حقوق الطبع محفوظة